عبقرى من سنتريس

زكى مبارك الملاكم الأدبى

تقديم الكاتب الكبير: أنيس منصور



محمد رضوان

•• عبقرى من سنتريس

زكى مبارك الملاكم الأدبى

محمد رضوان

الهيئة المصرية العامة للكتاب

٢٠٠٤

● الاهـــداء

الى من أحبتنى بلا حدود وبلا انتظار للجزاء

الى روح أمى الغاليـة

منبع الحنان والحب الحقيقى

فى رحـاب الجنـــة ،،،

ابنـــك

محمد رضوان

القاهرة ٢٢ سبتمبر ٢٠٠١

تقـــديم

● هذا الكتاب

بقلم الكاتب الكبير : انيس منصور

انا اشعر بالعطف الشديد على كاتبنا الكبير د. زكي مبارك . فهو مفكر من نوع خاص . وهو شديد الحساسية وله مواقف كثيرة تقليدية . ولم يكن حريصا على أن يكون فى الطابور . فمتعته هى ان يخرج على الاجماع . أي يقف بعيدا عن الناس ويسخر من الجميع ولكنه فى جميع الاحيان له اجتهاد . بعض هذه الآراء تصدمك . وبعضها مثل لسان طويل يلعب به فى اكثر المواقف جدية انه على كل حال فقيه وفنان واستاذ ومزاج خاص .

وقد امتعنى هذا الكتاب للاديب محمد رضوان ، فالمؤلف قد اعجب هو ايضا بزكى مبارك . ثم تابعه برفق ورافقه بحرص شديد على ان يقدم لنا صورته شفافة واحيانا عارية . فقد عاش فى القرية وتزوج بها وخرج منها وسافر الى اوروبا وعاد ممزق النفس حائرا بين الذى تعلمه وبين الذى يرفضه الناس . واختار حريته ومزاجه الخاص . ولان التحديات كانت شديدة ، كان صوته عاليا ونبرته حادة واستراح الى اغضاب الناس والكفر بهم . ولكن وراء هذه التحديات نفسا معذبة . فقد كان يريحه ان يقف الى جانب الناس . ولكن الناس دفعوه الى أن يحاربهم وشجعوه على ان يكون نافرا ناشزا .

وفى مؤلفات د . زكى مبارك اجتهادات كثيرة وكتابه (النثر الفنى) هو اروع اعماله الادبية . وفى هذا الكتاب متحف جميل لقضاياه الفكرية والبلاغية والذى يعاود قراءة هذا الكتاب يلاحظ ان د . زكى مبارك يصرخ كثيرا . ولكن نحن لا نعرف نوعيات الناس الذين يلعنهم وينسى الناس كثيرا ما يقوله هذا الرجل الممتاز — ولا يذكرون الا لسانه الطويل والا شروده وشذوذه عنهم . ان عظماء كثيرين سبقوه الى الظلم الى ان يظلمهم الناس : سقراط واوسكار وايلد واندرية جيد وجان جينيه وابو نواس ومايكل انجلو وغيرهم كثيرون لم يغفر لهم الناس سقطاتهم

ولم يشفع لهم عند الناس هذا الجهد الهائل من التجديد والثورة على القديم والخروج عن الصفوف التى مات عليها الفكر والابداع فى كل العصور .

ان مؤلف هذا الكتاب محمد رضوان شاب قد اختار رجلا من جيل سابق على جيله وكان هذا الاختيار نوعا من استئناف الحكم فى قضية زكى مبارك ، وصورة من صور العدل او طلب العدل ورفع الغضب عن فنان كبير عاش مظلوما ، ومات مظلوما . ان هـذا الموقف من المؤلف الشاب ليس فنيا فقط ، وانما هو موقف أخلاقى ايضا .. لأنه لم يختر فنانا كبيرا ، وانما اختار انسانا شقيا بنفسه وبالآخرين .. ومن الغريب أن شقاوته هذه أمتعت وأسعدت كـل من يقرأ حيـاة زكى مبارك !

انيس منصـور

● لقاء مع الزيات ....

التقيت بالاديب الكبير احمد حسن الزيات « فى فيللا الرسالة » الانيقة التى يقطن فيها والتى تقع فى مكان هادىء من حى المنيل وجلسنا فى الشرفة الواسعة ثم خضنا فى حديث ذى شجون وامتد بنا الحديث لساعات طويلة ساحرة والأستاذ الزيات جالس وفى عينيه نظرة حالمة وهو يسترجع جميل ذكرياته ويقص لى طرفا من ذكرياته مع اعلام الفكر والبيان ثم تطرق بنا الحديث الى الدكتور زكى مبارك وانطلق يسرد لى بعض ذكرياته عنه ولما سألته عن رايه فى انتاج زكى مبارك قال انه من الممكن ان نضع مؤلفاته فى الدرجة الأولى « فهو اديب خصب القريحة سهل الأسلوب » وفى رأيه أن أعظم مؤلفاته كتاب « النثر الفنى » من حيث البحث والمجهود الضخم الذى بذل فى تاليفه ويقول ان كتابه التصوف الاسلامى كتاب ممتاز من الدرجة الأولى ويقول ان مؤلفاته كلها جيدة ثم قال ان الدكتور زكى كان نشيطا خصب الانتاج ذكى ذو اصالة منفردة وسألته عن رايه فى اسلوبه فقال ان اسلوبه سلس رقيق صحيح عذب يحب الانسان ان يقراه وهو اسلوب ذو طابع فريد وذكر الأستاذ الزيات انه كان يقابل الدكتور زكى دائما فى ادارة مجة الرسالة وكان زكى مبارك يزوره .

وقال عنه ان من طبعه الجراة والصراحة العارية ويقول ان مشاكساته كانت سبب ماساته مما جعله يصطدم مع معظم رجال عصره ثم ذكر أن من صفاته الوفاء ويظهر هذا فى دفاعه الطيب الحار عن الشيخ سيد المرصفى عندما هاجمه السباعى بيومى ثم سألت الأستاذ الزيات أن يحدثنى بصراحة عن رايه فى المعركة

(★) قابلت الزيات يوم الأربعاء ١٩٦٧/١٠/١٧ بعد ان قرا مخطوطة هذا الكتاب .

بينه وبين محمد احمد الغمراوى والتى ترك مبارك الرسالة بسببها فى نهاية سنة ١٩٤٤ عندما اتهمه الغمراوى بالالحاد والزندقة بسبب عبارات لم يفهمها من كتاب النثر الفنى فاعترف الزيات بأن محمد احمد الغمراوى كان متزمتا متعنتا فى هجومه ووصفه بالتحامل على مبارك فى تلك المعركة وقال الزيات انه قرأ النثر الفنى فاعجبه ولم يجد فيه اى شىء خارج يدعو الى اتهامه بالكفر والالحاد ثم سالت الأستاذ الزيات عن رايه فى غراميات زكى مبارك واحاديثه الوجدانية العديده عن ليلاته ومدى صحة احاديثه عن غرامياته مع العديد من النساء الملهمات فقال لى ان كتاباته العديدة عن غرامياته بعد عودته من باريس كانت اضغاث احلام وذكر لى واكد انه كان يعانى من الكبت والحرمان العنيف الممض فاحس بالالم والعذاب والحرمان فرغب فى ان يفرج عن نفسه بتلك الأحاديث الموهومة عن غراميات خيالية فخلق لنفسه عالما جميلا ساحرا وتخيل المراة المثالية التى احبها وارادها ولم يستطع أن يحقق شيئا من ذلك فى الواقع فخلقها خلقا فى خياله ورسم صورتها فى نثره وشعره لأنه لم يجد ذلك الحب فى حياته فكانت وجدانياته واقاصيصه عن ملهماته الكثيرات وغرامه العنيف بهن تنفيسا عن حالة الكبت التى يعانيها فالحب يريده ولا يستطيعه ولكن الأستاذ الزيات لا ينكر انه كانت فى حياته بعض النساء اللاتى الهمنه روائع القريض ثم ذكر لى انه احب احدى الممثلات الفاتنات المشهورات وقد دام هذا الغرام فترة من الزمن ثم انقطعت العلاقة بينهما لظروف ما ... وسارمز اليها بالحرف الأول من اسمها وهو (ز) وسألته عن كتاب شيث بن عربانوس الذى كتب عنه زكى مبارك فى الرسالة سلسلة من المقالات بعنوان (بين آدم وحواء) فقال انه محض خيال وانه نوع من الأدب الرمزى أراد به مبارك أن يصرح بما يريد قوله بصراحة بأسلوب رمزى ثم سألته بعد ذلك ان يقول رايه فى زكى مبارك الانسان فقال لى أن زكى مبارك كان يقابل الحياة بصدر رحب وكان متفائلا دائما لم يعرف التشاؤم ولكن وضوحه وصراحته كانت سبب ماساته العنيفة التى انتهى اليها وادت الى تحطيمه ...

ثم اخذت استرجع معه ذكرياته الطريفة مع الدكتور زكى مبارك ومن مجمل ما قلته له :.

— اتذكر يا استاذ زيات عندما سافرت الى المنصورة سنة ١٩٤٠ اثناء الحرب العالمية الثانية وكتب الدكتور زكى مبارك يداعبك بقوله :

(ارجع الينا يا احمد قبل ان تعضك السمكات بشـــط المنصورة الذى اعرف وتعرف ، والا فانتظر قدومى اليك لاشاطرك النشوة باغاريد الملاح) وضحك ضحكة جعلت الدم يندفع الى وجهه ويصبغ وجنتيه بدماء الحياء حتى شرق الدمع من عينيه ! ..

وظللت اقول له : ؟ ... ؟ ...

فاكر ؟ .. وفاكر ؟ .. وفاكر ؟

وشرد أحمد حسن الزيات بذهنه بعيدا يسترجع ذكرياته مع زكـى مبارك وقال هامساً وفى صوته رنة اسى :

— يرحمه الله ، لقد كان زكى مبارك آية فى خفة الظل ، وحلاوة الروح ، وصفاء النفس ، وانك يا رضوان قد انصفت زكى مبارك خير انصاف .. لأن زكى مبارك اديب مغبون لم ينصفه احد حتى اليوم ! ..

محمد رضـــوان

• خفقــة قلب

« لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ما شربت لتحول الى أوتار وقلوب .... فكيف أصمت والدنيا كلها تتأرج من حولى بأنفاس الأزهار والرياحين ، ولى قلب يتشوف الى أفنان الجمال .. تشـــوف الشمس الى أنداء الصباح » ...

زكى مبارك

• ذكريات عن الدكاترة زكى مبارك

بقلم : الشاعر الكبير
صـــالح جـــودت

عرفت زكى مبارك فى وقت مبكر .. فى مطالع عام ١٩٣٢ ، عن طـــريق جمعية ابو للو التى أقامها يومئذ المرحوم الدكتور احمد زكى ابو شادى لرفع شأن الشعر ونشر حركة التجديد فيه ، وقد جعل على رأسها امير الشعراء احمد شوقى ، وحشد حولها أعلام الشعر والأدب والنقد فى ذلك العصر ، وفى طليعتهم الدكتور زكى مبارك ، كما حشـــد من حول هؤلاء شعراء الشباب المأمولين ، وكان فيهم على محمود طه وابراهيم ناجى وم . ع الهمشرى ومختار الوكيل وكاتب هذه السطور .

وازدادت معرفتى به عن طريق صـــديق لنا مشـــترك ، هو المرحوم الأستاذ مصطفى القشاشى صاحب مجلة « الصباح » .

كنت يومئذ بكلية التجارة ، وكنت اكتب مقالا اســـبوعيا بمجلة الصباح وكان لكل من اصـــدقاء صـــاحب « الصباح » فى ذلك الوقت صفحة اســـبوعية أو شـــبه اسبوعية فى مجلته ، وفى مقدمتهم الدكتور زكى مبارك ، والدكتور سعيد عبده صـــاحب المقالات الطبية المعروفة « خدعوك فقالوا » .. الا انه كان فى ذلك العهد يكتب فى الأدب لا فى الطب ، ويمارس الزجل والمواليا والنقد .. وكنا فى اماســـينا نصـــحب صاحب « الصباح » الى ســـهراته العامرة فى المســـارح والملاهى ، او فى بيته حيث يجتمع نجوم الفن وأعلام الصـــحافة ، فنســـمر ونتحدث ونستوحى حتى مطلع الفجر فى اكثر ايام الأسبوع .

(★) كتب الشاعر الكبير صالح جودت (١٩١٢ ـ ١٩٧٦) هذه الذكريات عن زكى مبارك بعد أن اطلع على مخطوطة هذا الكتاب سنة ١٩٧٢ .

وكانت فتنة صاحبنا الدكتور زكى مبارك هى « ليلى » .. التى طالما سـهر من اجلها ، وبكى من اجلها ، ونظم ونثر من اجلها .. وما كان اسمها ليلى .. وانما هذا هو الاسم الذى اختاره لها .. كانت ليلاه نجمة من نجوم المسرح ، شده اليها اكثر من عامل ، واولها انها بنت بلدته « سنتريس » وانها مثقفة وذكية وقارئة الشعر وفيها جاذبية خاصة لا تتوفر لكثير من النساء ، وان لم ينم مظهرها عن ذلك .

ولهذا افتتن بها اكثر من اسم من الأسماء الكبيرة فى دنيا القلم يومئذ ، فتزوجت اول ما تزوجت ، علما من اعلام الصحافة واصحاب المدارس الكبيرة فى مجالها ثم احبها شاعر من اكبر شعرائنا المعاصرين ، هو المرحوم الدكتور ابراهيم ناجى ، فأحبها حبا كبيرا ، استلهم منه أروع اعماله ، قصيدة « الأطلال » .. التى تغنيها ام كلثوم وقد وجه اليها اهداء هذه الملحمة ، وكان اهداء مرا ، قال فيه :

« الى التى تركتها أطلال جسد   وتركتنى اطلال روح »

اما زكى مبارك ، فقد كانت هى حبه الكبير الذى استمد منه مادة والهامه طول عمره ، ولكنى لا احسب انه كان حبها الكبير ، فقد اخذها عليه الاشفاق اكثر مما اخذها الحب .

على ان هذه السيدة ، اذا كانت عذبت قلب صاحبنا الدكتور زكى مبارك عذابا طويلا ، فان هذا العذاب هو الذى الهب قلبه وخياله ، وكان من وراء هذا اللهيب ، ان اضيفت الى الأدب المعاصر كنوز كبيرة من شعر زكى مبارك ونثره واحاديثه الطويلة عن مدامع العشاق .

***

على ان هذه السيدة لم تكن ظاهرة الاستلهام الوحيدة فى حياة زكى مبارك وان ظلت هى العامل العميق المحرك لشاعريته وهذه سمة نجدها فى حياة كثير من الشعراء : يكون فى حياتهم حب كبير ، ولا يمنعهم هذا من استلهام الجمال حيث وجد ، ولكنهم يجدون فى كل جمال جديد صورة غير محسوسة من المنبع الأصيل الذى حرك احاسيسهم اول ما تحركت ، لقد احب ناجى مثلا ، فى اول حياته ، حبا كبيرا ..

وكانت بطلة هذا الحب هى احدى قريباته ، وهى التى رمز اليها فى احد دواوينه بحرفى : « ع . م » .

واحب بعدها عشرات من النساء ، اكثرهن من بنات الفن ، ولكن المحرك الاول لكل هذه الغراميات هو انه كان يرى فى كل هؤلاء الحبيبات ظلالا من حبه الأول ، وان اختلفت الوقائع والتفاصيل ..

وكذلك كان زكى مبارك . .

كان يهزه كل وجه مليح ، وكل روح عذبه ، وكل جمال جديد ، ولكن غانية سنتريس كانت هى المحرك الداخلى لكل ما نظم او نثر فى غرامياته الجديدة .

على ان الظاهرة الجديرة بأن يقف عندها القلم اجلالا لذكرى زكى مبارك ، انه كان رحمه الله كبير النفس ، لم يبذل كبرياءه من اجل الحب ، كما لم يبذل كبرياءه من اجل الرغيف .

لقد عاش زكى مبارك ، فقيرا ، وقاسى كثيرا من الحرمان وهو فى اوج مجده ، من اجل كبريائه ..

لقد حارب كبراء ووزراء وادباء اعلاما واصحاب اسماء جهيرة ، من اجل راى آمن به ، او معتقدا دان به ، فحورب من اجل ذلك فى رزقه ورزق اولاده ولو انه هان على نفسه لاستطاع ان يظفر بالنعمة مقابل كلمة زلفى يقولها او يكتبها لواحد من هؤلاء ولم يعوضه عن شىء مما فاته من مال او منصب ، الا انه كان يعتبر عزة النفس اكبر الوان الثراء ، والا انه كان قليل المطالب فى الحياة ، لا يهمه مظهره ولا هندامه ولا مكان جلوســه لا يهمه الا ان يجد نفســه ، بالقليل الذى معه ، فى حانة متواضعة بميدان توفيق ، وامامه كاس يغرق فيها همومه ولو كانت من ارخص الأنواع ، وحوله آذان تســتمع اليه وقلوب تحبه ولو كانت من عامة الناس ..

وقد اندفع زكى مبارك الى الكاس فى اخريات ايامه بعنف ، لأنه رجل عصامى ، كافح كفاحا بطوليا فى سبيل ان يتعلم ويتفوق ، وكافح كفاحا بطوليا من اجل عقيدته الأدبية ، وانشأ مدرسة ادبية لا شك فى وجودها وكيانها ، ومع هذا ، فانه لم ينل نصيبه من الدنيا ، ولم يلق من معاصــريه القادرين على انصافه الا الجحود ، وهكذا راح يغرق همومه فى الكاس ، ويذيب آلامه فى سعيرها المحموم .

ومات زكى مبارك فلم يذكره احد من معاصريه الا بكلمات عابرة تذهب مع الريح .

ولهذا اكبرت هذا العمل الذى بين يدى القارىء ، والذى شاء الأديب النابه محمد رضوان ان يضرب به مثلا فى الوفاء اعده من اكرم الأمثلة لأننى لا احسب انه راى زكى مبارك ولا عرفه عن قرب ، ولكنه عرفه عن حب هو اسمى انواع الحب .. حب الكلمة الخالصة ، والروح الشفافة ، والأمانة للأدب والتاريخ .

وهكذا خرجت هذه الدراسة الموضوعية الواعية لحياة زكى مبارك، جامعة لكل نواحيه كفلاح اصيل نشأ فى عمق احضان الريف المصرى ، وشق طريقه باظافره الصلدة حتى وصل الى اعلى مستويات العلم فى الأزهر ، ثم فى الجامعة المصرية ، ثم فى باريس ، وجاهد من اجل العلم والدين والعروبة فى مرابع القاهرة ومراتع بغداد وملأ الدنيا بصيحة القومية العربية وكشف عن كنز مجهول من كنوز التراث العربى فى كتابه « النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى » .

***

وبعد ، فهذا الكتاب الذى بين يدى القارىء ، تتعادل فيه روح الوفاء مع روح البحث ، وتتجمعان كطاقة من الزهور يضعها الأديب محمد رضوان على قبر زكى مبارك ، فتنتشر عبيرها فى صدور الأجيال القادمة .

القاهرة ــ ١٩٧٢ صالح جودت

● مقـــدمة

مأساة زكى مبارك

بقلم : محمد رضوان

كان الدكتور زكى مبارك نمطا فريدا فى ادبنا العربى المعاصر ... نشا محمد زكى مبارك فقيرا فى قريته سنتريس يعمل فى الحقل ويكدح وظل يكافح فى عصامية فريدة وطموح دائب حتى دخل الجامعة المصرية بعد ان أتم دراسته فى الأزهر وظفر بدرجة الدكتوراة من الجامعـــة المصرية القديمة سنة ١٩٢٤ ثم دفعه طموحه الى ان يذهب الى باريس ليستكمل دراسته بها فيتجه الى مدينة النور وقد ترك وراءه زوجتـــه وأولاده ثم يكافح كفاحا مريرا هناك ويراسل البلاغ فى مصر حتى يستطيع ان يعيش فى باريس ويمكث هناك خمس سنين كالطير الغريب ثم يعود حاملا أرقى الشهادات العلمية من مدرسة اللغات الشرقية ومن جامعة السربون ويصبح فتى سنتريس الفلاح الذى كان يكدح فى الحقل بالفأس يحمل دبلوم معهد اللغات الشرقية ودرجة الدكتوراه من جامعة السربون بتقدير مشرف جداً .

* * *

وقد عاش شاعر الحب والجمال الدكتور زكى مبارك طيلة حياته يغنى اجمل اغاريد الحب واعذبها وقد طاب له أن يفتضح فى هـــواه فملأ الدنيا غراما وتشبيبا وجعل حديثه عن الحب شريعة من شرائع الوجود وعاش الى آخر نسمة من حياته يتشوف الى افنان الجمال .. ويغرد للحب ,

وقد افصح عن سرائره الوجدانية غاية الافصاح وتميزت الصور الشعرية التى ابدعها بتموجات وجدانية نفيسة .. واطال شاعر الحب والجمال حديثه عن بلائه فى الحب .. وكيف لا يشقى من ظل يهتف للحب ويغرد له طيلة حياته ! .. وقد كان صادقا فى حبه غاية الصدق ورسم مبارك صوراً عديدة لخفقات قلبه وترانيم وجدانه وقد ابدع اجمل اغاريد الحب والجمال واعذبها وصور لنا مشاعره وعواطفه واشواقه فى كل ما اسطره من وجدانيات قبسها من روحه ووجدانه . وافصح عن سرائر روحه بأمانة وحرارة وصدق .. وكان لمذهبه الأدبى الصريح الذى تحرر فيه من القيود والأغلال آثار مريرة عليه فرغم أن زكى مبارك لم يكن له الا مأرب واحد من الجمال هو درس الطبائع والغرائز والميول ليخرج من ذلك بمحصول فلسفى ينفع فى اذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية ورغم ان هدفه كان تشريح عاطفة الحب تشريحا ادبيا وجدانيا لامداد اللغة العربية بثروة نفيسة من المشاعر والعواطف الانسانية الرفيعة الا انه لقى حربا عنيفة قاسية لأنه عاش يغرد فوق أفنان الجمال ! وقد عاب عليه بعض اهل الجمود حديثه عن روائع الحسن وبدائع الجمال فنعتوه بالكاتب الماجن الخليع ! واثاروا حوله الاباطيل والاراجيف العديدة .. كان مؤمنا فاتهموه بالزندقة والالحاد ! وكان عاشقا عذريا فاتهموه بالفجور والضلال ! وكان وطنيا صادقا .. فاتهموه بالمشاغبة والتعسف .. وكان ابيا شريفا فاتهموه بالكبرياء والغرور ! .. وكان صريحا صادقا فاتهموه بالخشونة وبداوة الطبع ! .

ومن هنا احس بالمرارة فى اعماقه فعاش كالطير الغريب .. وشقى بوطنه وزمانه وقد عاش مبارك طيلة حياته ممتحنا بعداوات الرجال ورغم كل شىء فقد حمل لواء الحب والجمال حتى مات وهو يهتف للحب ويغرد للجمال ! .. وقد تربصت به جماعة من الذين يأكلون السحت باسم الدين والاخلاق فاتهموه بالتهم القاسية العنيفة وشككوا فى اخلاقه وعقيدته لا لشىء الا انه عاش شاعرا عاشقا مفتونا بغرائب الحسن والوان الجمال ! وما العيب فى ذلك يا اهل النفاق ؟ ويرد مبارك على خصومه فيتساءل قائلا : من خلق هذه الصور الجميلة التى اطارت الباب الشعراء وحيرتهم فى كل واد يهيمون أتراهم يقولون انها خلق الله ام خلق الشيطان ! ويتساءل فاذا كانت من خلق الله فلم ينكرون علينا أن نتغنى بصنعه البديع وان كانت من خلق الشيطان فلم لا يمحون الحسن من وجوه الحسان لانه من عمل الشيطان الرجيم ؟!

آمنت بالله وكفرت بما لهم من منطق مقلوب ! ..

* * *

كان الدكتور زكى مبارك اماما للمشركين فى الحب ! .. وكان يرى ان الشرك فى الحب قد يعين على فهم الالوان المختلفة من طبائع الملاح وهذا ما قصد اليه بعض الشعراء الوجدانيين فى الادب الفرنسى ويرى أن المشركين فى الحب درسوا طبائع متعددة سمح الشرك بدرس تقلبها دراسة وافية ! .. فعاش مبارك كالبلبل الفريد يتنقل من روض الى روض سعيا وراء تذوق أطايب الجمال وكان لتنقله من هوى الى هوى اثر بعيد فى الهاب احاسيسه واضطرام عواطفه فابدع ما فاضت به نفسه من اناشيد عذبة فى معبد الحب والشعر والجمال ! ...

وفى أدبه الوجدانى تموجات وجدانية نفسية متباينة فبينما نراه فى بعض ما كتبه يصف جنونه بالمراة فى حسية عارمة نراه يحلق تحليقا سماويا جميلا فى معظم ما كتبه وابدعه من اغاريد شجية ! فكان زكى مبارك احد الشعراء العذريين الذين عرفوا الحب العذرى وهتفوا له فالحب العذرى هو حب خالص من شوائب الدنس والرجس وهو حب طاهر شريف ، من فرسانه قيس والعباس بن الأحنف ! .. ويرى مبارك ان الحب العذرى لا يقوم على الزهد المطلق فى المتعة الحسية وانما يقوم على اساس الصراع بين روحين يغالبان مطامع الافئدة ومطالب الحواس وفى رايه أن الحب العذرى هو معركة عنيفة تقع فى ميدانين : الاول ميدان الصراع بين الشاعر وهواه والميدان الثانى ميدان القتال بين الشاعر ومن يهواه وهو فى الميدان الثانى لا يطارد فريسة لا تنال بأيسر الجهد وانما يطارد ظبية عصماء لا تنال الا باقتحام الأهوال فوق قمم الجبال ! . ويقول أن الحب العذرى حين نتصوره هذا التصور لا يكون الا رياضة أخلاقية وقد كان كذلك بالفعل فى أنفس من اقبلوا عليه من اعاظم الشعراء ! .. ثم يقول ان الحب العذرى حقيقة من الحقائق وليس فرضا من الفروض ويرى انه لا يرتاب فى هذا الحب الا الذين ضاقت منادح اهوائهم فلم يجروا الا فى ميدان الحسن المبذول وفى رايه ان اولئك القوم يمشون فى دنيا الحب مشى المقيد فى الوحل فلا يتعالون الى فكرة سامية ولا يتسامون الى مقصد رفيع ! .. وقد كان الدكتور زكى مبارك شاعراً عذرياً عاشقاً يرى الحب طريقاً الى تهذيب

الارواح وتربية العواطف وقد خلق شاعر الحب والجمال للمــراة فى وجدانياته شمائل تميزها عن سائر بنات حواء فقد خلق منها عروسا للشعر وجعلها امراة مثالية وقوة روحية تسيطر على ممالك ضلالــه ومذاهب هداه وخلق منها مثالا رائعا لا تحده الأوهام ولا الظنون وكثيرا ما صورها فى صورة جنية تلبس ثياب المرأة لتخبله وتستبيه بلا ترفق ولا استبقاء اليس اميرا للعشاق ؟! .

الدقى

محمد رضوان

● الفصـــل الأول

ســيرته وثقافته

« ليذكر ان الدكتور زكي مبـارك لو كان انفق نشــاطه في الاتجــار بالتراب لأصـبح من كبار الأغنياء ولكنه ـ بلا اسف ـ سيموت فقيرا لأنــه انفق نشاطه في خدمة الأدب العربي » ٠

زكي مبارك

عبقرى من سنتريس :

ولد محمد زكى عبد السلام مبارك لأسرة فقيرة فى سنتريس بالمنوفية فى ٥ اغسطس سنة ١٨٩١ وكانت ملاعبه بين ربوع تلك القرية الصغيرة التى تنام فى احضان النيل فتفتح خياله على تلك الطبيعة الخضراء الساحرة ·

ونشأ فلاحا يعمل فى الأرض وقد ظلت آثار الفأس والمدرأت فى يديه عند ما كبر وأصبح يحمل أرفع الشهادات العلمية ·· ثم التحق بالكتاب فحفظ القرآن وجوده وفى تلك الفترة من صباه كان يشهد مجالس الصوفية وكان لأبيه صلات روحية بأهل تلك الطرق الصوفية وكان محمد زكى يعرف أنه موصول العهد برجل صالح اسمه محمد سعد وكذلك درج على احترام ارباب الصوفية وكان طفلا وديعا رقيقا هادئا وفى صباه كان مفتونا بالجمال ونشأ منذ طفولته بقلب رقيق عاشق للجمال والسحر فكان ينعم فى طفولته بترنيم هذه التغريده ·· (يا بحر يوسف يا ما فيك كل بلطيه) وكان يفهم ان (البلطية) هى رمز للغادة الحسناء ·

كانت قرية سنتريس فى ذلك العهد لا تعرف الطلمبات وكان الماء يحمل الى المنازل من النيل أو السواقى ··

وفى تلك الحقبه كان محمد زكى يخرج لصلاة الفجر فى وقت مبكر ثم ينتقل ـ مسرعا الى داره فيسحب البقرة أو الجاموسة أو الجمل ويخرج الى الحقل وهو مسرور وجذلان لأنه سيشهد اسراب الصبايا فى طريقهن الى السواقى أو النيل وحولهن ظلال من الهوى المرح والشباب النشوان ·

وكان أبوه – عبد السلام مبارك – يعجب كيف يسبقه ابنه الى اداء صلاة الفجر وكيف يسرع الى اداء اعمال الصباح فكان يصفه بالتقوى والنشاط وما كان يعلم انه لا يبكر الا ليشهد السرب الأول من اسـراب الملاح ! ..

وكانت تلك المشاهد تتكرر فى الصباح وفى الأصيل من كل يـوم فكان محمد زكى يمشى بقلب مشبوب فى الغدوات والأصائل وكان لا يغدو ولا يروح الا بقلب مفتون ! ..

وفى ضاحية القرية كانت توجد ساقية وكان حوض الساقية ملعبا لأقدام الحسان وملعبا لهوى محمد زكى ! ..

وكم من ذكريات عطرة جميلة حملها قلبه العاشـق لتلك الساقيـة التى كان يغدو اليها ليشهد أسـراب المـلاح وينتهب بعينيه شـوارد الحسن ! ..

الحب الأول :

كانت للجيران بنت لطيفة خفيفة الروح حلوة الحديث كانت تلقاه كل صباح وهو ذاهب الى الكتاب وتداعب قلبه المتفتح وتقول له ببراءة :
(انت يا ولد عيونك خضر زى عيونى)

وكان فى القرية طريق الى النيل .. طريق ضيق فكان محمد زكى يختلق الأسباب ليمر به مر العشاق فى الضحى والأصـيل وفى ذلـك الطريق كان يرسل التحية المخطوفة الى تلك الفتاة الغيداء حاملة الجرة .

تسلل الحب الى قلبه فاندفع يغنى ويرسل فى محبوبتـه الـوان الأناشيد من قصائد ومقطوعات ويرددها بصوت مسموع وهو يسـير على النيل بين الطبيعة الخضراء وقلبه يرف بين ضلوعه رفيفـا عذبا غريبا لاعهد له به من قبل ! ..

وكان هذا الشعر على سذاجته عفيفا صادقا كأكثر اغاريد الأطفال وهكذا عرف القلب العاشق المفتون الحب ..

وكانت عذوبة النغم الجميل من ناى أو فتنة الليل الساجى تفتنـه فيحلق خياله الى آفاق بعيدة ساحرة ...

وكانت قصيدته التى استوحاها منها تقول :

ايـــه يـا فتنـــة الوجـــود ســـلام
مـــن مشـوق متيـــم القلـــب عـــانى
لـــو يشـاء الهـوى حـوتـك ضـلوع
حـــائمـــات عـــلى صـــباك حـــوان
فـــارحمى فـــانيـا مـــن الوجـــود يشـقى
بغـــرام مـــؤجـــج غيـــر فـــان
رنقـــت ورده الليـــالى فـــامسـى
يرقـــب الصـــفو مـــن خـــلال الأمـــانى

واستمرت نشوة احساسه الغريب اللذيذ ولم يعد يطيق البعد عن محبوبته المنبع الوحيد لفرحة الطاغى وسعادته ووحى شعره ! .. ومن هنا تبلورت اتجاهاته الشعرية فقد بدأ محاولاته بنظم مقطوعات غزليـة ارسلها فى محبوبته ..

ولكن صدمة عنيفة قاسية تصدم قلبه المتفتح البرىء فيختطفهـا الموت فى عمر الورود . لقد ماتت ليلاه وحبه الأول الطاهر البرىء .. ماتت فاتحة الأمانى وخاتمة الآمال كما يسميها ..

وعندما أصدر زكى مبارك ديوانه الأول سنة ١٩٣٣ اهـداه الى ملهمته الأولى فقال :

الى تلك الفتاة التى خفق لها القلب أول خفقة ، والتى قلت فيها أول قصيدة وسكبت عليها أول دمعة الى تلك الفتاة المنسية التى تنام فى قبر مجهول تحت سماء سنتريس .

اليك يافاتحة الأمانى وخاتمة الآمـــال اليك يا كل ما كنت أملك فى مطلع الصبا وفجر الشباب أقدم هذا الديوان.

واقســـم مـــا قدمـــت الا أضـــالعى
يمزقهـــا حـــزنـى وينثرهـــا وجـدى
فـــلا تحســـبينى بعـــد أن خانـك البلـى
تخونـــت مـــا بينـى وبينـــك مـــن عهـد

---

(١) ديوان زكى مبارك ، القاهرة ١٩٣٣ .

هذا هو حبه الأول وهذه هى الفتاة التى قال فيها أول قصيدة وسكب عليها أول دمعة ..

هذا هو حبه الأول الذى طارد خياله أول حياته وألهب شاعريته وقد ظل طيفها يشوق قلبه وهو يعيش نائيا فى باريس ..

واصبح كل جمال يلهب شاعريته ..

ومن هنا نشأ محمد زكى مبارك عاشقا مفتونا مغرما ..

وشاعرا للحب والجمال .

* * *

فتن زكى بالشعر منذ طفولته وكان لا يجد كتابا يحوى ابياتا من الشعر الا انكب عليه واخذ يروى ظمأه بقراءته .

واحاطته اسرته بكل ضروب الرعاية والحنان والحب ..

ومن ذكرياته الحزينة .. صدمة عنيفة تلحق بهم ..

كان فى بيتهم ابراج حمام فخرج اليها ثعبان مستقتل لياكل تلك الحمائم فاوقدت امه عليه النار ليموت بالدخان ولكن النار استطارت فاحرقت البيت وامسى بلا سقوف مع قسوة الشتاء واتت النيران على جميع الأشياء وتركتهم بلا قوت واجتمعت العائلة تعرض عليهم من الطعام والشراب فى حدود ما تملك ولكن اباه رفضها وقال :

– ان ابنى محمدا نجا من النيران وهو ذخيرتى فى حياتى وهو الباقى ! ..

كان ابوه عبد السلام مبارك تقيا ورعا طيب القلب لماح الذكاء وقد حفظ القرآن واتصل بالصوفيه .. وفى تلك البيئة المحافظة المتدينة نشأ زكى مبارك متدينا عميق الايمان يحافظ على الفروض والنوافل ويصقل نفسه بالدين ويقرأ الكتب الشعرية التى تقع تحت يده ..

كان أبوه فلاحا اصيلا ومكافحا فريدا كان يملك بضعة فدادين يعيش من ريعها عيش الكفاف .. فأحب زكى اباه وكان موضع فخره واعتزازه وكان يراه نصيرا للضعفاء وسنادا للمظلومين وحليفا للكرم والجود ووصفه بصباحة الوجه وصحة الدين وصدق القول وفصاحة اللسان ويقول ان ثغرة لم يعرف غير الابتسام حتى فى أشد الأزمات والخطوب ..

(كنت ابنا بارا بابيه وكان يرى بأبى يتمثل فى صورة لم تخف عليه فقد سمعت انه تحدث بها الى بعض الأصدقاء وهى أنى اخفى عنه همومى واحزانى فما بات ليلة وهو مغموم بسببى ولا وصل اليه حزن من طريقى) .

ويقول (كانت اخطر فاجعة تهون على أبى مادامت بعيدة عنى) كان والده لا يتناول طعاما الا ويدعو ابنه ليشاركه فيه ..

وعندما كان محمد زكى يدخل الدار مع الليل والشواء يفوح والنوم فى جفونه فيأوى الى مضجعه وهو يرجو أن يعفيه أبوه من مشاركته فى عشائه المرموق ولكن الأب لم يكن يتناول طعامه بدون مشاركة ابنه .

وقد ظل زكى مبارك وفيا لابيه حتى النهاية وعندما توفى ابوه سنة ١٩٣٥ بعد عودة زكى مبارك من باريس كانت صدمة عنيفة قاسية هزت كيانه هزا عنيفا فرثاه وهو يبكى : (هل تعلم انى ما تلفت الا رأيتنى مغمورا بأياديك فهذا دمك يجرى فى عروقى وأنت الرجل الشهم الذى اجتاز مفاوز الدنيا بقلب اقسى من الصخر وعزيمة امضى من السيف وتلك رزانتك اتمثلها فازداد سخرية بالحوادث والخطوب وذلك ثغرك الذى لم يعرف غير الابتسام فى جميع الأحوال أتمثله فاعرف أن الدنيا اهون من أن يقطب لها جبين الرجل الشجاع وذاك ايمانك اتذكره فاعرف أن اليقين كنز ثمين) .

ويقول (لقد كانت خطوب الزمان لاتؤذينى الا لأنها تؤذيك واليوم وقد تنزه قلبك عن الحزن فلتفعل الايام ما تشاء فسألقى صروف الدهر بقلب اقسى من الموت واعنف من الزمان ..

هذه هى فجيعته فى أبيه ..

هذا هو أبوه عبد السلام مبارك ..

* * *

وأما امه فكانت سيدة مؤمنة صالحة طيبة القلب صافية النفس كانت تفرح بالمرض أشد الفرح لأنها كانت تؤمن بان دعاء المرضى دعاء مستجاب فكانت تقضى لياليها الاليمة فى دعاء الله بأن يجعل ابنها من الموفقين ..

وكانت تحب زكى فى زوجته وتصفها بأجمل الأوصاف وتخصها بكثير من الدعوات بحيث عد سلوكها من أندر ما يقع فى حياة النساء

وعندما اصبح زكى مبارك كاتبا كبيرا من اعظم كتابنا المعاصرين سئل عن ملهمته فقال (امى هى التى الهمتنى روائع ما انتج وهى التى خرجت من سنتريس وانجبت اعظم كاتب وافحل شاعر) .

***

وكان والده عبد السلام مبارك قد نذر ان عاش له ولد بعد أن فقد جميع ابنائه أن يهبه للقرآن فأدخل ابنه محمد زكى الكتاب فى سن مبكره فحفظ القرآن كله فى شهور ثم اخذ يعيده من يوم الى يوم ليقضى فى الكتاب سنتين .

وكان محمد زكى طفلا مشاغبا قويا جريئا لا يكاد يهدأ أو يستكين وحياته فى الكتاب كانت سلسلة من المشاجرات مع الاطفال والمشاغبات وكان قاسيا فى الخصومة فكان يضرب الأطفال بعنف .. فالفوا حزبا ضده وبقى هو وحده متحديا ولابد من نشوب معركة بعد الخروج من الكتاب فهجم عليهم فلاذوا بالفرار من بطشه بهم ...

وفى احد الأيام خرج من بيته وفى يده عصا اخفاها فى الجانب من عباءته وكان والده يجلس مع اخيه سيد ويشرب معه القهوة على مصطبة الدوار فلمح اباه العصا فناداه وقال له ما الموجب لهذه العصا ؟ .. فقال محمد زكى :

اطرد بها الكلاب التى تعترض طريقى ! ..

فقال والده : رد العصا الى البيت فأنا اعرف غرضك ... اعرف انك تستعد لمعركة مع الأطفال ! ..

وظهر الغضب على وجه الطفل المشاكس فقال له عمه :

الفتوح يا ولدى يحتاج الى خشوع ! ..

ومن طرائفه فى الكتاب التى تدل على طبيعة شخصيته وعرامته .. انه كان يتلقى تعليمه على الشيخ محمد وكانت للشيخ محمد مطواة يبرى بها الأقلام وكان يعتقد انها امضى مطواة رآها الناس .

ولكن الشيخ محمد تقع منه المطواة فلا يدرى أين وقعت ولابد ان يكون احد الأطفال أخذها .. فماذا يصنع الشيخ محمد ؟ ..

رأى أن يوضع كل طفل فى الفلقة وأن يضرب بالزخمة على رجليه الى أن يعترف وفكر الطفل المتمرد المشاغب فى أن الاطفال سيشمتون به حين يرون الشيخ يضربه بتلك القسوة فتفتق ذهنه عن حيلة يفلت بها من عقاب سيدنا فقال له حين جاء دوره ليضرب :

ـ أنا الذى سرقت المطواة ! ..

فقال الشيخ : وأين هى ؟ ..

ـ فى البيت ..

ـ فى أى مكان ..

ـ فى القاعة القبلية .

فقال له الشيخ غاضبا : روح هاتها يا حرامى ! ..

وانطلق الطفل الى البيت وأخبر أباه بما وقع فخرج معه غاضبا فانزعج الشيخ حين رآه وقال له مضطربا :

ـ بعد أن ضربت ثلاثين طفلا جاء دور زكى واعترف بسرقة المطواة هدأت وأخذ الاطفال يقرأون وقبل ان تحضر بلحظة واحدة نظرت فوجدت المطواة بجانبى على الدكة ...

وخرج والده ثم قبل ولده وقال له بجذل :

ـ يعجبنى ذكاؤك ! ..

وكان محمد زكى فى الكتاب مشاكسا عنيفا جريئا متمردا ...

ومن حوادثه الطريفة فى تلك الحقبة ....

كان بالكتاب عريف يمر فيسأل كل طفل عما حفظ ثم لا يعجبه حفظه فيضرب الطفل حتى وصل العريف الى محمد زكى فسأله عما حفظه فقال له الطفل المشاكس :

ـ لم أحفظ شيئا ..

فقال العريف : جزاؤك الضرب ...

ولكن الطفل المشاغب المتمرد وقف وألقاه على الأرض وضربه ضربا مبرحا لم يسمع به ولا فى الخيال فكان يصيح مستنجدا :

ـ الحقنى يا سيدنا الحقنى ..

ولكن الشيخ محمد يتصامم لأنه لم يكن يملك اعفاء العريف من يد محمد زكى الطفل المشاغب العنيف المتمرد ..

ومن المواقف الطريفة فى طفولة زكى مبارك ..

كان والده الشيخ عبد السلام مبارك متصوفا صادق التصوف وكان أخذ العهد على شيخ اسمه زيد وكان الشيخ يحضر لزيارة البيت فى كل سنة فكان محمد زكى بسذاجة الاطفال يتوهم أن الشيخ أبوزيد هو ابوزيد الهلالى الذى سمع عنه الأقاصيص الغريبة وفتن به فيخرج ويصيح أمام البيت :

ـ عندنا أبو زيد الهلالى ! ...

ويسمع أبوه صوته فيناديه ويقول له ضاحكا :

ـ يظهر انك ولد عبيط ... فأبو زيد الهلالى رجل عملاق ولـه شوارب طوال وفى يده سيف ليقتل الزناتى خليفة أما الشيخ أبو زيد ففى يده مسبحة وعلى رأسه عمامة خضراء ! ..

وكان محمد زكى يعمل مع والده فى فلاحة الأرض وكانت ساقيتهم هى أول ساقية ارتوازيه فى سنتريس وكانت تشح فى شهر بؤونه شحا فظيعا فيعفونها الى الليل ثم يسهرون الليل وفى شهر بابة قطعوا الذره الذى درعوه فسهروا عليه لئلا يسرقه اللصوص ولكن ريحا عابثه تهب من كل ناحية ـ فقال الشيخ عبد السلام مبارك لولده محمد زكى :

ـ اللصـــوص لا يســـهرون فى هذه الليلة فلنرجـــع الى البيت لنستريح ..

فقال محمد زكى لأبيه :

ـ هذه الليلة هى الفرصة لسطوة اللصوص ...

وكان الأمر بالفعل فقد حضر (مفسر) بعد نصف الليل ليســـرق المواشى فأطلق الفتى الجرىء محمد زكى الطبنجة فى وجوههم فلاذوا بالفرار ! ...

وكان والده الشيخ عبد السلام مبارك أحد أغنياء سنتريس ولكـن القدر جار عليهم وحين بلغ ولده محمد زكى سن العاشرة بدأ يتنبه الى

ماهم عليه فقد فهم أنهم كانوا أغنياء وافتقروا فكان والده يتجمل ويخفى همومه عن ولده الوحيد ...

وحياة زكى مبارك قصة مطردة من الأسى والألم ..

فقد شب وقلبه مفعم بالأحزان والشجون كان يرى أهله فى الأعياد يخرجون لزيارة المقابر ليلة العيد بينما سكان القرية يصنعون الحلوى والكعك ولكنه نادرا ما كان يجد الكعك بل كان يجد القهوة المرة وذلك لأن أسرته الكبيرة كثيرا ماكانت ترزأ باحد ابنائها فيمر العيد والأسرة محزونه ..

وهذه النشأة الحزينة هى التى جعلت منه فيما بعد قيثارة ترسل أرق وأشجى أغاريد الألم والأسى والعذاب ! ..

فى الأزهـــر :

عندما بلغ زكى مبارك سن العشرين يمم نحو القاهـــرة ليلتحـــق بالأزهر .. كان ذلك حوالى سنة ١٩١٠ وفى القاهرة كانت حياته صورة من أجمل صور الكفاح .

واستقر زكى مبارك فى منزل بربع يعقوب بالغورية وكانت جاراته فى ذلك الربع من الغيد الحسان وكان فيهن يهودية تأتمنه على كل شىء وتقول (**الشيخ زكى مسلم ولكنه ابن حلال**) .

ويقول زكى مبارك (وكنت حقا ابن حلال .. كنت مستقيما أؤدى الفروض والنوافل وأقرأ الأوراد وما تغير حالى الا منذ اســـتطعت ان أقول : بونجور مدموزيل بونسوار «مدام» ! ..)

***

وفى الأزهر نهل من التراث العربى القديم وبدأت مواهبه تتفتـــح وتبرز وتفوق على أنداده وأصبح يفوز بجوائز التفوق فى كل مسابقة شعرية .. عقدت مسابقة بين الأزهر ومدرسة القضاء الشرعى ودار العلوم ففاز زكى مبارك وظفر فى نهاية الحفل بلقب شاعر الأزهر ..

وفى تلك الحقبة كان ينظم الشعر بغزارة ويمتاز شعر تلك الفترة بالقوة وجزالة الأسلوب ومتانة النسج وطول القصائد .. وذلك يرجـــع الى تأثره بالشعر العربى القديم بتأثير ثقافته الأزهريـــة وكانت معظـــم

منظوماته من الشعر الغزلى فملأ الدنيا غراما وتشبيبا ٠٠ وكانت حياته فى تلك الحقبة فى حى الغورية العتيق مثلا طيبا من أمثلة الكفاح من أجل العلم والثقافة ٠

فى تلك الفترة كان يحفظ زاده فى محفظة الكتب وكان زاده فى كل يوم رغيفا يابسا متجهم الملامح ٠٠ واتفق مرة أن ضاق به وقته دخل عند أحد الفوالين ليغمس ذلك الرغيف فى مرق الفول النابت فهرس الرغيف بين راحتيه مسرعا لينتهب الوقت ليلحق درس التوحيد بعد المغرب فتفجرت يداه بالدم القانى ! ٠٠

***

ومن أبرز أساتذته فى الأزهر الذين أثروا فيه وحببوا اليه دراسة الآداب الشيخ محمد المهدى الذى صحبه خمس سنين والشيخ سيد المرصفى الذى صحبه سبع سنين وكان هذان الرجلان من أعرف الناس بالشعر الجيد والنثر البليغ وتأثر زكى مبارك بهما فعاد يؤثر الأقلال بعد أن كان يكيل الشعر بالمكيال وأقبل على المقطوعات ٠ وذلك نتيجة لاتصاله بهما ٠٠

وكان الشيخ سيد المرصفى خافت الصوت فكان زكى مبارك يبكر الى درسه ليقرب منه وكان يكتب كل ما ينطق به وكان الشيخ قد تعود أن يراه أمامه فجاء يوما متأخرا ورفض الطلبة أن يفسحوا له المجال فقال الشيخ : أين زكى ؟ فأجاب من بعد : هانذا يا مولاى ! ٠٠

فقال الشيخ : وسعوا له لعله ينفع ! ٠٠

ثم ضاعف الشيخ سيد من حرصه على نفع زكى مبارك فكان زكى يحضر جميع دروسه ويصحبه فى الطريق ويمضى الى بيته فيطلع على ما لديه من مكنون الذخائر الأدبية واللغوية وينشده شعره فيقومه ويصلح منه فى رفق كبير ٠٠٠

وتوسم فيه الشيخ سيد المرصفى خيرا ولمح فيه عبقرية فذه نادرة فقال لأحد مشايخ الأزهر (انى لأخشى أن يضيع منا زكى مبارك كما ضاع منا طه حسين) وقد اتصل زكى مبارك فى تلك الفترة بالصحافة فقد كان يكتب سنة ١٩١٤ بامضاء (الفتى الأزهرى) ونشر بعض أشعاره فى الصحف مثل صحيفة المؤيد ٠٠٠

وكان فى أدبه الصحفى وقتئذ ناقدا جريئا عنيفا ..

ثم انجز زكى مبارك دراسته بالأزهر واتجهت آماله الى الالتحاق بالجامعة المصرية القديمة ..

فى الجامعة المصرية :

اتصل محمد زكى مبارك بالجامعة المصرية فى نوفمبر سنة ١٩١٢ وفى ذلك الحين بدأ يدرس اللغة الفرنسية ويتفوق فيها ويبز أنداده ثم انتسب الى الجامعة المصرية بصفة رسمية سنة ١٩١٦ والتحق بكلية الآداب واتقن اللغة الفرنسية فبدأ يتصل بالثقافة الفرنسية ويستقى من منابعها وبدأ يقرأ أمهات الكتب فى الأدب الفرنسى القديم والحديث ..

ولم يكن فى الجامعة المصرية فى تلك الفترة من الجنس اللطيف سوى الآنسة مى التى صحبته أربع سنين ويقول عنها انها كانت آية فى الجمال وكان يمضى الى بيتها ومعه مذكرات الفلسفة فيملى وتكتب وهو يشرب جمالها بعيونه .

ومن اساتذته فى الجامعة المصرية الذين درسوا له الكونت دى جلارزا .. للفلسفة والشيخ المهدى للآداب والشيخ الخضرى للتاريخ واسماعيل رافت للجغرافيا ووصف الشعوب .. وفى سنة ١٩١٧ اصيب بصدمة عنيفة زلزلت كيانه اذ ماتت أمه فهزته هذه الصدمة من اعماقه هزا وقد طلبت بالحاح أن تراه قبل أن تموت ولكن والده أخذ يسوف لأنه يعرف ان ابنه يؤدى أول امتحان فى الجامعة المصرية وكانت النتيجة أن دفنت وهو غائب فى القاهرة فاحس زكى مبارك بالحسرة والحزن العميق (هل كان أبى يعرف ان توديع امى فى لحظاتها الأخيرة أحب الى من جميع المغانم العلمية ؟ ! لو أنه عرف لأعفانى من لوعة ساعانى نيرانها الى أواخر ايامى) .

هذه هى فجيعته فى أمه ..

***

وفى الجامعة المصرية لم يترك زكى مبارك اندفاعاته وجراته وعنفه .. فى سنة ١٩١٩ أحدث ضجة عنيفة فقد كان يلقى محاضرات تحت اشراف الدكتور أحمد ضيف عن عمر بن ابى ربيعة وقد أثارت ضجة أحدثت ثورة بين بعض الشيوخ لعبارة جاءت فى تلك المحاضرات وهى (ان الحب نفحة من نفحات النبوة) .

فهوجم بعنف واتهم بالفساد والزندقة والالحاد ثم جمع زكى مبارك هذه المحاضرات فى كتابه (**حب ابن أبى ربيعة وشعره**)

وقال : فى مقدمته (الأدب كالفن يجب أن يسمو عن الاوضاع والتقاليد حتى لا يفتر ويضوى تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ورعاية المتحجرين من دعاة الأخلاق والأدب المستور انما يغشى بالحجب المحلية التى لا ندرى أتبقى سائغة مقبولة أم يعدو عليها البدع المستطرف فيلقى بها فى مهاوى الخمول) ! ٠٠

* * *

وكان الدكتور طه حسين أحد أساتذة زكى مبارك فى الجامعة المصرية وقد كان بينهما مواقف طريفة ومساجلات عنيفة ٠٠ ولم يترك زكى مبارك طبيعته الجريئة المندفعة حتى مع أساتذته فى الجامعة المصرية ٠

ومن ذكرياته الطريفة معه ٠٠

فى السبت الأول من نوفمبر سنة ١٩١٩ وقف الدكتور طه حسين يلقى محاضرته الأولى فشكر أعضاء مجلس الجامعة ثم اندفع فى محاضرته وقال انه عزم على احياء التراث اليونانى لأنه يؤمن ايمانا جازما ان مرجع الفكر فى الشرق والغرب الى القدماء من مفكرى اليونان ٠٠

وما كاد الدكتور طه يفرغ من محاضرته حتى نهض زكى مبارك فرد على الدكتور طه ردا خطابيا رائعا أثار اعجاب الطلبة ٠

فوقف الدكتور طه ورد على الطالب ردا ظفر بشىء من القبول ٠٠

وبدا للاستاذ محمود عزمى أن يؤرخ وقع المحاضرة الأولى للدكتور طه بكلمة ضافية فى جريدة الاستقلال ولم يفته أن يوجه عبارة نابية الى الطالب زكى مبارك الذى ثار حين رأى من يقول بأن مرجع الفكر كله الى مفكرى اليونان ٠٠ وفى المحاضرة التالية رأى الدكتور طه ان يبدأ بكلمة فى التعقيب على مقال الاستاذ محمود عزمى ليبين خطأ الطالب الذى ثار عليه فنهض زكى مبارك منتفضا وقال :

ـ لا تتعالموا علينا ففى مقدورنا أن نساجلكم بالحجج والبراهين ! ٠٠

فمضى الدكتور طه فى المحاضرة الأساسية وانصرف عن التعقيب وهذه الحادثة تبين طبيعة زكى مبارك المندفعة الجريئة الصريحة فى تلك الحقبة ..

وفى نوفمبر سنة ١٩١٩ غاب سكرتير د. طه وكان زكى مبارك هو الطالب الوحيد الذى يفهم العبارة الفرنسية لكتاب نظام الاتينيين لأرسطوطاليس وأعلن الدكتور طه سروره بأن يكون فى طلبة الجامعة المصرية من يفهم اسرار اللغة الفرنسية ..

وقد كان لاتصال زكى مبارك بالثقافة الفرنسية وقراءاته الكثيرة لأمهات الكتب فى الأدب الفرنسى القديم والحديث اثر كبير فى أدبه واتجاهاته وكتاباته فهو يرجع اتجاهه الى دراسة النفس الانسانية الى غرامه بالأدب الفرنسى منذ سنة ١٩١٥ فراعه أن يراه يتحدث عن أزمات القلوب والنفوس والعقول بأساليب لايجد لها نظائر فى الأدب العربى (فقررت أن ارجع الى نفسى لافتش عما فيها من اسرار وغرائب وأعاجيب لعلى ان أمد الأدب العربى بذخيرة جديدة من ذخائر النفوس والقلوب ومضيت فدرست طوائف من الغرائز والطباع والميول لاستطيع تأريخ النفس الأنسانية فى العصر الحديث وقد جمعت من ذلك كله محصولا يعز على ، ثم هالنى أن أرى الناس ينظرون الى نظرات الريبة والاحتراس) .

* * *

وفى تلك الحقبة من حياته كانت له غراميات فقد كتب سنة ١٩٤٢ مقالا عنوانه (الخطاب الذى احترق بسعير الانفاس) يسترجع فيه بعض ذكرياته العاطفية فى تلك الفترة يقول :

(هو خطاب تلقيته من فلانه فى سنة ١٩١٩ فما صبر القلب على غرام مشبوب يدوم ثلاثة وعشرين عاما وهى كألف سنة مما تعدون ..

كان الدهر قد سمح فى غفلة من غفلاته بأن القاها بعد طول الفراق ثم استيقظ الدهر فعرفت مالم اكن أعرف عرفت انى لن القاها بعد ذلك ولو انتظرت الى أن تشيب ناصية الزمان .

فمن يبيعنى مثقالا من الصبر الجميل عسانى اتناسى احزانى واشجانى ؟ !)

ويقول (لن أرى ذلك الوجه الاصبح بعد اليوم لأن صاحبته لا تريد أن تراني وكيف أراها وهي تصدر أمرها المطـــاع بأن أرد اليها الخطاب الوحيد الذي طلت به قلبي سنة ١٩١٩ ٠ ؟

ومن يصدق يا فلانه اننا كنا رفيقين في ذلك التاريخ ؟

هو خطاب أحرقته أنفاس الوجد ولـم يبـق منه غير اطياف فمـــا حرصك عليه وهو خيال في خيال ؟

سأرد ذلك الخطاب بلا تسويف ٠٠

لا لا لن أرد ذلك الخطاب ولو قطعت اوصالي فهو الوثيقة الباقية على انك كنت رفيقة صباي ، يا مثال الشرف والطهر والعفاف سيوضع ذلك الخطاب في كفني يوم أموت فانبشي قبري وخذيـه أن عرفت طعـــم الحياة بعد موتي يا قريبة العذول الذي أفسد ما بينك وبيني وهي أول مرة عرفت فيهـــا من تجربة أن الدخان القريب يعمى العيـون ٠٠٠ الوداع يا رفيقة صباي وداع الطفل لأمه الرءوم وداع الموجة المتكســـرة على الشاطىء الأمين وداع الوليد للحياة وقد أعجله الموت في يوم الميـــلاد لقيتك بعد يأس يا رفيقة صباي فكاد يقتلني الجنون) ٠

❋ ❋ ❋

في المعتقـــل :

اشتعلت ثورة ١٩١٩ في مصر وكان زكي مبارك طالبا في الجامعة المصرية وقتئذ فاشترك فيها واكتوى بنارها وشهد آلام التشريد والاعتقال شهورا طويلة وكان واحدا من خطبائها المبرزين ٠

واشترك في اشعال الثورة ضد الانجليز بخطبه النارية وأشعاره الحماسية التي كان ينشرها في الصحف ٠

وفي مساء ذات يوم حضر وفد الصحافة الأجنبية الى الأزهر وخطب خطيبهم باللغة الفرنسية فسأله الشيخ أبو العيون أن يـرد تحيتهم فتقدم زكي مبارك بجراة وحماسة وخطب خطبة فرنسية رنانة شهد له الشـيخ الزنكلوني بأن لسانه فيها كان أفصح من لسانه بالعربية وفي ابـــان الثورة كان عضوا في الحزب الوطنـى وأراد الوفديون أن يجتذبوه الى الوفد وعرضوا عليه مبلغا مغريا من المال فاعتذر وقال غاضبا ، لأحـد

كبار أعضاء الوفد : كنت انتظر أن اكون اكبر من هذا فى نفسك انا اخدم وطنى بعقيدة صحيحة ولا اقبل درهما فى خدمة وطنى ! ..

وكان لنشاط زكى مبارك الكبير واثارته الثورة ضد الانجليز وبث الحماس فى نفوس الجماهير آثار كبيرة فى نجاح المقاومة ضد الانجليز .. فابتدأت السلطة العسكرية الانجليزية تبحث عنه لتقتله ..

فقضى ثلاثة اشهر شريدا طريدا لا يعرف اين يبيت وكان مأواه غرفة فى سطح بيت فى السبتيه بحى القللى يقيم بها أحد الشباب الأقباط من سنتريس وهو صديقه أنيس ميخائيل ..

ثم تمكن الانجليز من القبض عليه وصيروه أسير حرب ونشرت جريدة الأهرام سنة ١٩٢٠ الخبر التالى :

(اعتقل البوليس صباح أمس الاستاذ زكى مبارك وهو شيخ معروف بذلاقة اللسان والنظم الرشيق وكان له فى كل اجتماع كلمة يلقيها أو قصيدة يتلوها) .

ثم اخذ يجوب المعتقلات من مكان الى مكان حتى استقر به المطاف فى معتقل سيدى بشر بالاسكندرية . ويصف هذه الفترة فيقول :

(دخلت الاسكندرية أول مرة وأنا حزين دخلتها فى قفص دخلتها فى سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الانجليزية فى ايام الثورة المصرية دخلتها فى الظلام فلم أر من جمالها غير أطياف) .

ويقول (قضيت فى هذه المدينة شهورا طوالا بدون أن أشهد من جمالها غير مايطوف بالاوهام والظنون ولن انسى أبدا كيف كان هدير البحر يقرع سمعى وقلبى فى غفوات الليل ولن انسى كيف فرحت يوم خرجت من المعتقل لاطوف فى رحابها حيث اشاء بلا حارس ولا رقيب) وأرسل من المعتقل رسالة الى صديقه انيس ميخائيل (مارس ١٩٢٠) يقول فيها :

(ساضرب صفحا عن الدمعة التى سكبتها على القرطاس لأن مثلى لا يبكى له ولا يبكى عليه انما خلقت لأكون مثلا فى الشمم والاباء ولو كان بى حب الدعة - والطمانينة لما مكثت فى المعتقل هذه الشهور الطوال فقد فكر القوم فى مساومتى لأول لحظة وطئت فيه ثكنة قصر النيل ولكنى

اقذيت عيونهم حين اريتهم كيف يطيب الشقاء فى سبيل البلاد واقسم لو سلم المصريون جميعا وخرج مصطفى كامل من قبره ليصافح الانجليز لما كان فى ذلك ما يزحزحنى قيد انملة عن معاداتهـم حتى يكون الجلاء واعيذك أن تحسب ان جلاءهم عن مصر ان تم ونحن احياء ينسينا مافعلوا بنا وباهلينا منذ كان الاحتلال) .

وكان زكى مبارك فى المعتقل مثالا للشمم والاباء وارادت السلطة العسكرية البريطانية ان تأخذ منه تعهدا بالتوبة من الوطنية المصرية فكان الجواب انه لن يتوب .

وكان الانجليز قد سمحوا للمعتقلين بان يستحموا فى البحر مرتين فى الأسبوع فكان زكى مبارك يوغل فى البحر ايغالا شديدا فيرفع الجنود بنادقهم ويهددونه بالرصاص ان لم يرجع الى الشاطىء وكان الوهـم عندهم انه قد يسبح الى ان يصل الى الشاطىء الفرنسى ! ..

وفى المعتقل كان يقضى وقته فى قراءة مؤلفات نفيسة من الأدب العربى والأدب الفرنسى وكان يشترى بمعظم ما يصله من نقود كتبا ويترك نفسه جائعا .

وخرج المعتقلون جميعا بأمر وزير الداخلية وبقى زكى وحده فى المعتقل لرفضه امضاء تعهد بأن لا يشتغل بالسياسة فقال بطريقة حاسمة :

ـ اننى وطنى لا سياسى ! ..

كان الوحيد الذى يحمل راية الحزب الوطنى وكان المعتقلون جميعا من انصار الوفد المصرى ومن المعتقل اشترك فى جريدتين تعارضان مشروع «ملنر» وهما : الأهالى والأمة فكان يرسل مقالات ثورية عنيفة بطريقة سرية وانتهت هذه المعركة الحزبية بأن يعيش فى المعتقل بلا رفيق .

ثم أمر رئيس المعتقل بالافراج عنه بعد ان يئسوا منه فخرج وقد ضعفت عيناه من القراءة فى الكتب العربية والفرنسية الى حد لا يكاد يعرف به معالم الطريق .

وتركت أيام الاعتقال فى نفسيته آثارا مريرة ..

(ان أيام الاعتقال اورثتنى احزانا كثيرة وهى احزان مازالت تقطر قلبى ولكنى افدت من ايام الاعتقال فقد عرفت معنى الاغتراب فى الحياة وهو معنى جميل ! ٠٠) ٠

* * *

عاد زكى مبارك الى الجامعة المصرية مرة أخرى بعد خروجه من المعتقل وانتظم فى دراسته ٠٠ وقد أسقطه الدكتور طه حسين فى الليسانس مرتين ٠

واخيرا نال شهادة الليسانس فى العلوم الأدبية والفلسفية سنة ١٩٢١ وقد ظل معمما الى أن ظفر بالليسانس ٠ ثم فكر فى مواصلة جهاده العلمى فأخذ يستعد لامتحان الدكتوراه فبداله أن يصبح (**أفندى**) فقدم ما عنده من الجبب الى احد (**الترزية**) فى شارع محمد على (فصنع منها بدلتين سخيفتين شهدتا بأنى كنت مهندما فى الجبة والقفطان) ٠

وفى سنة ١٩٢٢ بدأ فى اعداد رسالته فى الدكتوراه عن الاخلاق عند الغزالى وكان يقضى أكثر الوقت فى تحرير كتابه فى أعقاب الأعوام الشداد التى واجه بها نار ثورة ١٩١٩ واكتوت يده بلهب الجدل والصيال حول المطالب الوطنية فاثر ذلك فى عقله وتفكيره الى أبعد الحدود وحمله ذلك التاثير على السخرية من اعتزال الغزالى للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج الذى كانت تثيره الحروب الصليبية فى ذلك الحين ٠٠

وانجز زكى مبارك رسالته الخطيرة عن الاخلاق عند الغزالى ٠٠

ونوقشت الرسالة مناقشة علنية على مدرج الجامعة فى ١٥ مايو سنة ١٩٢٤ وكان جو الامتحان عنيفا ودارت الأسئلة حول القديم والجديد وكان أنصار القديم كثيرين وانصار الجديد قليلين ٠٠ ولكن زكى مبارك لم يجد حرجا فى أن يصطدم مع أنصار القديم ٠٠ وحدثت ضجة فى القاعة وماج الجمهور من الغيظ لولا حكمة رئيس اللجنة الدكتور منصور فهمى لاضطرب النظام وانفرط عقد الامتحان وظفر زكى مبارك فى النهاية بدرجة الدكتوراه بدرجة جيد جدا ٠٠

فكان أول من ظفر بدرجة الدكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية القديمة واقترح أن ينص فى محضر الجلسات على ان اللجنة غير مسئولة عما فى الرسالة من شطط وجموح وقال الاستاذ محمد جاد المولى احد أعضاء اللجنة التى امتحنته انه عندما راى زكى مبارك يهجم على الغزالى لم يجد بدا من أن يتشدد معه ليعجم عوده ٠٠ يقول :

(كنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد ولكنى تبينت مع الأسف أن هجومى على الدكتور زكى مبارك كانت له عواقب فقد حمل عليه جماعة من العلماء فى جريدة المقطم وجريدة الأخبار) ويقول (وعند ذلك عرفت ان الدكتور زكى مبارك قد يقضى حياته فى المصاولة والمجادلة لما قد استقر فى النفوس من أنه باحث متعسف مشاغب) ٠

وفى يوم الجمعة التى تلت امتحانه وقف الشيخ حامد الفقى وخطب خطبة الجمعة محرضا على قتله فقال : (ظهر فى مصر ملحد اسمه زكى مبارك ذلك الذى فرحت الجامعة المصرية بالحاده فمنحته الدكتوراه ومثل هذا الملحد فرصةلمن يريد أن يدخل الجنة ! ٠٠) ٠

وقد رجع زكى مبارك عن كثير من آرائه بعد ذلك وقال انه سخر من اعتزال الغزالى للمجتمع السياسى وابتعاده عن الضجيج الذى كانت تثيره الحروب الصليبية فى ذلك الحين ٠٠

ثم مرت أعوام راضنى فيها الدهر بعد الجموح فعرفت أن الغزالى لم يكن من الجبناء وانه كان من الحكماء ٠٠ وهل اخطأ ابن خلدون حين نهى العلماء عن الاشتغال بالسياسة ؟

وهل اخطأ محمد عبده حين استعاذ بالله من مادة ساس يسوس ؟ دلونى على رجل واحد غمس يده فى السياسة ثم سلم من الأقاويل والاراجيف) ٠

ومما أثار زكى مبارك وروعه حين كتب رسالته أنه رأى رجال الدين يعرفون خريطة الحياة فى الآخرة ويجهلون خريطة الحياة الدنيوية فكان كتاب الاخلاق عند الغزالى دعوة صريحة الى التشكيك فى أصول الاخلاق الموروثة عند القدماء ٠٠

وقد اهتم برسالة الاخلاق عند الغزالى المستشرق الكبير الدكتور سنوك هوجرونيه ونشر بحثا باللغة الهولندية سنة ١٩٢٦ اثنى فيه على الكتاب والمؤلف ابلغ الثناء وكتب الدكتور منصور فهمى رسالة الى د٠ زكى ينصحه بعد تلك الضجة العنيفة التى أثارتها رسالته الجريئة فقال :

(اياك ان تجزع وقد بدأت حياتك العلمية بصدمة من تلك الصدمات الاجتماعية فذلك دليل على انك خادم من خدام الاصلاح وهو خير لقب تلقى به الله ٠٠)

اشتغاله بالصحافة :

اتصل زكى مبارك بالصحافة فى سن مبكرة وكان يكتب فى سنة ١٩١٤ بامضاء (الفتى الأزهرى) وكان فى كل أطوار حياته كاتبا جريئا عنيفا صريحا يكره المداورة والنفاق وكان يكتب المقالات وينشر الاشعار فى بداية حياته الأدبية فى صحف عديدة مثل الشعلة والسفور والأفكار والهلال ..

وفى مقال نشرته صحيفة « الأفكار » فى نوفمبر سنة ١٩١٩ كتب يقول (تنصحنى ياهذا بأن أجامل وأن اصانع بل تريد أن أنافق .. ويحك أنما ينافق الضعفاء .

« ان الله لم يخلقنى لأكون العوبة أدارى هذا وأجامل ذلك أنا خير منكم جميعا أنا فى نعمة من الله لا ابالى بعدها أين يكون سخطكم وأين يكون رضاكم وان الله لأكرم من أن يضطرنى الى مصانعة جماعة من الكسالى لاقيمة لهم فى هذا الوجود ان فضيلة الوفاء هى التى تضطر مثلى الى أن يجامل بعض الناس كلا : لن يكون هذا انكم تنافقون لتعيشوا اما أنا فحى بالرغم منكم . ان الله لا يريد أن أموت .. وسوف تعلمون) .

وهذا المقال يصور شخصية زكى مبارك فى تلك الحقبة وقد ظل الى آخر نسمة من حياته أبيا صريحا يكره المداورة والرياء ..

وفى سنة ١٩٢١ دعاه الصوفانى بك الى رياسة تحرير جريدة الأفكار التى كان يعمل بها قبل الاعتقال فبذل ما بذل من الجهود فى تأييد الحزب الوطنى ولكن الأقدار لم تمهله فى رياسة تحرير الأفكار غير عام وبعض عام فقد اتفق الصوفانى (بك) مع الأستاذ عبد القادر حمزة اتفاقا يقضى بأن تصبح الجريدة وطنية وفدية واشترط عبد القادر حمزة شروطا كان أهمها أن يكون حر التصرف فى اختيار المحررين واشترط الصوفانى بك) بأن يكون للحزب الوطنى محرر يعتمد عليه فى رعاية ما يهم الحزب ، من دقائق الشئون وكان ذلك المحرر هو زكى مبارك وقبل عبد القادر حمزة هذا الشرط وفى نفسه أشياء ومن أجل هذا لم يسمح بأن ينشر فى الأفكار غير ما باحث لا تقدم ولا تؤخر فى السياسة الحزبية ثم فوجىء عبد القادر حمزة بأن وجد لزكى مبارك نشاطا صحفيا يغيب عن عينه الواعية وهو مقالات كان يرسلها مبارك الى جريدة الأمة بامضاءات مختلفات فأدرك انه لا يأمل فى ان يسير مبارك كما يسير عندئذ بدا لعبد القادر حمزة أن يصاحب شابا له أهداف وطنية فوثق به ودعاه

الى الاشتراك فى تحرير (البلاغ) عند ظهوره فى أوائل سنة ١٩٢٣ ولكنه رفض بحجة ان هواه سيظل مع الحزب الوطنى ..

ثم اتصل زكى مبارك بصحف ومجلات عديدة واخذ ينشر فيها مباحثه الأدبية ومقالاته وأشعاره مثل الصباح والشعلة والهلال والرسالة .. ولكن أعظم الصحف والمجلات التى شهدت انتاجه هى الصباح والبلاغ ثم الرسالة التى حولت طاقته الشعرية الى صور نثرية كما يقول والتى تجلى فيها قلمه الى أبدع حدود التجلى وقد اتصل بها فى نهاية سنة ١٩٣٧ حتى سنة ١٩٤٤ ومن مقال لزكى مبارك سنة ١٩٢١ يقول (لا تكونوا ابواقا للقدماء بل كونوا شيئا يذكره التاريخ ... لاخير فى الكاتب ان حرم الصدق والأمانة وليس فى السارقين صادق أمين ! اكتبوا بأنفسكم ولأنفسكم فان لم تستطيعوا ففى الأدب القديم ما يروى ظمأكم لو تعلمون) .

هذا هو مذهب زكى مبارك فى الأدب سنة ١٩٢١ ..

وهذا هو مذهبه طيلة أيام حياته ..

وبعد فقد كان ميدان الصحافة ميدانا رحبا لقلم زكى مبارك وكانت الصحافة يومية وأسبوعية هى ميدان معاركه ومساجلاته وقد نشر على صفحات تلك الصحف والمجلات أروع انتاجه واعظم ماكتبه فى ميدان الدراسات الأدبية العميقة والمقالات الوجدانية الرائعة وقد ظلت هذه المباحث والمقالات مبعثرة حتى وقتنا هذا وننتظر من يهتم فيجمعها فى كتب وتنشر ليستمتع قراء زكى مبارك بها ويفيد منها النقاد والأدباء .

***

ألم زكى مبارك باللغة الفرنسية منذ كان طالبا فى الأزهر واتقنها وبدأ يتصل بالثقافة الفرنسية فقرأ الكثير من أمهات الكتب فى الأدب الفرنسى قديمه وحديثه ..

وقد عمل فى الجامعة المصرية مدرسا مساعدا أى مترجما للمستشرق الفرنسى المسيو كازانوفا وفى نفس الوقت كلفه الدكتور طه حسين بشرح كتاب المغنى لطلبة كلية الحقوق وكلية الآداب ..

وعمل قبل ذلك استاذاً للغة الفرنسية بمدرسة الاليانس فرانسيز وكان أمام عينيه رجل واحد هو استاذه الدكتور طه حسين الذى نال

الدكتوراه من الجامعة المصرية واتجه الى باريس ليكمل دراسته وبدأ زكى مبارك يتطلع الى المجد وصمم على أن يكمل دراسته وأن يذهب الى باريس كما فعل من قبله الدكتور طه حسين ..

وقد تزوج زكى مبارك مبكرا قبل سنة ١٩١٧ حين خافوا عليه أوهام العاطفة فاقام حياته وانجب ابناءه قبل ان يتجه الى باريس فى عصامية فريدة وكانت زوجته موضع فخره واعتزازه (يسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة امها واختها فحفظت قلبى سليما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال) :

ثم ترك زكى مبارك وراءه زوجته وابناءه فى مصر واتجه نحو باريس ليواصل دراسته العليا هناك .. وهو يفخر بقول أحمد زكى باشا (ان زكى مبارك عاش فى باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحا من سنتريس ! ..

فى باريس :

فى سنة ١٩٢٧ يمم الدكتور زكى مبارك نحو باريس يطلب العلم وقد عرف من دقائق اللغة الفرنسية مالا يعرفه الا الاقلون وكان قد ألف هذه اللغة ألفة شديدة من قبل . وقد استقل الباخرة من الاسكندرية التى اتجهت به الى فرنسا ويصف لحظة فراقه لمصر فيقول : (خليت مصر وخليت ورائى فيها هموما مريره أثقلت كاهلى واقضت عيشى وراضتنى بعد الجموح وكنت احسبنى أقسى وأصلب من أن اعترف بأن فى الحياة غيوما تحجب شمس النعيم من حين الى حين) .

ويصور لحظة الوداع بأسلوب فكه مرح فيقول :

(حسدت المسافرين الآخرين لأن موديعهم كانوا من الجنس اللطيف الذى يحسن التوديع ويقدم اليه اصلح وقود من التقبيل ثم التلويح بالمناديل البيض واكتفيت من مودعى الفضلاء بعبارات فتح الله عليك او جعلك من السالمين الغانمين ! .)

وكان أول يوم دخل فيه باريس من الاعياد الاسلامية كان يوم عيد الاضحى ويصف شعوره واحساسه فيقول :

(فلم أشعر بضجر ولم يساورنى اكتئاب فقد كنت أعرف أن أهلى فى مصر يجتمعون للعيد ثم يسألهم الناس عنى فيجيبون بأنى على سفر

فتجرى على الافواه كلمة رعاه الله ثم بادرت يومئذ الى الجامع لاشهد المسلمين وهم يتصافحون فازددت أنسا الى أنسى وزالت عنى وحشة الاغتراب واليوم يحتفل الفرنسيون بعيد ميلادهم ويتسابق الأقرباء والمحبون الى التحف المختلفة فيتهادونها وعلى وجوههم علائم البشر وعلى شفاههم اشعة الابتسام اما أنا فوحيد فى غرفتى لا انتظر احدا ولا ينتظرنى أحد ٠٠)

* * *

كيف يعيش زكى مبارك فى باريس وهو الرجل الفقير ؟

عاش زكى مبارك فى مدينة النور عيشة طالب العلم الفقير ٠٠ ولم يستطع أبوه امداده بكل ما يحتاج اليه لرقة حاله ٠٠ ما الحل اذن ؟ ! عاش زكى فى غربته عيشة مفعمة بالمشقة والأسى والكفاح ٠٠

كانت حياته فى باريس قصة من أجمل قصص الكفاح والطموح والعصامية الفريدة كان زكى مبارك يشطر العام شطرين ٠٠

يقضى شطره الأول فى القاهرة حيث يؤدى عمله ويجنى رزقه من اشتغاله فى الصحافة والتدريس ٠٠

ويقضى شطره الثانى فى باريس كالطير الغريب يحادث العلماء ويستلهم المؤلفين الى أن ينفد ما يدخره أو يكاد ٠٠ ثم يصمم على ان ينقطع الى الدرس فى جامعة باريس حتى ينتصر أو يموت ٠٠

فى وسط تلك الظلمات وفى خضم تلك المصاعب استطاع زكى مبارك أن يتفق مع عبد القادر حمزة على مراسلة (البلاغ) من باريس بمرتب قدره خمسة عشر جنيها ٠٠ وقرر الاعتكاف بالقبلة القديمة فى السربون وكان لابد له من الاتصال الدائم بأساتذة السربون ومدرسة اللغات الشرقية ليظفر بما يتسامى اليه من الالقاب العلمية ٠٠

ولكن كيف كان يقضى وقته فى باريس ؟ ! ٠

كان لابد له من معرفة الحياة فى مدينة النور ليتعرف على أسرار باريس ويرى الصراع بين الهدى والضلال والخير والشر لينجح فى مراسلة (البلاغ) وليخلق لمقالاته جوا من الحقيقة ليستطيع أن يعيش ويتعلم وهداه تفكيره الى قضاء أوقات الفراغ فى أماكن مختلفة وهدته

الفطرة الى قضاء أوقات الفراغ في الملاهى والملاعب والمراقص والمقاهى (فكنت اقضى فى هذه النزهة الطريفة ساعات من النهار وساعات من الليل كنت شابا ورحمة الله على شبابى ! ·

الشباب الذى بددته فى طلب الحب والمجد ··

كنت اذرع باريس بقدمى لأخلق لمقالاتى جـوا من الحقيقـة لا من الخيال وأعاننى على ما أسمو اليه لسان مرن فى اللغة الفرنسية مرونة محببة تقدر على جذب من أحادث من أسراب الظباء والفرنسيين يغفرون للرجل جميع الذنوب اذا أمدته العناية الالهية بلسان فصيح وكان لزكى مبارك فى باريس ثلاث قهوات يقضى فيها اوقات فراغه قهوة صغيرة جدا فى بولميش بجوار «قهوة الرحيل» التى كان يجلس فيها الدكتور طه حسين يوم كان طالبا فى جامعة باريس وكانت هذه القهوة الصغيرة مخصصـة للمواعيد الغرامية والتأمـلات الفلسـفية أما القهوتان الأخريان فهما : الروتوند والدوم فى حى مونبارناس ··

وكان يعيش هناك عيشة الكفاف ·· وكان ينفق على شراء الكتب اكثر مما ينفق على طعامه وشرابه حتى انه باع سـاعته وطائفة من ثيابه ذات مرة ليشترى نسخة انيقه من كتاب نادر ·

* * *

كان زكى مبارك يذرع باريس ليتأمل فيما يقع فيها من صراع بين الهدى والضلال والرشد والغى والخير والشر ··

ومن ذكرياته الطريفه فى مدينة روان ·· انه ذهب الى مدينة روان ليرى نهر السين وهو يطغى ··

فوقفت فى وجهه امراة حيزبون لتقول :

ـ تعال معى الى مركز البوليس

ثم استصرخت جميع من فى الشارع من رجـال ونساء واطفـال فادركهم الشرطى وهو مبهوت ··

قالت المراة : هذا المسيو يتعقب خطواتى منذ ثلاث ساعات ··

فقال زكى مبارك للشرطى : هذا كلام غير معقول

فقال الشرطى : ما برهانك على انه كلام غير معقول ؟

قال : تذكرة القطار تشهد فانا حضرت بتذكرة ذهاب واياب ولك أن تنظر فى التذكرة لترى انى لم ادخل هذه المدينة الا قبل خمس دقائق . وما كاد الشرطى يرى التذكرة حتى هاج وماج وقاد المرأة الى مركز البوليس وهو يقول :

ـ انت لست امرأة فرنسية وانما انت امرأة بغية ...

وحادثه طريقة أخرى نرويها لما فيها من طرافة وخفة ظل زكى مبارك ومرحه الأصيل ، ذهب ذات مرة الى نور منديا ليرى كيف يعيش اهالى الريف فى باريس وفى الهافر ومضى يبحث عن مأوى فى أحد الفنادق ولكنه لم يجد شيئا وتعب فى البحث كثيرا وبعد لحظات رأى سيدة تتوجه الى جماعة فى قهوة وتقول ان سألكم سائل عن مكان للنوم فارسلوه الينا فان لدينا غرفة خالية ! ..

فتقدم زكى مبارك اليها ومضى معها بقلب جذلان ولم يكد يدخل الغرفة حتى تقدمت اليه فتاة هيفاء ساحرة الطرف أسيلة الخد تسأل ان كان يشكو البرد ويحتاج الى وقود ..

وادع الدكتور زكى مبارك يكمل بقية القصة بأسلوبه المرح فيقول : (فاندفعت فى طيش ونزق اقيدها بأسباب الحديث وقلت :

ـ انت نورمندية يامودموازيل ؟ فأجابت لا ولكنى برتيانية ..

فقلت : ياللشرف ! .. انت اذن بلدية أرنست رينان ؟ !

فقالت : ومن هو أرنست رينان ؟ فقلت الفيلسوف الكبير مؤلف كتاب مستقبل العلم وكتاب حياة المسيح ..

فقالت : لا أعرفه قلت : عجبا ان الشيخ بخيت يعرفه وقد نقض فلسفته فى محاضرة القاها بالجامعة المصرية سنة ١٩٢٤ .

فقالت : ومن الشيخ بخيت ؟ !

فقلت : تجهلين هذا أيضا ؟ هذا فيلسوف عظيم وهو صاحب كتاب (منحة العبيد فى علم التوحيد) وكتاب ...

ولم اكد اصل الى هذا الحد من المحاورة حتى سمعت الجرس يدق دقا عنيفا متواليا واذا ربة الدار تصيح : مارى ! مارى ! انزلى ليست هذه ساعة التلكؤ والفضول ونزلت الفتاة مسرعة وعرفت ان ربة المنزل لئيمة وانها أبخل واضن واحقد من ان تسمح لزائر بمحاورة هذه الشقراء الهيفاء فاسررتها فى نفسى وأقسمت لأتركن هذه الغرفة لتصفر فيها تلك العجوز الشمطاء ..

ثم خرجت متعللا بأن الغرفة لا توافقنى لأنها تطل على الفناء وكنت احسبها تطل على الميدان ! ..)

* * *

وكان زكى مبارك يسكن فى غرفة بشارع اراس بباريس وفى تلك الغرفة الف رسالته (**النثر الفنى**) وطلب الدكتور زكى قرضا من الجامعة المصرية سنة ١٩٣٠ ليطبع الرسالة التى سيقدمها الى جامعة السربون والتى أنجزها فى سبع سنين واستنجد يومئذ بمدير الجامعة وعميد كلية الآداب فلم يستجب مجيب ! .. وبعزيمة أمضى من الصخر كافح بمفرده وقاسى فى غربته حتى طبع الرسالة ..

ونوقشت رسالة الدكتوراه عن النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى فى جامعة السربون باللغة الفرنسية فى ٢٥ ابريل سنة ١٩٣١ ونال درجة الدكتوراه بدرجة مشرف جدا ..

ولم يترك زكى مبارك فى باريس اندفاعه وجراته وصراحته ..

قال فى جامعة السربون (**جئت لاصحح اغلاط المستشرقين**) وما كاد يصل الى باريس حتى هم بمواجهة المسيو مرسيه وهو رأس المستشرقين الفرنسيين لهذا العهد وله آراء مدونة فى نشأة النثر الفنى عند العرب فنصحه المسيو ماسينيون وافهمه ان المسيو مرسيه رجل صعب المراس وان منزلته فى المعهد العلمى عظيمة وان المستشرقين جميعا يجلونه أعظم الاجلال ولكن كتب الله الا ينتصح زكى مبارك برأى المسيو ماسينيون ورغم انه استاذه وأنه فى عقر داره الا أنه استطاع ان يقوض كبرياءه فوق كرسى السربون وفرض عليه آراءه فرضاً .

فماذا فعل زكى مبارك ؟ ابتدأ رسالته التى قدمها للسربون بفصلين فى نقض آراء المسيو مرسيه من الاساس فغضب الرجل وثار وصمم على حذف الفصلين بحجة انهما لون من الاستطراد لا يوائم الروح الفرنسى فى البحث ..

وصمم زكى مبارك على ابقاء الفصلين بحجة انهما العماد الذى تنهض عليه نظريته فى النثر الفنى وكأنما عز على الرجل أن يهاجمه الدكتور زكى فى عقر داره فمضى يعاديه عداء خفيا (كانت له آثار بشعة لا اتذكرها الا انتفضت رعبا من عجز الرجال عن ضبط النفس وقدرتهم على تقويض دعائم الانصاف) ٠

وقد قابل زكى مبارك خصومته بلدد أقسى واعنف ورأى الحرص على آرائه أفضل من الحرص على رضاه فابقى الفصلين اللذين اغضباه واضاف الى البحث الذى قدمه الى مدرسة اللغات الشرقية فصلا كاملا كان اشار بحذفه المسيو مرسيه لأنه هاجمه فيه وكان زكى مبارك فى خلال ذلك كله مناضلا صلب العود قوى الاراده وانتهيا الى عاقبة افصح عنها المسيو ماسينيون لكل الافصاح حين لقيه زكى مبارك بعد ذلك فى باريس اذ قال : ان المسيو مرسيه لا يحبك ولكنه لا يستطيع ان ينساك ! ٠٠

ثم صارح المسيو مرسيه المسيو ديمومبين بهذه العبارة (انى لا استطيع أن أمنح زكى مبارك ما يصبو اليه فانى اقرأ فى وجه هذا الفتى آيات الطموح الجارف واخشى ان يجىء غدا ومعه سفير مصر ليطالب بكرسى من كراسى السربون ! ٠٠)

ويوم ادى زكى مبارك امتحان الدكتوراه عن رسالته (**النثر الفنى**) وقف المسيو ماسينيون وقال (اننى حين اقرأ ابحاث طه حسين أقول هذه بضاعتنا ردت الينا وحين اقرأ ابحاث زكى مبارك أشعر بأنى اواجه شخصية جديدة) أقام زكى مبارك فى باريس خمس سنوات ثم عاد الى مصر يحمل معه أرقى الدرجات العلمية : دبلوم الدراسات العليا فى الآداب من مدرسة اللغات الشرقية ودرجة الدكتوراه بدرجة مشرف جدا من جامعة السربون عن رسالته الضخمة (**النثر الفنى**) ٠

وعاد الى مصر ليبدأ حياته الجديدة بعد ان قضى فى باريس خمس سنوات هى من أجمل وأقسى أيام شبابه ٠٠

وقد عرف من اسرار باريس الشىء الكثير يقول :(١) ٠

(عرفت باريس وأهل باريس معرفة قلما تقدر لانسان سواى ولم يكن ذلك فقط لأنى اتصلت بها نحو خمسة أعوام وانما كان ذلك لأنى

---

(١) ذكريات باريس ، ١٩٣١ ٠

وصلت اليها بعد يأس وبعد شوق وكانت كل زيارة تبدو لعينى وكأنها الأولى والأخيرة فكنت أنتهب محاسنها فى شره ونهم كما يفعل الصب المولع وهو يودع حسناء ستمضى الى حيث لا يعرف من اقطار الشمال او الجنوب ويا طالما ودعت من أسراب الملاح ! ٠٠)

* * *

فى مصر :

عاد زكى مبارك الى مصر سنة ١٩٣١ من باريس اشد ايمانا بالتراث الاسلامى والثقافة العربية ٠٠ وقد عمل رئيسا للقسم العربى فى الجامعة الأمريكية وكان يكتب فى جريدة البلاغ (**الحديث ذو شجون**) ٠

ودارت معركة عنيفة بين زكى مبارك وطه حسين فى تلك الحقبة فقد سئل طه حسين عن رأيه فى كتاب النثر الفنى الذى نال به الدكتور مبارك درجة الدكتوراه من السربون بدرجة مشرف جدا وفيه هجوم على بعض اراء طه حسين :

فقال طه حسين(١) : كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب وامتشق زكى مبارك قلمه يرد على طه حسين ودارت معركة عنيفة بينهما ٠٠ وعاد زكى مبارك الى منصبه فى ـ الجامعة سنة ١٩٣٣ ابان الفترة التى كان طه حسين فيها خارج الجامعة فلما عاد طه حسين الى الجامعة سنة ١٩٣٤ رفض تجديد عقد مبارك وقال (انا لم استشر فى تعيينه فلا استشار فى تجديد عقده) فأثار ذلك زكى مبارك وكتب مقاله المعروف (**طه حسين بين البغى والعقوق**) واهتز لذلك عدد كبير من الأدباء والمفكرين فكتب المازنى :

(ان الدكتور طه اصبح ممن يملكون اشباع البطون واجاعتها وانه صار يضرب اللقمة التى ترتفع بها اليد الى الفم ويطيرها فتسقط على الأرض فتفوز بها الكلاب ويحرمها الانسان) ٠ وقال زكى مبارك (لوجاع اولادى لشويت طه حسين وأطعمتهم لحمه) وخرج زكى مبارك من الجامعة واشتغل بالصحافة والأدب ثم عينته وزارة المعارف مفتشا للغة العربية سنة ١٩٣٧ وفى خلال تلك الفترة كان يعد رسالته للدكتوراه الثالثة (**التصوف الاسلامى**) الذى استغرق فى تاليفه تسع سنين وفى يوم ١٤ من أبريل سنة ١٩٣٧ نوقشت رسالة التصوف الاسلامى فى

---

(١) الرسالة ، ٢٦ مارس ١٩٣٤

الجامعة المصرية وكان يجب أن يكون الدكتور طه حسين رئيس لجنة الامتحان فاعتذر وأناب عنه وكيل كلية الآداب وكان فى تلك الفترة فى خصومة مع الدكتور طه .

وفى الساعة السابعة اتصل الدكتور طه هاتفيا بادارة الكلية ليعرف النتيجة وعرف أنه ظفر بأجازة الدكتوراه فى الفلسفة بمرتبة الشرف (هل انسى اننى انتزعت أجازة الدكتوراه من كلية الآداب وأنا فى خصومة عنيفة مع عميد كلية الآداب ؟ !) .

وقد كلفته الرسالة أموالا كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطية وكان يرجو أن يتحسن وضعه فى وزارة المعارف بعد نيله الدكتوراه الثالثة ولكن لم يتحقق شيء ...

وهذه هى أول دكتوراه فى الفلسفة من الجامعة المصرية الجديدة

وقد اتيح للاستاذ محمد جاد المولى ان يمتحن زكى مبارك سنة ١٩٢٤ فى رسالة الدكتوراه الأولى عن الأخلاق عند الغزالى والدكتوراه الجديدة عن التصوف الأسلامى سنة ١٩٣٧ فهل تغير زكى مبارك فى خلال تلك الفترة ؟ ! يقول :

(رايت طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٢٤ غير طالب الدكتوراه فى سنة ١٩٣٧ كان الطالب الأول يجادل لجنة الامتحان بلا تهيب ولا تلطف ولا اتول بلا تادب اما الطالب الجديد فكان آية من آيات الأدب والذوق وكان مثالا من امثلة التواضع والاستحياء يسمع السؤال بهدوء فيجيب عنه بذكاء مقرون بالتحفظ والاحتراس فماذا صنعت الثلاثة عشر عاما بالدكتور زكى مبارك ؟ ! لقد تغير تغيرا تاما وانقطعت الصلة بين حاضره وماضيه اشد الانقطاع وكذلك يصنع العلم بأبنائه الأوفياء فهو يجعلهم متواضعين مهذبين لا يعرفون العنف ولا الغطرسة ولا الكبرياء) .

ويقول أحمد حسن الزيات عن كتاب التصوف الاسلامى :

(وفى رأينا ان هذا الكتاب يؤرخ طورا جديدا من حياة صديقنا الدكتور : هوطور التأمل والتعمق والنفوذ الى صميم الجد فى الموضوع وهو خليق بأن يسبل على ما تقدمه من مغامراته الجريئة فى الرأى والفعل ستارا من الصفح الجميل واذا كان الله قد عود الشعراء والأدباء انه يغفر لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تاخر لبيت من الشعر أو خاطرة من

الرأى فما ادرى زكى مبارك أن يدخل معه الجنة على حساب كتابه ألفا من الأدباء المحرومين ! ··)

وبعد هذه الدكتوراه الثالثة أطلق زكى مبارك على نفسه : الدكاترة زكى مبارك ! ··

***

فى بغـــــداد :

سافر زكى مبارك فى أواخر سنة ١٩٣٧ الى بغـــداد للتدريس فى دار المعلمين العليا وقد قضى فى العراق عاما مليئا بالعمل والانتـــاج الخصب العميق ·· وعمقت رحلته الى العراق ايمانـه القـوى بالعروبة والقومية العربية ··

وقد ظل يذكر العراق ويدافع عنه ويشيد به طيلة حياته فقد اندمـج اندماجا مطلقا فى هذا البلد الشقيق ولبس السدارة العراقية وأعلن انه سفير مصر فى العراق ·· وفى خلال تلك الحقبة من حياته فى العراق انتج الكثير وخرج بمحصـول جيد وانجز هنـاك أربعـة من مؤلفـــاته القيمة هى :

(وحى بغداد) و (ملامح المجتمع العراقى) (وعبقرية الشـريف الرضى) و (ليلى المريضة فى العراق) ··

يقول (احصيت ما كتبت فى هذه الفترة فوجدته يزيد على خمسة آلاف صفحة ونظرت فيما ألقيت من الدروس والمحاضـرات فى بغـداد فوجدته يزيد عما اذاعه الأستاذ فلان فى عشر سنين) ويصور تاثيـــر بغداد فى نفسه فيقول : (كوتنى بغداد ثم شفتنى ·· كوتنى لأنى عشـت فيها محبوسا لا أدرى أين أذهب وشفتنى بغداد لأنى انست بســواد الليل حين فاتنى الأنس بسواد العيون فشرفت نفسى بمراسلة الصـحف فى مصـــر والعراق ولبنان وخرجت من ذلك بمحصـــول يملأ خمســـة مجلدات) ·

وقد أوصاه الدكتور طه حسين قبل سفره الى العـــراق قائـــلا : (ستقدم بغداد وأنت كاتب معروف فيقبل عليك الصـــحفيون فيسألونك كيف رأيت بغداد فان فعلوا فاحذر يادكتور زكى أن تصـــرح بشىء لأنـك موظف فى حكومتين ومركزك دقيق) ولكن هل صمت مبارك فى العراق ؟

لم يترك الدكتور زكى فى العراق طبيعته المندفعة الجريئة الصريحة فدخل فى معارك ومساجلات صحفية عديدة ..

وفى بغداد اختار دارا يجاورها مصنع حديد ليفر من الهدوء المطلق وقد ظل زكى مبارك وفيا للعراق واهتم بتسجيل مالهم من محامد ومناقب ويقول انه بنى صرحا من الوداد بين مصر والعراق (وسيأتى يوم يعذرنى فيه من اتهمونى بالاسراف فى حب البلاد التى عرفت بكاء الحمائم وظلام الليل) .

***

ومن العراق كانت بداية اتصاله الحقيقى بمجلة الرسالة فى نهاية سنة ١٩٣٧ وبدأ فى نشر سلسلة من المقالات تروى رحلته الى العراق وتكشف عن مشاعره وافكاره وتأملاته ورحلاته بين ربوع العراق بأسلوب وجدانى تحت عنوان (**ليلى المريضه فى العراق**)

وجعل اساس الكتاب بيتا من الشعر هو :

يقولـون ليلـى فى العراق مريضـة فياليتنى كنـت الطبيـب المداويـا

أما الطبيب المداويا - فهو الدكتور زكى مبارك .. وأما ليلى فهى سر غامض مبهم لقد رسم لها صورة المحبوبة المتيم فى هواها .. من تكون ليلى ؟ ! هل تكون رمزا للعراق كما يقول أنور الجندى ؟ ! ولكن زكى مبارك يعلن ان ليلاه غير ليلى الزهاوى وليلى الزهاوى هى (**العراق**) ..

هل يرمز بليلى الى اللغة العربية ولا سيما انه أعلن ان ليلاه نجدية ؟ هل تكون ليلاه شخصية حقيقية واقعية ؟

هل هى شخصية خيالية أراد بها أن يكشف عما يريد قوله من آراء مختلفة وكشفه لمشاعره الصريحة وتأملاته الجريئة ؟ !

ولكن ادع الدكتور زكى يتساءل ايضا عن ليلاه فيقول :

(فمن انت ياليلى ؟ الله وحده يعلم من تكونين واليه مصاير المحبين خذينى اليك أو تعالى الى فان لم يكن هذا ولاذاك فلنكن صلة الوصل بين مصر والعراق وسلام الله على من احب فكتم فمات وهو شهيد) .

ومن طرائفه عن ليلى المريضة فى العراق ..

قابله الشيخ السكندرى فى حفلة وقهقه حين رأى ليلى وقال :

ـ كنت والله أحسبك تمزح يا دكتور زكى وما كنت أظن انك جئت حقيقة لمداواة ليلى المريضة فى العراق ! .. (والشيخ السكندرى معذور فهو يظن ان العشق انتهى من الدنيا بعد قيس وليلاه وان الناس لم يعودوا يحبون غير الملوخية الخضراء ! ..

وموقف طريف اخر يقصه الدكتور زكى حين أراد سعادة العشماوى بك ان يترضانى فرفضت لأنى كنت أعرف مايريد وهل كان يريد غير ايناس عينيه بوجه ليلى ؟ اطلع من دول يا سعادة الوكيل ! ..

***

وكتاب ليلى المريضة فى العراق بأجزائه الثلاثة يعد من أعظم أعمال الدكتور زكى مبارك الوجدانية الأدبية الخالدة .

ويقول انه فكر فى اغناء الأدب العربى بألوان من الصور الشعرية التى تصور عذاب الأرواح والقلوب وانه لم يكن سىء القصد فيما صنع وانما أحب أن يقيم فى عالم الأدب العربى دولة للقلوب والاحاسيس ويذكر السرفى تأليفه هذا الكتاب من الأدب الوجدانى فيقول :

(وساءنى أن يقال ان راسين هو أعظم من شرح عاطفة الحب فالفت كتاب (ليلى المريضه فى العراق) لاقيم الدليل على أن فى كتاب اللغة العربية من يتفوق اظهر التفوق على راسين .. وهو كتاب تحررت فيه من كل القيود والاغلال وأردت ان يكون اصدق تعبير عن العبقرية العربية فى هذا الجيل) .

وهذه المذكرات الوجدانية بدأ فى تدوينها فى اغسطس سنة ١٩٣٧ وانتهى منها فى مارس ١٩٣٩ وبذلك يكون قد شغل نفسه بحديث ليلى سبعة عشر شهرا أو تزيد ويقول أنه حرر يومياته عن ليلى المريضة من جميع القيود والاغلال لمأرب واحد هو درس الطبائع والغرائز والميول ليخرج من ذلك بمحصول فلسفى قد ينفع بعض النفع فى اذكاء الدراسات الادبية والفلسفية وقد الف كتابه هذا لغاية أدبية رفيعة ، فقد جاء فى كتاب (**ثورة الأدب**) للدكتور محمد حسين هيكل كلمة تقول ان هناك آفاقا من المعانى يتحاماها كتاب العصر الحديث فاراد الدكتور زكى أن يكفر عن سيئات اولئك الكتاب فيتحمل المشاق فى ارتياد تلك المجاهيل ..

(لقد اقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء وأنا أعـرف أنى أعرض سمعتى للأقاويل والأراجيف) .

ويقول (اقتحمت تلك المهالك وليس لى الا سناد واحد هو الشـعور بأنى أودى خدمة للأدب والطب) .

وفى هذا الكتاب الضخم كشف زكى مبارك عن نفسه وحياته وأفكاره ومشاعره بصورة جريئة وصريحة وقد رسم صورا كثيرا لحياته وذكرياته وأحلامه وأعظم مزية يتحلى بها زكى مباك فى كتابه هى أنـــه يعترف سرا وعلانية بانه انسان يخطىء ويصيب ونجد فى هذا الكتاب صراعا مروعا بين الحلم والجهل والرشد والغى والهدى والضلال وفيه جهاد بين زكى مبارك ونفسه .. وقد خلا الكتاب خلوا تاما من شوائب الرياء .. يقول مبارك :

(ستروننى هززت شجرة النفس الانسانية هزة عنيفـــة لأعرف ماتحمل من الثمار المعطوبة والثمار الصحاح) .

ستروننى صنعت بالقلوب والنفوس ما تصنع الاعاصير بالشجر والنبات لا ينجو من عنفها الا القوى المتين) .

وبعد انتهاء العام الدراسى فى كلية المعلمين العليا ببغداد طلب زكى مبارك العودة الى محبوبته الغالية مصر فودعه محبوه بالعراق بالدموع والعواطف الجياشة .

* * *

عندما عاد زكى مبارك من العراق فى أواخر سـنة ١٩٣٨ ازداد احساسه بالغربة والوحشة فكتب مقالا تحت عنوان (هذا وطنى وهذه دارى ولكن أين أحبابى) يقول فيه :(١) .

(من كان يظن أنى أقضى الأيام والأسابيع فلا أجد من يسال عنى بعد غياب الشهور الطوال ؟ من كان يظن أنى أحبس نفســى فى دارى ليالى وأياما فلا يسهر لعزلتى جفن ، ولا يحزن قلب ، ولا يرتاع وجدان ؟

من كان يظن أنى لم أعبر شارع فؤاد غير مرة واحدة منذ رجعت من بغداد ؟ ! انا أطفىء المصباح بعد نصف الليل وأفتح النوافـذ لأرى كيف يهيم نور القمر فوق رمال الصحراء ...

---

(١) الرسالة ، ١٥ أغسطس ١٩٣٨ .

أيتها الصحراء ! ان حالك مثل حالى موات فى موات وقد تمرح فوق ثراك الميت هوام وحشرات · وفوق ثرى قلبى الميت تمرح هـــوام وحشرات هى السخرية من الناس ، واليأس من صلاح القلوب ، وجمال الوجود ·

وقد ترق حواشيك بالندى أو الغيث فتنبت فوق ثراك الاعشـــاب · أما قلبى فقد أمحل الى الأبد ولن ينبت فيه شىء ·

أيها الليل ! خذ السواد من قلبى ، ان أعوزك السواد · خذ الظلام من حظى ، ان أعوزك الظلام · خذ من قلبى ومن حظى ذخيرتك للأحقاب المقبلات · أيها الليل ! لا تجزع من العزلة فأنا هنالك أسامرك وأناجيـك لا تفزع من الوحدة ففى قلبى ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات ·

عندى آلامى ، وعندك آلامك والجريح يأنس بالجريح ، ياليل ! ·· أيها الليل !

قد اقترب صباحك ، فمتى يقترب صباحى ؟ ··

لك خلاص من ظلماتك ، فأين الخلاص من ظلماتى ؟ · ·

ستمضى لشأنك وتتركنى ، ياليل

ان الظلمات تقتل شبابى ، وتحيى شبابك

ان الظلمات تصيرك أقوى وأعنف ، وتصيرنى أرق والطف

والرقة والملطف من بواكير الفناء ·

آه ثم آه من حيرة القلب فى غفوات الليل

أنت باق على الزمان وأنا صائر الى الفناء ! ··)

وهذه الصرخة الحزينة تصور مدى احساسه بالغربة والوحشـة والأسى بعد عودته من بغداد وقد بدأت مأساته بعد تلك الفترة فى بداية الأربعينات وأخذ يذوب تدريجيا حتى انتهى ككاتب وانسان ·

وكانت نهاية اليمة لانسان ومفكر عاش حياته كلها يغرد فوق أفنان الجمال حتى سقط القلم من يده وهو يسبح بالتغريد فوق أفنان الجمال ! ·

● الفصـل الثـانى

عبقرية تصوير الذات

« ان عبقرية تصوير الذات عند الدكتور زكى مبارك عبقرية اصـــيلة مبدعة متميزة بطـابع وجدانى عاطفى خاص ، ومجموع ما كتبه يعتبر ثروة أدبية نفيسة للأدب الوجدانى النفسى فى أدبنا العربى المعاصر »

محمد رضوان

شخصية زكى مبارك :

الصفات الجسمية :

متوسط القامة قوى البنية غزير الشعر متقوس الأنف مكتنز الجسم جهير الصوت وسيم الوجه أزرق العينين رغم انه كان يكرر انه اخضر العينين نكاية فى المحتلين الانجليز لمصر المشهورين بزرقة العيون غليظ الشفتين منبسط الأسارير .. ورث عن أبيه الجد والتقوى والصلابة وخفة الظل ..

وورث عن أمه الوداعة وطيبة القلب والصفاء ..

وكانت صحة زكى مبارك قوية طيلة حياته يقول سنة ١٩٤٧ (جاوزت الخامسة والخمسين ولم اشعر بمرض يلزمنى السرير ليلة واحدة وتأذت عيناى من كثرة المطالعة فى المؤلفات العربية والفرنسية ومع ذلك نجحت فى امتحان القومسيون سنة ٣٧ حين عينت مفتشا بوزارة المعارف وكانت سنى تزيد على السابعة والأربعين) .

الصفات العقلية :

كان متوقد الذكاء صافى الذهن قوى الذاكرة ولكن ذاكرته فيها شذوذ فظيع وضعيفة كل الضعف فيما يتصل بالأرقام والاعلام وهى قوية كل القوة فيما يتصل بالحوادث والمعانى (فانا قد اتمثل حادثة بظروفها وأحوالها فى غاية من التدقيق كأنى قد شهدتها ولكنى انسى اليوم الذى وقعت فيه) .

ولكن ذاكرته كانت قوية جدا ، فقد حفظ آلاف الأبيات من الشعر العربى والفرنسى يقول : (حقيقة لم التفت اليها من قبل هى عودة

ذاكرتى فقد قضيت ثلاثة ايام بلياليها بدون نوم فاعدت على نفسى اكثر اجزاء القرآن الكريم وثلاثة ارباع الفية ابن مالك وثلاثة اخماس اشعار لافونتين ولامرتين وهوجو ودى موسيه) .

يقول انه حفظ ثلاثين الف بيت من الشعر العربى ويستطيع انشادها جميعا فى أى وقت .

الصفات النفسية :

كان زكى مبارك انسانى النزعة صافى القلب خفيف الظل ولكنه رغم طيبة قلبه وصفاء نفسه ووداعته كان مناضلا عنيفا صلبا اذا دخل فى سجال لا ينكص على عقبيه ابدا ولا يلين بل يظل صلب القناة قوى العارضة يصول ويجول ويطلب المزيد فكانت حياته كلها ملاحم نضال متوالية ! .. وهو يكره الحيوات المادية ولا يأبه باقتناء الماديات حتى بعد أن يسرت له أسباب الحياة ولكنه كان يقتنى مكتبة ضخمة تحوى ما يزيد عن عشرين الف كتاب .

وزكى مبارك قوى الوجدان مشتعل العاطفة ينبض قلبه بارق الشاعر والاحاسيس وقد صبغت هذه الملكات آثاره الأدبية بطابع عاطفى وجدانى بحت .. ويرجع ذلك الى شاعريته الاصيلة وطبيعته العاطفية ..

ومن العناصر الرئيسية فى تكوين شخصيته عنصر العشق فكان لامتحانه بالهوى والغرام وابتلائه فى العشق اثر كبير فى أدبه وشخصيته وزكى مبارك المؤمن عميق الايمان صافى القلب والوجدان وقد اثرت عليه دراساته للصوفية فالتحم بموقف الصوفية فى حياته وكتاباته وهذا الايمان الراسخ بعقيدته يلتقى عنده بايمان راسخ بمصر والعروبة — والقومية العربية ومن الخطوط البارزة فى شخصيته تمسكه الشديد بآرائه وصراحته وصدقه واعتداده بكرامته وكرامة وطنه ..

وكان يكره الهدوء لانه ضرب من الموت كما يقول : (الجنة لا تستهوينى لأن الحياة فيها تخلو من المتاعب مضيت مرة للبحث عن مكان هادىء فى احدى ضواحى باريس فوجدت بيتا كتبت على بابه هاتان الكلمتان : (Tranqullié absolute) فانزعجت لأنى أعرف ان الهدوء المطلق لا يكون الا فى مساكن الاموات) .

ويقول ان العداوات تمد دمه بفيض من قوة الحديد ومن أبرز صفاته الصدق ولكنه يراه غريبا فى هذه الدنيا .

(الصدق فى الدنيا غريب وانا فى الدنيا غريب والله هو المسئول عن رعاية الغرباء) وهو يكره النفاق والمداورة ويرى ان الشيطان مخلوق شريف لأنه صريح (الشيطان مخلوق شريف لانه لا ينافق فهو يعلن فى كل وقت أنه من الضالين المضلين ولو كشف كل انسان عن سريرته لأصبحنا جميعا من الملائكة لا الشياطين) .

ومن ملامح شخصيته الاعتراف بالخطأ ومواجهة اخطائه وعيوبه بصراحة وشجاعة وكان قوى العاطفة تغلب على شخصيته العاطفة (انا رجل يؤمن بأن القلب ادق ميزانا من العقل وكيف لا يكون كذلك وهو يأخذ هدايته من الفطرة على حين لا يهتدى العقل الا بالبراهين وهى فى الأغلب تقوم على مقومات لا تخلو من تضليل) .

ومن ملامح شخصيته الحزن العميق وهو يتموج بين سطور كتاباته وهو حزن أصيل يقول : (انه حزن لم تكن لى فيه ارادة وانما هو رزق ساقته المقادير بغير حساب لغاية يعلمها علام الغيوب) .

ويقول انه لم يبتل احد بالحزن كما ابتلى هو بالحزن .

وهو حائر فى تحديد حقيقة نفسه (انا متهم بالعقل ومتهم بالجنون فمن وصفنى بالعقل فهو متلطف ومن وصفنى بالجنون فهو مسرف لأنى فى حقيقة أمرى انسان يعيش بثورة العواطف فوق ما يعيش بقوة العقل وهى حالة تجعل أمرى وسطا بين العقل والجنون والتوفيق الذى ظفرت به فى حياتى العلمية مدين لحياتى الوجدانية فقوة الوجدان عندى هى التى حملتنى على ان استقتل فى الدراسات الأدبية والفلسفية وقد اتهم ببداوة الطبع فى مساجلاته ومعاركه (كيف ينكر على رجل مثلى الصراحة ظل بدوى الطبع فى زمن توارت فيه الصراحة وكثر فيه تنميق الحديث) .

وكان زكى مبارك وفيا الى ابعد الحدود الوفاء وقد احب كل بلد حل فيه وقد كان وفيا لعائلته واصدقائه ووطنه .

وقد عاب عليه البعض انه يثني على نفسه ويزهو ويختال يقول :

لولا غنـــائى وشــعرى لـــمات روح الوجـــود

لــولا بيـــانى ونـــثرى لضـــاع ســـر الخلود

ما هو السبب ؟ أرى ان هذه الظاهرة النفسـية لها اسباب أولى تلك الأسباب انه كان يحس انه يحيا فى عصـــره حياة المغبون ولذا نراه ينعى حظه وزمانه وقد رأى انداده يصلون الى أرقى المناصب بفضـــل الحزبية والنفاق .

(كيف فاتنى أن أنافق فى زمن لا يسود فيه غير النفاق)

فقضـــت الظروف أن يزهو ويختال وهو يرى نفســـه بعيدا عن مواكب الساسة والأضـــواء الخلابة التى تحيطهم والدوى الهائل الذى يصاحبهم فشكى وتوجع وتألم من الظلم الذى يعانيه ..

وكان مغرما بالمجد ويرى أنه أعظم من الحب

(المجد اعظم من الحب لو تعلمون المجد هو الذى يســوق الينا اسراب الملاح صـــاغرات خاشـــعات فلنجاهد فى سبيل المجد بعزائم الرجال ولنترك ما للشيطان الشيطان) .

ذاتية زكى مبارك :

اظهر خصـــائص أدب الدكتور زكـــى مبـــارك هـــو قـــوة الذاتية وذاتية زكى مبارك قوية كل القوة وقد صـــنعتها أمور كثيرة فقد كان الدكتور زكى يجمع بين الوســـادة والفتوة والشعر والعشق ومن تلك العوامل المتكاملة كانت ذاتية زكى مبارك ويرى الدكتور مبارك أن الذاتية الأدبية هى ان تكون انت فيما تكتب وفيما تقول بحيث يشـــعر من يقرأ لك أو يســـتمع اليك انك تنقل عن قلبك وضـــميرك وان لك خصائص ذاتية لا يزاحمك فيها ســـواك وانك لو نشـــرت مقالا بدون امضاء لنم عليه الروح قبل ان ينم عليك الأســـلوب والواقع ان ما كتبه زكى مبارك عن نفســـه وتأملاته ومشاعره يعتبر من أصدق وأعمق الاعترافات الذاتية الرفيعة التى ظهرت فى الأدب العربى حتى الآن ومن يقرأ ما كتبه مبارك فى هذا المجال يمكنه ان يضع يده على مفتاح شخصيته ويرى الدكتور زكى انه للوصـــول الى الذاتية الأدبية يجب أن تحرر عقلك وقلبك وروحك من جميع الأوهام والأباطيل والأضـــاليل ومعنى هذا ان تنظر فى جميع

الأشياء وجميع المعانى نظرة استقلالية منزهة عن الخضوع لنظرات من سبقوك ولو كانوا من أعاظم الرجال لأن الغرض هو ان تصبح روحك جارحة من الجوارح وهى لا تصير كذلك الا ان عودتها الفهم والادراك بلا وسيط . . وايمانه بذاتيته ايمان متين فهو يثق بنفسه وبفنه الأدبى ثقة قوية (انا أؤمن بأنه لا يمكن لأحد ان يكون اكتب منى الا اذا استطاع ان يكون اصدق منى ومن المستحيل أن يكون فى الدنيا احد اصدق منى) .

ويقول : كدت أتوهم انى طفت بأودية لم تعرفها الملائكة ولا الشياطين) ويصور رأيه فى الأدب الذاتى والأدب السخيف الغث فيقول (لا عبرة بهذه الثرثرة التى يطالعنا بها الكتاب فى كل صباح فهى على وفرتها تكرير وترديد لأفكار الفرنسيين والانجليز والألمان وليس لها شخصية ولا ذاتية تحدث القراء عن حياة أولئك الكتاب) .

عبقرية تصوير الذات :

رسم زكى مبارك صورا عديدة لحياته فى كل ما كتبه وقد صور مشاعره وأفكاره وتأملاته واحلامه بصدق وصراحة وجراة . .

وحرر كتاباته من كل القيود والاغلال . .

وقد نجح زكى مبارك فى تصوير ذاته أعظم النجاح وقد استخدم منهج الاستبطان الذاتى فى هذا السبيل .

ومنهج الاستبطان الذاتى منهج فلسفى فى علم النفس الكلاسيكى ويرى هذا المنهج ان تأمل العقل فى النفس البشرية وتحليل عناصرها هو وسيلة لمعرفة تلك النفس . .

وقد استخدم الدكتور زكى هذا المنهج وطبقه على نفسه بلا تصد فقد تأمل نفسه واستبطن ذاته ثم سجل كل ما تخرج به من تأملات ومشاعر وأفكار فى كتاباته المختلفة وقد قال ديكارت انا افكر اذن انا موجود Je pense, donce je suis

ويرى زكى مبارك أن الشعور بالنفس هو أساس الشعور بالوجود وقد كان من أبرز سمات منهج الدكتور زكى فى الأدب هو الحديث عن النفس وهو يرى أن تصوير هموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء .

ويتساءل هل كانت روائع الأدب فى جميع الأمم الا احاديث نفسية الم تكن اصالته فى التعبير عن المخاوف الروحية ؟ وهل كانت اكثر القصائد الخوالد الا افصاحا عن عواطف ذاتية ؟ ويتساءل وهل يمكن ان اتعرف الى الوجود قبل ان اتعرف الى نفسى ؟

وينفرد الدكتور زكى مبارك بين أدباء العرب جميعا بتلك الخاصية الفريدة وهى انه رائد التأمل النفسى وعميد الأدب الوجدانى الذاتى ...

انه يعيد سرد ذكرياته بصراحة ووضوح ويمضى على سجيته فى تصوير ذاته ونفسه ومشاعره وافكاره ويسترجع تيار الذكريات ببساطة وبلا لف أو دوران فذكرياته ذكريات انسان عرف الهدى والضلال والخير والشر والغى والرشد وغرامياته العاطفية صورها بريشة الفنان الصادق التعبير المشتعل الاحساس .

وما من شك فى انه كاتب السيرة الذاتية الوحيد فى أدبنا المعاصر الذى كشف عن نفسه وافكاره وقلبه وكانت لديه الشجاعة النادرة أن يصف مغامراته العاطفية وغرائزه ونفسه بكل ما فيها من عناصر الخير والشر وأشواقه الوجدانية بأمانة وصراحة وصدق ..

ولا شك فى انه تأثر فى منهجه هذا بالأدب الفرنسى الذى راعه ان يراه يتحدث عن أزمات القلوب والنفوس والعقول بأساليب لا يجد لها نظائر فى الأدب العربى فرجع الى نفسه ليفتش عما فيها من اسرار وعرائب واعاجيب وجمع من ذلك كله محصولا أدبيا نفيسا . وارى انه تأثر ببعض أعلام الأدب الوجدانى الفرنسى مثل لامرتين وهوجو وجان جاك روسو وارى انه تأثر بكتابين من أروع السير الذاتية واشدها ايغالا فى الصراحة والجرأة والصدق وهما : اعترافات جان جاك روسو واعترافات شيخ العاشقين جاكومو كازانوفا ونجح الدكتور زكى بمنهج الاستبطان الذاتى فى اكتشاف حقائق نفسه البشرية وخفاياها ولكنه كان برغم ذلك يخشى فى كل مرة مواجهة نفسه :

(ما رجعت الى نفسى مرة الا تهيبت اقتحام ما فى شعابها من وعور وصخور واشواك وقد وقفت مرة على ساحل النفس فى ظلمات الليل فرايتنى عندها من الغرباء وكيف لا أكون كذلك وانا منها على بعد سحيق سحيق يعد بالملايين من الأميال) وفى ليلة عيد الميلاد يمضى يجوب الظلمات وقد راعه ان يجد فى قلبه فراغا مخيفا .

وزكى مبارك ليس له من اهل الجمال الا مأرب واحد هو درس الطبائع والغرائز والميول ليخرج من ذلك بمحصول فلسفى قد ينفع

بعض النفع فى الدراسات الأدبية والفلسفية فالجمال هو الذى فجر عبقرية تصوير الذات عند زكى مبارك ..

ونلمس عبقرية تصوير ذاته فى تلك المناجاة الحارة العميقة وهو يخاطب قلبه ويناجيه :

(قلبى الم يأن لك أن تعفو وتصفح ؟ أنت تعرف انى لم اقبل على التحرير والتأليف فى شئون الأدب القديم والحديث الا طلبا للسلامة من ظلمك وعدوانك ولم اشغل قلمى بوصف اوهام المجتمع الا لاصرافه عن الشغل بأحلامك وأوهامك ...

فهل ترانى مع ذلك نجوت من شرك ؟ أنت تعرف انى لا ارى الناس من وقت الى وقت الا رغبة فى الانصراف عنك فان الخلوة الى نزواتك وبدواتك تشبه الخلوة الى أوكار الاراقم وملاعب الجن ومساقط البراكين فكيف تريد أن ارجع اليك ؟ ان لى عقلا يعصمنى من غيك فاصنع ما أنت صانع .. الست أنت الذى اغرانى بالتطلع الى مشارق الأقمار والازهار ومواسم الأفئدة والقلوب ؟ الست أنت الذى حدثنى بأن النعمة الصحيحة هى جودة الفهم لاطايب الوجود ؟ فهل تراك صدقت فيما حدثت ؟

وهل ترانى احسنت فى الاطمئنان الى وسواسك ونجواك ؟ الدنيا فى طاعتك ليست الا مهالك ومعاطب فكيف فاتنى التوفيق فلم أتمرد عليك ؟

ويصور بلائه بالدنيا والناس فيقول : (دخلت على الناس فى جحورهم وأوكارهم وما زلت اهيجهم بقلمى حتى اسمعونى أعنف ما يملكون من هرير ونباح وعواء وهل أبتلى أحد بأهل زمانه كما ابتليت وهل عانى أحد من لؤم زمانه بعض ما عانيت ؟

وهل بين قراء اللغة العربية فى مصر والشرق من يجهل بليتى بزمانى ؟ لقد شكوت دهرى وشكوت ثم شكوت حتى عطف على اعدائى ويقول : (وقد اكتوت يدى واكتوى قلبى بالسعير الذى يتمرد كلما سمع باسمى أو رآنى ؟ ! .

ويزيد فى الغم والكرب عرفانى بانى لم أكن رجلا لئيما حتى اقاسى من الناس ما قاسيته ؟ وهل راى الناس فى القديم والحديث صديقا فى مثل أدبي وكرمى وسخائي ؟ ومن هو الرجل الذى يجرؤ على القول

بأنه اعرف منى بالواجب واحفظ للعهد واحرص على مقابلة الجميل بالجميل ؟ ! . .

ويصور حظه وشعوره بالغربة فيقول : (واخطر ما يؤذينى فى حياتى هو الشعور بأنى لا اجد روحا يجاوب روحى وانا لا اتهم احدا بالغدر فما خلق الله روحا يقدر على مجاوبة روحى . . انا اعيش بلا صاحب وبلا صديق ولأنى رجل ليس له بخت ولأنى رجل اغناه الله عن البخت فليشبع اصدقائى بما عندهم من اطايب البخوت ! . .) .

***

وتبلغ قمة عبقريته فى تصوير ذاته وهو يناجى قلبه (الى متى الصوم يا قلبى) فهو يصور لوعة العاشق المفتون من خلال حديثه الى قلبه ومن خلال مناجاته ينفذ الى تصوير نفسه واحزانه وشجونه وفى مناجاته نرى عملية اجترار لمشاعره وتأملاته واحاسيسه بصورة فنية صادقة تلقى الأضواء على نفسيته وشخصيته . . فى مناجاته الحزينة الى قلبه يقول :

(اما رايت ياقلبى كيف تمضى الليالى والأيام وانا مبلبل الخواطر لا اعرف غير بياض القرطاس وسواد المداد ؟

قلبى : ان بعض الناس ينافقون فى السر ويصومون فى العلانية وقد استوى سرك وجهرك فألفت الحرمان من اطايب الحسن وغرائب الجمال . . .

كنت انتظر ان اصير شاعرا على حسابك ، فأين انت يا قلبى ؟

كنت اطير الى دنيا المجد والحب بجناحيك فماذا صنع الدهر بجناحيك ؟

ويقول : (يعز على يا قلبى ان أصبح بالرغم منى حكيما من الحكماء اعترف ايها القلب الصائم بانك تخذل نصيرك واخاك . . اعترف ايها القلب الصائم بديونى عليك . . .

الم اضيع الوف المنافع فى سبيلك ؟ فما الذى يضيرك يا قلبى لو تركت صومك يوما او بعض يوم لأواجه بك الحياة لحظة او لحظتين ؟

ثم يقول فى النهاية : (الى متى الصوم ياقلبى ؟ ان الناس يصومون ليلقوا من الله حسن الجزاء وصيامك يا قلبى من اشنع الذنوب فاعترف بذنبك يا غافل واجرح صيامك بنظرة او نظرتين قبل ان تطويك الأيام فلا ينصب لخفوقك ميزان ...) .

* * *

ان عبقرية تصوير الذات عند الدكتور زكى مبارك عبقرية أصيلة مبدعة متميزة بطابع وجدانى عاطفى خاص ، ومجموع ما كتبه يعتبر ثروة أدبية نفيسة للأدب الوجدانى فى أدبنا المعاصر ، وفى الحق أن ما كتبه هو صور شعرية رائعة تسبح فى روح الشعر الصافى ونلمح فيها شخصيته واضحة صريحة متميزة بطابعها الوجدانى العاطفى . وكان كل ما كتبه عن نفسه وتصوير ذاته أودعه نبضات قلبه وخفقات وجدانه وبث فيه أشواقه وشجونه وأحلامه ..

* * *

القلب الغريب :

كان الدكتور زكى مبارك يحس بالغربة الروحية .. فهو يرى انه يجب على الأديب أن يوطن نفسه على الغربة الروحية فجميع المفكرين غرباء فى كل العصور ..

وقد رسم صورا كثيرة تصور احساسة بغربة قلبه ، وهذه صورة ترسم احساسه بالغربة والوحشة يقول :

(ما الذى غنمت وانا امتشق القلم منذ اكثر من خمس وعشرين سنة بعزيمة اقسى من الصخر وأصلب من الحديد ؟

ما الذى غنمت وقد كنت كاتبا وشاعرا قبل ان يولد فريق من الذين يؤذينى عندهم نميمة قلمى ...

لقد غنيت اهل زمانى اناشيد ايقظت بها صدورهم من احلام غانيات واحييت بها ما كان فى قلوبهم من موات فأين من يسعدنى بكلمة صدق ادفع بها عدوان زمانى لأمضى على سجيتى فى الفناء) ويقول انه استفاد من ايام الاعتقال فعرف معنى الاغتراب فى الحياة وهو معنى جميل ....

ويصور غربة قلبه فى احدى ليالى العيد فيقول :

(كان لى اهل وكان لك اهل ياقلبى .. اما اهلى فبخير وان كنت اتوجع كلما ذكرت ان اولئك الاهل خلا ناديهم من وجه ابى وكان لك اهل يا قلبى لكن اخبارهم غابت عنى منذ أزمان لا تكتم عنى شيئا يا قلبى فمالك فى الدنيا سواك ...

حدثنى اين دفنت احلامك فانى اعرف انك قليل البخت فى دنياك ولو كان لك بخت لما جاز ان تبيت مشرد الامانى فى ليلة عيد .. يا قلبى يرحم الله غربتك بين القلوب ...) .

ويرسم صورة أخرى لاحساسه بغربة قلبه فيقول :

(واعود اليك ياصديقى فأخبرك ان الازمة الباقية هى ازمة القلب فقد فهمت كل شىء وعرفت كل شىء وبقى قلبى كالغابة المجهولة فى ضمير الظلماء فان قلت لك انى اشكو خيبة فى الحب او اخفاقا فى المجد او غدراً من الاصدقاء فأعلم أن هذه كلها محرجات هينة تزعج النفس احقلة ثم تزول ....) .

والنغمة الكئيبة لغربة القلب لا تفارق زكى مبارك فهو يحس احساسا قويا وحزينا انه غريب وحائر لا يعرف اين القرار يقول :

(وانا بين المؤمنين ملحد وبين الملحدين مؤمن وانا بر عند الفجار وفاجر عند الأبرار فأنا فى كل بيئة اجنبى وفى كل أرض غريب وهنا يكون الفراغ الأكبر اذ اعود الى قلبى وجها اوجه وهو قلب خطر والموت عندى اهون من مواجهة ما فيه من أهوال وخطوب فليت شعرى اين المفر ؟ ومتى يكون القرار ؟) .

وهو يعطينا صورة لغربة قلبه واحزان نفسه وانها لصورة رائعة حية ، وهذه هى مناجاة خارجة من قلبه ولذلك كانت كل كلمة فيها تقطر دمعا وحرارة يقول :

(ايها الليل هل رايت فى دنياك من ينافسك فى ظلامك غير قلبى ؟ هل عرفت منذ اجيال واجيال شقاء مثل شقائى ؟ ايها الليل : خذ السواد من قلبى ان اعوزك السواد ، خذ الظلام من حظى ان اعوزك الظلام ، خذ من قلبى ومن حظى ذخيرتك للأحقاب المقبلات ، خذ منى

ما تشاء بلا من عليك فما اخذت السواد الا منك ولا ورثت الظلام الا عنك ومثلى يحنظ الجميل ...

أيها الليل لا تجزع من العزلة فانا هنالك اسـامرك وانا احبك لا تفزع من الوحدة ففى قلبى ظلمات تساير ما تحمل من ظلمات ... عندى آلام وعندك آلام والجريح يأنس بالجريح يا ليل ...) .

وهذه صـرخة روحية حزينة تصور مصير الصدق فى هذا الوجود وترسم مأساة قلبه :

(قلبى ، قلبى رحمة الله عليك ، فقد سـعد ناس بالرفق المزيف وشقيت انت بالرفق الصحيح ، وقد وصل ناس لأنهم كذبوا وتخلفت لانك صدقت ، ونعم ناس لأنهم خانوا وشقيت انت ، وانتفع ناس لانهم غدروا وخسرت لأنك وفيت .. قلبى احسن الله اليك) .

ويقول : « الصدق فى الدنيا غريب وانا فى الدنيا غريب والله هو المسئول عن رعاية الغرباء » .

« ثم اشير الى غربتى فى وطنى بالفكر والروح غربة قاسية لا ترحم ولا تلين غربة اتوحد بها توحد الليث فى العرين ...

وهذه الغربة الروحية المزعجة هى التى قضت ان يذرع فضاء الله من شـاطىء المانش الى شط العرب وكان يشعر بالمرارة فى اعماقه لاحساسه بالظلم وشعور بالغبن يقول :

« انا الغريق فما خوفى من البلل كما يقول المتنبى انا الرجل الذى عانى مكاره الاغتراب فى كل أرض نكانت غربته فى القاهرة اقسى واعنف من غربته فى باريس وبغداد ...

وهل كانت الصراحة من اظهر صفاتى ؟ وكيف وقد قضيت العمر فى جمع المال لاشترى مثقالا من الرياء وساموت قبل أن اجمع الثمن الغالى اذلك المثقال ....

وكان هذا الأديب المرهف الحس الرقيق الوجدان يعانى من الظلم والغبن مما جعله يحس بالمرارة فى اعماقه وهو يرى انداده ومن هم اقل منه يصـلون الى اعظم المناصـب بفضـل الحزبية والنفاق فأحس بالحزن وانطوى على نفسه وشعر بوحشة غريبة .. وبغربة قلبه وروحه يقـول :

(يظهر اننى اجنبى فان عيونى خضـــراء والعيون المصرية سوداء يجب ان ينشر البلاغ هذا الكلام السخيف لانه سخيف فالعقل اتعبنا فى هذه البلاد)(*) .

ويناجى قلبه والمرارة فى اعماقه قائلا : (هل تســمح بان احمل مصباحا فى هذه الليلة واخرج معك لزيارة المدفون من اوطارك وأحلامك ؟

ولكن اين المقابر التى دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أؤنسها بضوء المصباح ؟ اين ؟ لا أين ؟ فانى أخشى أن تكون المقادير صــنعت بأحلامك ما يصنع البدر بما يدفن فيه من سرائر القلوب ·

ويقول : (قلبى يرحم الله غربتك بين القلوب ! ..)

(★) تذكر الأديبة كريمة زكى مبارك ابنة الأديب الكبير أن والدها كانت عيناه زرقاوين لكنه كان يردد انهما خضراوان حيث كان يكره ان تكون له صفة تشبه المحتل الانجليزى وهى زرقة عيونهم ·

● الفصــل الثــالث

زكى مبارك والأدب الوجدانى

« كان الدكتور زكى مبــارك يحب حبا عفيفــا ساميا وكان يلتمس فى هذا الحب ينبوع الشعر وصــفاء الروح فكتب أروع رســائل الحب والجمال من الهام حبه ووحى عذابه وبلائه فى العشق »

محمد رضوان

زكى مبارك ... والأدب الوجدانى :

ابدع شاعر الحب والجمال اجمل واعمق الصــور الوجدانية فى ادبنا العربى المعاصر وهذا الانتاج الوجدانى الرائع مثل سيمفونية حالمة تتزاحم فيها الأنغام ... انغام الهجر والوصال والعتاب .. والشكوى .. وقد صور شاعر الحب والجمال عاطفة الحب تصويرا ادبيا بارعا محص فيه تلك العاطفة النبيلة وشرحها تشريحا ادبيا وجدانيا رائعا .

ومجموع ما كتبه فى الوجدانيات يلقى الضوء على جوانب كثيرة من نفسية هذا الشاعر العاشق .

وتعكس كتاباته الوجدانية عاطفته الملتهبة وروحه العاشقة ونفسه الوالهة وقد اتخذ مذهبا واضحا وصريحا فى الأدب وامعن فيه ووقف ادبه على فن الغزل والتشبيب والكتابة فى الوجدانيات يقول :

(عز على ان يقال ان شعراء اوربا قد تفردوا باجادة القول فى الوجدانيات فالفت كتاب **(مدامع العشاق)** ليكون شاهدا على ســبق العبقرية العربية الى شـــرح مآسى الأرواح والقلوب وساءنى ان يقال ان (راسين) هو اعظم من شـــرح عاطفة الحب فالفت كتاب **(ليلى المريضة فى العراق)** لأقيم الدليل على ان فى كتاب اللغة العربية من يتفوق اظهر التفوق على راسين) .

ويعتبر زكى اصدق من شرح عاطفة الحب وصور الوان العشق باسلوب موسيقى فريد حتى صار حديثه عن الحب مذهبا أدبيا وقد كانت لتجاربه العديدة فى الحب وبلائه فى هواه صور نفسية رائعة اضافها الى المكتبة العربية يقول عن مذهبه الأدبى :

(ان حديثى عن الحب صار مذهبا ادبيا اشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء وانا اريد ان اخلق جوا من البشاشة ادفع به ظلمات الزمان ...

نحن لا نبتكر الكلام فى الحب فهو عاطفة عرفتها الارواح منذ اقدم عهود الوجود ، وما قيمة الدنيا اذا خلت من الحب وهل ينصرف القلب عن الحب وهو فى عافية ؟)

ويتساءل قائلا (وبأى حق يخلو ادبنا من تشريح عاطفة الحب ؟ ان التوقر الذى يصطنعه بعض الناس قضى على عصرنا بالحرمان من البشاشة والأريحية وقطع ما بيننا وبين ماضينا المجيد يوم كان لنا شعراء لا يعترفون بغير أوتار القلوب) .

ان قوة العاطفة عند الدكتور زكى مبارك هى التى املت هذه الأحاديث الوجدانية النفيسة ومنحتها الاصالة والجمال بحيث بقى اجمل واعمق ما كتب شاعر الحب والجمال حتى بعد ان جاوز طور الشباب فقد ظل شاب القلب والروح حتى آخر نسمة من حياته ..

وكانت حياته سلسلة من التجارب الخصبة العميقة فى الحب والعشق وفى كل يوم كان يكتسب المزيد من التجارب العاطفية والنضج الأدبى فكل ما كتبه شاعر الحب والجمال كان من وحى العاطفة القوية المتأججة فخرجت كتاباته مفعمة بالحرارة والعاطفة والصدق .

وهو فى كتاباته لا يريد الا الصدق فى تصوير العواطف والأهواء يقول : (ما أردت الا الصدق فى تصوير العواطف والأهواء ليكون فى ذلك مادة فى دراسة علم النفس .

ويتحدث عن تشريح عاطفة الحب فيقول :

(فانا اتحدث عن الحب بصفة جدية واتعقب اخباره وآثاره فى كل ما أرى واسمع ان سكتنا عن تشريح عاطفة الحب فمن يتحدث عنها ونحن

ندعى النيابة عن الجمهور فى تشريح النوازع والأهواء ؟ نحن نريد ان نشغل الناس بأخلاقهم وأذواقهم واوهامهم نريد ان نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد ان سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية . نحن نفكر فى خلق عصبية ادبية ولن نصل الى ذلك الا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصادق لشهوات الاحاسيس وتثقيف الشهوات العقلية يصل بنا الى منازل الحكماء ويطمعنا فى الخلود) .

ويقول ان بينه وبين الله عهودا ومواثيق .. (بينى وبين الله عهود ومواثيق والعهد بينى وبينه ان اقضى العمر ساجعا فوق افنان الجمال فانا واثق أن العافية لن تضيع من يدى وهل يرضى الله ان اسجع سجع الجريح ؟) .

ويرى ان اشعار الحب والعشق ادت الى اللغة العربية خدمات جليلة (فالشعراء العشاق سبقوا الى تربية العواطف وذلك فن يفوتنا الالتفات اليه مع أنه اعظم حافز لعزائم الرجال وقد ادى الشعراء العشاق الى اللغة العربية جميلا يفوق كل جميل فهى مدينة بوجودها الأدبى الى اقباس ارواحهم وهم الذين رفعوا رايتها فى المشرق والمغرب فما تسمو لغة على لغة الا بقوة الافصاح عن السرائر الوجدانية ولا هتف اول شاد فى اى لغة بغير الصوت الأول وهو صوت القلب ومن هنا كان الغزل أول شعر أجاده الناس فى فجر الزمان) .

ويرى الدكتور زكى ان طغيان العقل فى العصر الحديث لا يمنع من طغيان القلب (وطغيان العقل فى عصور المدنية لم يقو على صد طغيان القلب لأن القلب هو الجارحة الباقية ولأنه اقوى الشواهد على صحة العقل ولهذا امتازت الأمم القوية باجادة التعبير عن أسرار القلوب وهل ننسى ان الآداب الأجنبية لم تصل الينا الا بجاذبية الادب الوجدانى ؟ هل عرفنا الأدب الفرنسى أول ما عرفناه الا عن وجدانيات هوجو وميسيه ولامرتين) .

ويقول انه ليس له مارب من الجمال الا درس الطبائع والغرائز والميول ليخرج من ذلك بمحصول فلسفى قد ينفع بعض النفع فى اذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية وقد سجل فى كتاباته عواطفه ومشاعره (عز على ان اترك عواطفى تتبدد فلا يسجلها غناء ولا انين مع انها اكرم من الذهب واثمن من الماس) .

كان لمذهب الدكتور زكى الأدبى آثار خطيرة فقد هوجم بقسوة وعنف من اجل صراحته فى الكشف عن نفسه بخيرها وشرها والكتابة

عن الحب وأصبح هدفا لانتقادات عنيفة من بعض المتزمتين فصادف الكثير من المتاعب والمضايقات واتهم بأشنع ضروب الأراجيف والأباطيل .. وعندما أصدر الدكتور زكى كتابه (مدامع العشاق) اثار ضجة هائلة حوله ووصف الدكتور طه حسين الدكتور مبارك بأنه حاد الشباب عنيفه وقال عن كتابه انه يحرض على الشهوات وفى صيف سنة ١٩٢٦ كتب مقالا فى جريدة (بحر يوسف) تحت عنوان (يا بحر يوسف يا ما فيك كل بلطية) وظن اهل الفيوم انه يعنى المرأة فتعرض لحملات عنيفة واتناشته جرائد الفيوم ·

ويدافع زكى مبارك عن نفسه ومذهبه الأدبى فيقول :

(لقد جعلت الحديث عن الحب شريعة من الشرائع هل احسنت هل اسأت ؟ لا اعرف بالضبط ولكن قلبى يحدثنى انى كنت من المسرفين اتوهم احيانا أننى اخدم لغتى بهذه الأحاديث واعتقد احيانا اننى أهدم الأخلاق بهذه الاحاديث احب ان اعرف نفسى فهل استطيع ان اعرف نفسى ؟ هيهات لو كنت رجلا فاسقا لعرفت الحدود وانتهيت ولكنى رجل عفيف وهنا تظهر دقة الأشكال ومن الذى يصدق أننى رجل عفيف وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات) .

ويصور غايته من مذهبه الأدبى الصريح فيقول :

(انك ياربى تعلم انى لم اكن سىء القصد فيما صنعت كنت احب أن أقيم فى دنيا الشرف هيكلا يعبد فيه الجمال كنت أحب أن تقوم فى عالم الأدب دولة القلوب والأحاسيس كنت أحب أن يشعر شبابنا بأن لغتهم لاتزال غنية وأن فيها كتابا وشعراء يعرفون مواسم القلوب فكيف كان جزائى ؟ كنت كالطبيب الذى يحمل المشرط ليداوى جرحاه فينقل اليه المشرط جراثيم الهلاك ! ..) .

ان ما كتبه الدكتور زكى مبارك فى الوجدانيات يضعنا امام عالم ساحر من الجمال الموحى والجو الغنى بالعمق والسحر ويمنحنا فى نفس الوقت احساسا قويا بعواطف شاعر الحب والجمال ومشاعره الفنية حين يسجل خفقات قلبه ويفصح عن سرائره الوجدانية فينطلق من سجن التقاليد — كما يقول ايليا ابو ماضى فيرسل معانيه كما يرسل القمر ضوءه او الزهرة عبيرها او البلبل اغاريده فهل يعنف الزهرة انسان او يوبخ الشادى احد او يلوم القمر عاقل .. ويقول زكى مبارك انه يتقرب الى الله بالتغريد فوق أفنان الجمال ويقول أحد الشعراء من عشاق الجمال :

خلقت الجمـــال لنا فتنـــــة   وقلت لنا يا عبـــــاد اتقـــوه
وانت جميــــل تحب الجمال   فكيف عبـــادك لا يعشـــــقوه

ويقول انه من الحســــرة واللوعة ان انفض يدى من العواطف بعد ان جعلت الكتابة فى العواطف مذهبا أدبيا له انصار وأشياع فى ســـائر الأقطار العربية) .

وقد قال الدكتور محمد حسين هيكل فى كتابه (ثورة الأدب) ان هناك آفاقا من المعانى يتحاماها كتاب العصر الحديث فقال زكى مبـــارك انه سيشق هذا الطريق ويكفر عن سيئات أولئك الكتاب فيتحمل المشاق فى ارتياد تلك المجاهل وقال :

(لقد اقتحمت تلك الآفاق بلا زاد ولا ماء وانا أعرف انى اعرض سمعتى للأقاويل والأراجيف) .

ويرى ان الأدب يوجب ان يرى الأديب جميع الأشياء وان يعرف جميع الناس (فأنا أشرب المر من عصير الحياة لأحيله الى شراب سائغ للشاربين) .

وقد كانت لتجارب زكى مبارك فى الحب وبلائه فى الهوى أثر كبير فى تلوين أدبه بصور نفسية فريدة متعددة .. عرف الألم واللذة وعرف الهجر والوصال وعرف سهر الليالى ومناجاة الليل وعرف الأرق والسهاد .

وقد رسم صورا كثيرة رائعة للحب يقول عن الحب (الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس ، الحب لغة روحانية يفهمها القلب عن القلب وتنقلها الروح عن الروح وتسرى نشوتها فى الأفئدة سريان الصبا فى الغصن) ولكنه عانى فى حياته العاطفية من ظروف هجر أو خيانة فثار وتمرد على الحب وعلى المراة وكفر بدنيا الحب التى دعا اليها وآمن بها ودافع عنها وانكر انه أحب أو عشق أو ان له اى تجارب فى الحب فيقول :

(كيف يصف الحب من لا يحب أشهد صادقا اننى لم أعرف الحب أنا لا احب لا احب احدا وانى احب نفسى أنا لم احب ولم أعرف الحق لأن قلبى أعظم من أن يحب ولم يخلق الى اليوم وجه يكافىء ما فى قلبى من صـــراحة الصدق وصفاء الحنان ولو انى انفقت فى سبيل المجد بعض ما انفقت فى سبيل الحب لكنت اليوم رئيس الوزراء ...

يسالوننى عن تجاربى فى الحب انه تجارة خاسرة وارض موات . لقد جربت الحب وهانذا اخرج من دنياه صفر اليدين فمن اغتر بالحب بعد ما حذرته فهو مضيع مغبون) .

وقد ثار ثورة عاتية على المراة لظروف هجر وغدر مر بها فقال آراء متطرفة عنها فى سنواته الأخيرة منها (المراة هى الجحيم الذى نتمرن به على الاقامة فى سقر وهى البلاء الذى صبه الله على رءوس العباد . هى الشقاء المعجل والكرب الذى يسبق الموت والمراة فى جميع احوالها مصدر فساد وهى التى تفرق بين الابن وابيه والأخ واخيه ولها مداخل الى الفتنة يعجز عنها ابليس) .

ويقول (المراة تؤثر فى حياة العظماء بلا جـدال لأن فيها غريزة المخاتلة والنفاق والرياء وهى فضائل يعدها الغافلون من العيوب بفضل المراة عرفنا كيف نصانع ونجامل ونراوغ بفضل المراة راضتنا المقادر على الصبر الجميل) ولكنه يشكر زوجته الفلاحة لأنها حفظت قلبه سليما من الهموم والمتاعب .. كان الدكتور زكى مبارك شاعرا بطبيعته فصبغت العاطفة كل كتاباته واتسمت بطابع عاطفى وجدانى اصيل .

ومن مؤلفات زكى مبارك الوجدانية (**ذكريات باريس**) و (**العشاق الثلاثة**) و (**مدامع العشاق**) و (**ليلى المريضة فى العراق**) وديوان شعره (**الحان الخلود**) وهو اقباس وجدانية فى الحب والجمال وهو فى كل كتاباته الوجدانية لا يريد الا الصدق فى تصوير العواطف . يقول :

(ما اردت الا الصدق فى تصوير العواطف والاهواء ليكون فى ذلك مادة تنفع فى دراسة علم النفس ومن المستحيل ان اريد الدعوة الى الفجور والمجون لانى بحكم اعمالى الرسمية من رجال التربية ولأنى رجل متأهل ولى ابناء .. قد يكون فى القراء من يخفى عليه انى ادعو الى مبادىء خلقية سامية اغشيها بالفتون كما يصنع الطبيب فى تغشية (**البرشامة**) المرة بغشاء من الحلواء ..) .

ويقول ان الأدب يجب ان يسمو عن الأوضاع والتقاليد حتى لا يفتر ويضوى بوضعه تحت رحمة المتزمتين من رجال الدين ورعاية المتحرجين من دعاة الأخلاق .

ويرى ان الكاتب لا يعد فارسا الا اذا استطاع بكل سطر او بكل حرف ان يعرض قراءه الى الاشتباك فى حروب مع المعانى والآراء

والأوهام ويقول : (من الحسرة واللوعة ان انفض يدى من العواطف بعد ان جعلت الكتابة فى العواطف مذهبا ادبيا له انصار واشياع فى سائر الاقطار العربية) .

رســــائل فى الحب والجمال

ابتدع زكى مبارك لونا فريدا رائعا من الوان الأدب العربى وهو رسائل غرامية فى الحب والجمال تشـيع فيها عاطفته الملتهبة وروحه الشعرى القوى ونفسه العاشقة الوالهة .

وتتصف تلك الرسائل الغرامية الرقيقة بعاطفة صادقة وبصـور شعرية رقيقة وابتكار جديد فى اشكال التعبير عن معانى جديدة فى الحب والجمال وهذه الرســائل الوجدانية ذات أصالة متميزة تصور تجارب فريدة فى الحب لشاعر الحب والجمال وهى مكتملة البناء الفنى حيث تعبر عن عواطف ومشاعر وأحاسيس دافقة نجح زكى مبارك فى تصوير عواطفه ومشاعره فيها أصدق تعبير وأعمقه ..

ان قوة العاطفة فى هذه الرســائل منحتها الأصـــالة والجمال والصدق وهذا الشعر المنثور المتفجر بالعاطفة الوالهة فى رسائله الى ليلى المريضة فى الزمالك وجاردن سيتى والجيزة ومصر الجديدة تبلغ قمة عالية من قمم الشعر العاطفى الوجدانى الخالد .. وهذه هى بعض رسائله الى محبوباته .. هذه رسالة عتاب رقيقة تنطق بوله العاطفة عند الدكتور زكى وهى شعر منثور متفجر بالعاطفة الوالهة تحوى عتاب واستثارة ايعطف قلب الحبيب الهــاجر ويرق ليعود الى معبد الحب والجمال لشاعر الحب والجمال يقول معاتبا ربة هواه : (هو عتـــاب الطبيب الذى يذكر عند المرض وينسى عند العافية هو عتاب الصديق الذى يذكر فى النعماء وينسى فى البأساء هو عتاب النهر الذى تشتاقه الارض فى الصيف وتنساه فى الخريف ..

هو عتاب من لم يبق له منكم غير العتاب ! .. وكيف أعتب على من يستغنى عن نور القمر بشعاع السراج ؟! ..

جربوا حياة العقوق جربوها بعد ان جربتم حياة الوفاء لتعرفوا ما طعم الشهد وما طعم الصاب ..

« ان كان غركم الصفح فلا صفح وان كان غركم الدمع فلا دمع ! .. فقد صيغ قلبى من ضمائر الجبال ! .. تلك ايام خلت وانا اضن عليها بأن تضاف الى التواريخ ولن اعترف بانكم اسرتم روحى لحظة من زمان فان راعكم وفائى لدار الهوى بالمرور عليها فى الغدو والرواح فلا تعجبوا ولا تظنوا انى استهديكم تحية يجاد بها على عابر الطريق وانما هى لفتة اريد بها ان تفهم الحجارة انى لم اكن فى هواى من العابثين ..

« ان دار الهوى لن تعرفكم بعد اليوم ولن تراكم الا ابدانا بلا أرواح ولن تجود عليكم بالسعادة والصفاء يا جيرة آدهم حفظ الجميل ! .. سيصنع الدهر وسيفعل القدر ما يشاء وستفترون على بقدر ما عندكم من كيد وجحود ثم يبقى وفائى لكم ولدار الهوى يا جيرة اطغاهم الجمال فتاهوا فى صحراوات الدلال .

لن تضيعوا من يدى ولو فررتم الى آفاق المريخ فارجعوا طائعين قبل ان ترجعوا كارهين ! .. فسرعة الظبى فى الجرى تنبهر حين يلمح وجه الأسد الصوال ! ..

ومن رسائله المبتكرة هذه الرسالة الوجدانية الرائعة التى تصور انقياد الجمال اليه وتبين ان عاشق الجمال لا يعرف الاخفاق فى ميدان الحب وفيها لمسات رقيقة تصور معاناته فى تلك التجربة العاطفية وثقته المتينة بنفسه وبعودة محبوبته يقول :

« اذهبى الى ابعد الآفاق واعرفى جميع الخلائق فلن تكونى لغيرى ابداً ولن يكون للغواية سبيل الى المليحة التى وسمت جبينها بغرامى . لن اجود عليك يوما بنعمة الحرية وستظلين فى اسارى الى آخر الزمان ..

جربى التحرر جربيه ان كانت لك بالتحرر من وثاقى يدان .. لن ينقضى ما بيننا ابدا ولن يكون لنا غير ما خط فى صحيفة الخلود وهيهات ثم هيهات ان يمحى سطر خطته الأقدار فى صحيفة الخلود ! .. ما فى كل يوم ولا كل عام ولا كل جيل ينعطف قلب الى قلب كما ينعطف قلبك الى قلبى ، فنحن الغاية المنشودة من الوفاق الصحيح بين الأرواح والقلوب .. دنيانا التى اعرف وتعرفين أصبحت قفراء ، فمتى نلتقى لتعود زهراء ؟ خبرينى متى نلتقى ؟ ومتى نعلن الانتصار على عوادى الزمان ؟

لطف الله بك يا ظلوم وحفظ عليك نعمة الوجه الوهاج ؟!

متى نلتقى ؟ وهل افترقنا ؟ انت بين يدى وان حجبتك عنى فياف وسهوب ! ..

***

وهذه رسالة رائعة فى الحب والجمال يرسم فيها صورة لقلبه الخاشـــع المتبتل فى معبد الحب والجمال وهى اقباس من روحه تفصح عن سرائره الوجدانية اقوى الافصاح واعمقه وهو يريد أن ينسى غرامه ولكن أين بائع النســيان وأين بائع السلوان ؟ يقول :

(قلبى يتلفت ويتلفت منذ شـــــهور طوال الى روح غالية كانت خلائقها الروحانية هى الشاهد على أن فى دنيانا نســائم من فراديس الجنان .. وعلى طول التلفت والتسمع (**تلفت القلب وتســمع القلب**) لم اظفر من اخبارها بشىء .. ثم يقول :

(فماذا تضمر الدنيا فى أيامها المقبلات ؟ وماذا عند القدر من مكنون النعيم او الجحيم القلب الذى صير الحديث عن الحب شريعة من شرائع الوجود ؟! ..) .

اين بائع النسيان واين بائع السلوان ؟! واين من يوهمنى بأن تلك الزهرة لم تكن نفحة سماوية وانما كانت نفحة ارضية لا نصيب لأرجها العطر من روح الوجود ؟

لقد بدا قلبى يخمد من لفح اليأس وان دام هذا الحال فلن ترى فى احاديثى اليك غير التوجع للقلب الذى اضاعه تقلب القلب ؟ وما ذنبى عند تلك الروح ؟! .. ذنبى وذنوبى وعيبى وعيوبى أنى لم اظمهـــا بالافتضـــاح فى الحب ولم اسطر فى هواها مئات الصفحات كما صنعت مع ليلى المريضة فى العراق كانما كان مكتوبا على ان اقضى الدهر فى الهيام بالعيون العسلية والعيون السود عيون اهل القاهرة وعيون اهل بغداد ..

والله وحده هو الذى يعلم مواقع هواى ..

فلن اطيع تلك اللئيمة فى الترحيب بمآثم الافتضاح ..

وما الموجب لقتل الوقت والعافية فى تذكر القلوب الغوادر وفى دنيانا تكاليف تميد من أثقالها الجبال ؟! ما الموجب ؟! الموجب معروف

وهو الوثاق المسطور فى اللوح المحفوظ بالا تعيش روح الا مجذوبة الى روح ! ...) .

وفى تلك الرسالة موجات نفسية لطاف هى التى قضت بأن يتلئت القلب ويتسع القلب الى تلك الروح الظلوم ! .. وهناك عبارة نفيسة جدا .. فما هى ؟! .. يقول : (ماذا عند القدر من مكنون الجحيم أو النعيم للقلب الذى صير الحديث عن الحب شريعة من شرائع الوجود ؟) .

فما الذى نراه فى هذه العبارة الجميلة ؟ انه يرى أن قلبه المفتون هو الذى صير الحديث عن الحب شريعة من شرائع الوجود وهو معنى طريف لأمير العشاق الذى هداه الله الى عبادة الجمال !..

وعبارة (**أين بائع النسيان وأين بائع السلوان ؟!**)

صورة من تمنى المستحيل .. وهى من وثبات الخيال فما فى الدنيا تاجر يبيع النسيان أو السلوان لأمير العشاق الدكاترة زكى مبارك !! ..

***

كان الدكتور زكى يحب حبا عنيفا ساميا وكان يلتمس فى هذا الحب ينبوع الشعر وصفاء الروح فكتب أروع رسائل الحب والجمال من الهام حبه ووحى عذابه وبلائه فى العشق ! ..

وهذه الرسائل الغرامية قبسها من روحه ووجدانه ، فكانت اقباس وجدانية فى الحب والجمال وثروة نفيسة ولون جديد ممتع فى أدبنا العربى المعاصر وهى آية من آيات الرقة والبيان والشعر ! ..

ومن بين آثار الدكتور زكى مبارك الوجدانية (**رسائل مجنون سعاد**) تلك التى نشرها فى مجلة الصباح سنة ١٩٣٩ بقلم الدكتور بديع الزمان وهى رسائل غرامية ملتهبة تعكس روح الدكتور زكى الوالهة ونفسه العاشقة وقال الدكتور مبارك عن ظروف كتابتها :

(هناك كتاب لم يسبق له مثيل ولا نظير وهو (**رسائل مجنون سعاد**) تلك التى انشأها الدكتور بديع الزمان : اما ذلك الدكتور — وانا ذلك المجنون وانا ذلك البديع فقد كانت تلك الرسائل ترسل بطريقة سرية الى صاحب « الصباح » لأننى كنت من اكابر المفتشين بوزارة المعارف

ولم يجوز لرجل من اكابر المفتشين أن يتحدث عن الحب والجمال ! ..
بدات تلك الرسائل فى بغداد لم تكن الموحية ليلى البغدادية وانما كانت ليلى قاهرية رمت سهمها فاصمتنى وانا فى بغداد .. لقد اعتصرت فؤادى واودعته تلك الرسائل) ، ويقول فى موضع آخر أن مدينة المنصورة هى وطن سعاد وهى بنية لطيفة وصلت بقلبها قلبى . انها فنانة من الطراز الأول وعن امها ورثت معانى الحنان .. لو نشرت هذه الفتاة رسائلى اليها لكانت فضيحة تميد لها رواسى الجبال) .

وبعد فهذه الرسائل فى الحب والجمال هى لون فريد ورائع فى ادبنا العربى المعاصر .

● الفصــل الرابع

شاعرية زكى مبارك

لم تنسنى فتنة الدنيا وزينتهــا
ما فى شمائلك الغراء من فتن
اطوف بالحسن تصبينى بدائعه
كما يطوف معنى القلب بالدمن
فلا تثير مفــــانيه ونضــــــرته
فى ظل ذكراك غير الهموالحزن
آمنت بالحب لولا انت ما جمحت
منى الضلوع الى اهل ولا وطن

زكى مبارك

شــــاعرية زكى مبـــــارك :

يعتز الدكتور زكى مبارك بفنه ويفخر به ويضعه فى منزله سامية فالشاعر عنده ليس من البشـــر وانما ملك من السمـــاء يقول : الشاعر يطلب غاية مجهولة فى العالم المجهول وهو يكره ان تكون معشـــوقته انسانة هينة لينة يملك من سرائر جمالها ما يشاء حين يشاء .

(الشاعر هو ملك موكل بنقل الناس من ضلال الى هدى او من هدى الى ضلال) .

الشاعر هو جذوة من اللهب المقدس الذى يضطرم به الوجود ... هو طائر يرى الخوف فى آفاق الســـماء افضـــل من الأمان فى وهاد الأرض .

هذه هى خلاصة نظرة زكى مبارك الى طبيعة الشاعر فهو يجعلها طبيعة عالية سامية فالحقيقة حقيقة الكون والانسان هى غاية الشاعر العظمى التى يسعى اليها .

* * *

حينما قامت جماعة ابولو سنة ١٩٣٢ التى اسسها الدكتور احمد زكى ابو شادى كان زكى مبارك وعلى محمود طه وابراهيم ناجى وغيرهم اعضاء فى تلك المدرسة الشـــعرية المجددة وكان الدكتور زكى مبارك هو احد شـــعراء تلك المدرسة واحد المجددين الموهوبين فى الشـــعر العربى المعاصـــر وصدر اول ديوان للشاعر سنة ١٩٣٣ وكان مجموعة من القصائد والمقطوعات قيلت فى ظروف مختلفة وتضم اشعاره التى نظمها فى بداية حياته الأدبية ومعظمهـــا قصـــائد فى الحب والغـــزل

والجمال . وقد حافظ فيها على روح الشعر العربى ومتانة الأسلوب الفصيح ولكنها تمتاز بمرونة فى التعبير وحسن الصياغة ..

* * *

وقد ابتدأ زكى مبارك حياته الشعرية بنظم القصائد الطوال ثم رجع الى الاقلال والايجاز فى شعره بتأثيره صحبته للشيخ سيد المرصفى والشيخ محمد المهدى فى الازهر ومن أقدم ما نظم الشاعر قصيدة نظمها سنة ١٩١٣ وهو فى سن العشرين وقد عارض بها قصيدة شوقى :

مضنى وليس به حراك لكن يخف اذا رآك ..

يقول زكى مبارك فى قصيدته والتى أطلق عليها (عبادة الجمال) :

ان عزنى دهرى وكادت لى الليالى فى هواك ..
زودتها صبر الكريم وحلمه حتى اراك ..
واذا قضى رب الصبابة أن تصر على جفاك ..
وقضيت أيامى أسيرا لم أمتع بالفكاك ..
ثم انقضى أمد الحياة ولم أزود من لقاك ..
فالروح مرجعها اليك فهل يظللها رضاك ؟ ..

وقد عرض الدكتور زكى هذه القصيدة الرقيقة على شوقى بعد اعوام طوال فأثنى عليها أطيب الثناء .

* * *

ديوان ألحان الخلود :

صدر ديوان الحان الخلود سنة ١٩٤٧ فى فترة كان يعانى خلالها الدكتور زكى من أزمة نفسية عنيفة هى التى ادت الى مأساته اذ ترك وزارة المعارف واشتبك فى معارك ومساجلات عنيفة مع وزراء المعارف فأسرع بطبع شعره قبل أن يموت كما يقول ويقول ان ديوانه

يرد له شبابه وقد جاوز الخامسة والخمسون فهو عصـــــارة عواطف واحاسيس قطفتها وانا اذرع فضـــاء الله بين شاطىء المانش وشط العرب وما كنت اتوهم انى سأجتاز تلك الاقطار واننى سأعبر تلك البحار والأنهار وانى سأكون اخطر من السندباد) .

وزكى مبارك شـــاعر يبدع كل الابداع فى قصـــائد العاطفة والحب ونلمس فى شعره حرارة الابداع وصدق التجربة وقد قصر شعره على فن الغزل والتشبيب وديوان الحان الخلود اقباس وجدانية فى الحب والجمال تفصح عن سرائره الوجدانية وروحه العاشق !

وشعره شعر عاطفى صادر عن عاشق قوى العاطفة مشـــتعل الاحساس صادق الوجدان وقد طرق ابواب الخيال والموسيقى والتعبير فى شـــعره ويرجع هذا الى حـــرقة وجده وقوة عاطفته ويقول زكى مبارك (ان الجو الذى يثير الشـــاعرية فى صدرى هو الجو الحاد بالبرد أو القيظ أما الجو المعتدل فهو موسم خمود ولعل هذه الطبيعة هى السبب فى أن يتســـم أدبى بوسم العنف والجموح وقد علقت على هذا مرة بأنه يرجع الى انى ولدت فى شهر اغسطس وهو موسم طغيان النيل(١) والواقع أن الهدوء يزعجنى والضجيج الخارجى ينبه العواطف) .

وفى هذا الديوان نلمس ونرى زكى مبارك عاشـــقا واله القلب قوى العاطفة يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة والحنين .. وقوة العاطفة عنده هى التى منحت شعره الأصالة والجمال والابداع . وقد اودع شعره ذوب روحه وأودعه اشواقه وآلامه وأحلامه ..

ويقول ان الحزن يتموج ملتهبا فوق صفحات هذا الديوان .. وقد حدد زكى أبرز الخصائص لشعره فقال : (٢) :

* ان اشعارى تكاد تكون مقصـــــورة على فن واحد هو فن الغزل والتشبيب ، ولعل هذا يرجع الى طبيعة ذاتية قضت بأن أعيش للتغريد فوق أفنان الجمال .

---

(١) وفى آب تســالت صـــبابة ... لهـا (آب) فى دنيـــا الصبابة منزل

ولـدت مع الأعنـــاب والنيـــل ثائـر ... يجـــور بارجـاء البلاد فيعـدل

(٢) الحان الخلود ، ١٩٤٧ ، ص ٦ .

* الإهتمام بتشريح المعانى ، فقد أنظم فى المعنى الواحد عشـــرات من الأبيات ، وهذا يرجع الى نظرتى الفلسفية .

* النزعة الصوفية فأكثر القصائد فى التشبيب لم تكن لها موحيات من الجمال الانسانى ، وانما كانت موحياتها من الجمال الربانى :

وءن انت يــا ربى اجبنى فـــاننى

رايتك بين الحســـن والزهر والماء

* تدوين عواطف عزيزة على ، وهى عواطف ســـجلت بها وفائى لأصـــدقائى .

* ... دقة الأسلوب ، فهو يقوم على موازين ومن أبرز سمات شعر زكى مبارك احتوائه على صور شعرية رقيقة ومما يزيدها جمالا هو خلق الجو العام للقصيدة والى جانب الصور يستعمل وسائل تعبيرية أخرى أبرزها الايحاء والتشبيه ..

وهو فى مقدمة من امدتهم الطبيعة بالفطرة والاستعداد الشعرى الذى اخذ ســـبيله الى النمو بالدراســـة والثقافة .. ويحكم الناقد (ريتشاردز) على الشعر بالموازين الآتية(١) :

١ ــ الكأس التى يقدم فيها الشعر

٢ ــ طريقة الأداء

٣ ــ قيمة الاحساس أو الشعور أو التجربة التى أوحت القصيدة للشاعر

فماذا عند زكى مبارك فى الكأس التى يقوم فيها شعره ؟

أراد مثلا أن يعبر عن فلسفته فى الحياة فكتب هذا البيت الصغير

ما حيـــاة المـــرء الا لحظـــة

بين كاس الخـــد أو كاس الرضـــاب

وله قدرة فنية ممتازة فى التصـــرف فى الأداء وحسن الصياغة الشعرية واستعمال المادة اللفظية بحســـن التوزيع الموســـيقى فى هذا

---

(١) أبوللو ، مارس ١٩٣٣ .

البيت مثلا نجح الشاعر فى اختيار الالفاظ المناسبة واحسن توزيعها الشعرى والموسيقى يقول :

انت ورد فهب محبك شوكا

اترى الورد عاش من غير شوك ؟

ومن قصائده المبتكرة التى نلمس فيها العاطفة الصادقة وقوة الوجدان والابتكار فى أشكال التعبير عن معانى الحب قصيدة (غناء ليلة الميلاد) المتفردة بأصالة تصور تجربة حب عاشها الشاعر وعاناها يقول :

ياليلة الميلاد ..

يا ليلة الجلوة ..

انى على ميعاد ..

مع غادتى الحلوة ..

ثم ينقلنا الى جو شعرى عاطفى ساحر مع محبوبته فيقول :

نقطع الأيام ايام الغرام ..

فى خصام وعتاب وملام ..

ثم استهديك كاسا من سلام ..

فتساقينى احاديث الهيام ..

وشعر زكى مبارك شعر وجدانى كلاسيكى يتسم بالروح الرومانسية العاطفية المرهفة ..

وقد قلد الدكتور زكى الشاعر الفرنسى الكبير لامرتين فى وضع مقدمة لكل قصيدة يشرح بها موحيات القصيد كما فعل لامرتين فى (Les Méditations Poétiques)

راى النقاد فى شعره :

يرى المازنى أن ميزة زكى مبارك التى تبدو له وهى حسن السبك وجودة الصياغة .

ويقول(١) : (ولقد نسيت معانيه بعد طى الديوان ولم يبق فى نفسى منها اثر ولم يستقر فى ذاكرتى منها طيف ولكن الدكتور زكى مبارك اديب كبير له ابحاثه المشهورة وله فى ذلك فضل غير منكور ولا يزيد ان يكون شاعرا او لا يكون) .

فرد الدكتور زكى عليه قائلا (ان الشعر الذى يستخف به الاستاذ المازنى لدلالته على معان صغيرة هى العواطف هذا الشعر هو الدليل على اننا عشنا فى هذه الدنيا بقلوب الأحياء فكانت لنا لحظات عقل وايام جنون والعيش مزاج بين الوقار والطيش ومجموعة من التاملات والمهاترات) ويرى الدكتور محمد صبرى السربونى ان ديباجة زكى مبارك ديباجة بحترية فقال مبارك (انها كلمة يريد بها الثناء ولكننى عند نفسى اشعر من البحترى واشعر من جميع الشعراء) .

ويقول محمود تيمور عن شعر زكى مبارك(٢) (وشعر زكى مبارك يتميز باثنتين : فصاحة ودماثة فهو لين اللفظ والأسلوب متين النسج والقافية وفى معانيه العاطفية طراوة وعذوبة وليس يعوزه الطابع الموسيقى على الايقاع العربى المتوارث وكان هو يعتز بهذه الصفات فيما ينظم ويجدها حقيقة بأن تجعل منه اشعر الشعراء) ويرى الأستاذ حارث طه الراوى ان زكى مبارك شاعر وجدانى لا يعدو وأن يكون شعره فيض دموعه وبوح اشواقه وترانيم آلامه وآماله .

يقول احمد زكى ابو شادى(٣) أن شعر زكى مبارك يتسم بالحيوية والقوة والموسيقى الكلاسيكية فهو طراز مستقل بذاته ، وان كانت عليه ملامح الشعر المدرسى فى آخر عصوره وهو ثروة لأدبنا الحديث وان فيه لشواهد لا تحصى على براعة التصرف البيانى والطلاقة الجميلة الناطقة بطواعية اللغة فى يد محبها ، المتمكن منها ، اذا ما كان مبدعا موهوبا والقارىء لألحان الخلود لينعم بموسيقى وخيال وعاطفة وتصوف وجمال فى صور شتى وقد يسكب عبراته فى مواقف شجية مؤثرة وسيذكر فى لوعة (زكى مبارك) .

---

(١) البلاغ ، المازنى ، ١٩٣٤ .

(٢) محمود تيمور ، الهلال مايو ١٩٦٦ .

(٣) قضايا الشعر المعاصر ١٩٥٩ .

الوان من شـــعره :

شـــعر زكى مبارك صـــور من عواطفه ومرآة لنفســـيته القلقة وافصاح عن ســـرائره الوجدانية واشـــعاره تمثل تلك النفس الوالهة المرهفة العاشقة التى تغنى للحب والجمال فحياته هى قصيدة حب جميلة فيها عبق الورود وجمال العطور وانغام الموسيقا ! ..

ومن أرق قصائده العاطفية هذه القصيدة الجميلة (الغرام الجديد) ويقول عن هذا الغرام انه نفحة من نفحات القاهرة فى مطلع الربيع .. هو ثورة وجدانية تعتاد من يفيق من غفوة القلب حين يتنســـم أرواح الازاهير على ضفاف النيل يقول فيها(١) :

كيـــف انتهينـــــا ؟ اجبنـــى　　يا قلب كيف انتهينـــا .. ؟
ا للنعيـــم وصـــــلنا ؟　　ام فى الجحيـــم ثوينـــا . ؟

***

لقيتـــه ذات يـــــوم　　فى العصـــر عند الجزيره ..
والنيل سكران صاح .....　　مثـــل العيـــون الكســـيره ..

***

لقيـــت من لـــو دعـــانى　　الى الفـــداء فديتـــه ..
لقيـــت مـــن لـــو دعـــانى　　بعـــد المـــات اجبتـــه ..

***

لقيـــت فيـــه وجـــودى　　وكان بالصـــحو زال ..
فعـــدت نشـــوان حيـــا　　اعيش عيش الضـــلال ..

***

كان الفـــؤاد اســـتراح　　من فاتكـــات الشـــجون
فمـــن اليـــه اتـــاح　　كيـــد الهـــوى والفتـــون

***

---

(١) الحان الخلود ، ص ٢٨٨ .

افى ظـــلال الجـــزيره — وفى شـــعاب الزمـــالك
يهيـــم روحـــى ويشـــقى — ويـــلاه ممـــا هنـــالك

* * *

عنـــدى وفى ظـــل حـــبى — تحـــس روح الوجـــود
وفى .. ضـــريم غـــرامى — تـــرى شـــعاع الخـــلود

* * *

انا النجـــى القـــريب — مـــن القـــلوب الشـــوارد
انا الظـــلوم الحبيـــب — الى الصـــدور النـــواهد

* * *

عاشـــق الجمـــال :

كان الدكتور زكى مبارك يهيم بالجمال وكان شاعرا عاشقا يتنقل من روض الى روض يسعى وراء وحى الجمال .. وشاعر الحب والجمال كان قيثارة رقيقة تعزف اجمل وارق أغاريد الحب والســـحر والجمال والشعر ! ..

وهذه بعض اشعاره فى الحب والجمال :

يا قلب طـــالت شـــكاتك — من الخـــدود الأســـيله
فكيـــف ترجـــى نجـــاتك — مـــن العيـــون الكحيـــله

* * *

احب نـــور الضـــلال — فى ضـــافيات الغـــدائر
ويزدهينـــى الخبـــال — فى غافيـــات النواظـــر

* * *

يطــوف بالحســن روحى فى صــبحه والمســاء
فيجتنــى مــن شــذاه وشــوكه ما يشــاء

* * *

حســبتم هذه الدنيــا تضــيق برحبهــا عنهــا
فصــرتم كلمــا جئنــا نفــرتم جهــرة منــا
اســاتم اذ تبرتــم بهــذا المغــرم المضــنى
ولــو انصــفتمو قلتم اديب يعبــد الحســنا

* * *

ومن قصائد شاعر الحب والجمال الرقيقة قصيدته الوجدانية (غرام يوم الثلاثاء) ويقول ان هذه القصيدة من وحى روح غالية ، هل أسمى تلك الروح ؟ لن اسميها ولن اقول انها (بغوم) وان (الوا) فى الهتاف وهو التليفون فى لغتى مسروقة من حلق البلبل .. انها نسيت نجوانا وانا ما نســيت وكيف انسى وهى بلبالى فى صباحى ومسائى ؟

لقد كفرت بالعهد كفرا اثيما وما اعرف سببا لهذا الكفران .
هل نلتقى ؟

انا يائس يائس .. كان آخر التلاقى بملعب من ملاعب مصــر الجديدة وفيه جرى عتاب هو سبب هذا الفراق .. ان شارع رمسيس فى هليوبوليس يذكر جيدا كيف كنا ولعله تألم حين يعرف كيف صــرنا وقد غنى زكى مبارك تلك القصيدة بصوته فى محطة الاذاعة فغنى واطرب . وذكر عن موحية غرام يوم الثلاثاء ما اكرم دمعى وما اسخاه حين اسمع صوتها الجميل ..

ويقول ان هذه القصيدة تقهره على الغناء بعد نصــف الليل وهو اصلح الأوقات للغناء ، وبعد فهذه بعض مقاطع من تلك القصيدة وذلك الغرام لشاعر يوم الثلاثاء(١) .

---

(١) الحان الخلود ، ص ٢١٧ ، ١٩٤٧ .

يا ســاقى الراح هات الراح يا ســاقى
من نــور خــديك او من نار اشــواقى
واشــرب رحيق الهوى الفضاح يا ساقى
من نظــرتى لك فى ســاعات اشــراقى
يــا ليـــل يا ليـــلى يا ليـــل

* * *

مضـــت اسابيع لا القاك يا روحى
فكيف انت رعـــاك الحب يـــا روحى
مصـــر الجديدة مأوى حبنــــا الروحى
فارجـــع اليهـــا نعش روحـــا الى روح
يـــا ليـــل يـــا ليـــلى يـــا ليـــل

* * *

مصـــر الجـــديدة ايـــام الثـلاثاء
كانت مــلاعب أوطـــارى واهـــوائى
يـــا فـــاطر الحب فى يـــوم الثـــلاثاء
متى يعـــود لنـــا يـــوم الثـــلاثاء ؟

* * *

شــربت دمعى فلا كأس ولا ســـــاقى ؟
مضـــى نديمـــى وخـــلانى لأشـــواقى
يا ســـاقى الراح هات الدمع يا ســـاقى
دمعـــى هـــو الراح فاســـقينيه يا ساقى
يا ســـاقى الدمع بعد الراح يا ساقى
دمعى دم فترفق ايهـــا الســـــاقى .

* * *

مصـــر الجديـــدة دارى
والحـــب فيهـــا قـــرارى
لا تنس يـــا غـــدار
جميـــل هـــذي الـــدار

يا غـــرام الـــروح والروح فـــداك ..
اين نجـوى القلب فى عهد الصــفاء ؟ ..
احرق القلب شـــواظ من نـــواك ..
بالهـــوى قـل لـــى متى يـوم اللقاء ؟!

اين يا روح ليـــال سـلفت — واغاريدك يا صـــداح زادى ؟!
لا تقل تلك الليـــالى ذهبت — جرحها المشبوب باق فى فؤادى

هذه قصـــة غرام يوم الثلاثاء مع محبوبته الظلوم فى مصـــر الجديدة ! ..

بين زكى مبـــارك والخيام :

كان زكى مبارك خياميا كبيرا فهو شاعر عاشق يهيم بالحب والفن والجمال مع عمق الايمان وعمر الخيام ابيقورى المذهب واتباع ابيقور يقولون :

(هذه الحياة مليئة بالشرور والآثام تفيض غما وسقما واضطرابا ناله عنها بملذاتك واستعن عليها بكاســـك وطاســـك واله وتمتع واقض يومك بين الزهر والخمر والموسيقى والجمال غير آبه لما يكون) وكذلك فعل الخيام الى آخر نسمة من حياته .. ورغم ان زكى مبارك كان عاشـــقا مفتونا بالحب والجمال الا انه لم يله او يتمتع بالكأس والطاس عن فلسفة او عقيدة بل لظروف نفسية عنيفة سأفصلها فيما بعد ....(١) .

وكان زكى مبارك انسانا مؤمنا قوى العقيدة صـــافى الايمان .. راسخ اليقين وعاش ومات مؤمنا وكان مثل الخيام كثير التساؤلات عن سر الوجود وكنه الحياة وكان كالخيام عاشـــقا الجمال قد استبد بهما جحيم الهوى والعشق وتفوح من شعر كل منهما عطور المرأة وعشـــق الجمال ويتسم شعرهما بحرارة العاشق المدمن وصدق القلب المفتون بالحب والجمال ...

يقول الخيام فى مرارة العاشق المفتون(٢) :

---

(١) انظر فصل « نهاية المطاف » .
(٢) رامى ، رباعيات الخيام ، ١٩٦٢ .

اولى بهذا القلب ان يخفقــا ... وفى ضرام الحب أن يحرقــا
ما أضــيع اليوم الذى مر بى ... من غير أن اهوى وأن أعشقا

ويقول زكى مبارك(١) :

احب نــــور الضــــلال ... فى ضـــافيات الغـــدائر
ويزدهينـــى الخبـــال ... فى غافيـــات النواظـــر

ويقول الخيام من شعر رامى وقد استبد به الهوى :

القلب قد أضناه عشق الجمال ... والصـــدر قد ضاق بمالا يقال
يارب هل يرضيك هذا الضنى ... والماء ينســـاب أمامى زلال

ويقول الدكتور زكى مبارك :

الحســـن صــنع يديــك ... ابدعتـــــه انـــــت
به ســـموت اليـــك ... فعـــرفت من انـــت

ويقول شاعر مجهول فى نفس المعنى :

خلقت الجمـــال لنا فتنـــة ... وقلت لنـــا يا عبـــاد اتقـــوه
وانت جميـــل تحب الجمـــال ... فكيف عبـــادك لا يعشـــقوه

ويقول الخيام مستغفرا :

عبدك عاص أين منك الرضاء ... وقلبه داج فاين الصـــفاء
ان كانت الجنـــة مقصـــورة ... على المطيعين فاين العطـــاء

ويقول زكى مبارك تائبا :

قلبى وعقـــلى وروحـــى ... نســـائم من شـــذاك
فهل يكـــون ضـــلالى ... الا بقـــايا هـــداك

ويقول الخيام :

يا عالم الأســـرار علم اليقين ... يا كاشـــف الضر عن البائسين
يا قابل الأعـــذار فئـــنا الى ... ظلك فاقبـــل توبة التائبين

ويقول زكى مبارك :

ربـــاه كيـــف تـــرانى ... وكيـــف حـــالى عنـــدك
هل كنت فى كل حـــال ... الا فتـــاك وعبـــدك
الكون ، ما الكون قـــل لى ... يا مبـــدع الكائنـــات
هـــل كان الا مراحـــا ... لأنفس حـــائرات

---

(١) ألحان الخلود ، ١٩٤٧ ، الغرام الجديد .

● الفصــل الخامس

زكى مبارك العاشق

« لو شرب الصخر من رحيق الوجـود بعض ما شربت لتحول الى أوتار وقلوب فكيف أصمت والدنيا كلها تتارج من حــولى بانفاس الأزهـــار والرياحين ، ولى قلب يتشوف الى افنان الجمال تشوف الشمس الى أنداء .. الصباح ... » .

زكى مبارك

فلسفته فى الحب :

عاش شاعر الحب والجمال حياته كلها يهتف للحب ويغرد له اجمل الأغاريد وأعذبها .. وكان الهوى عنده شريعة وجدانية يؤمن بها ويستهين من أجلها بالمصاعب والأهوال ! ..

لقد طاب لشاعر الحب والجمـال ان يؤرخ هواه ويقص بلاءه فى الحب فصير الحديث عن الحب شريعة من شرائع الوجود ! حيث كانت كتاباته الوجدانية أقباسـا من روحه تفصح عن سرائره الوجدانية ! ..

وكان صادقا فى حبه غاية الصدق (لن ترى الدنيا ولو تحولت الى فردوس عاشقا أصدق منى) .

والدكتور زكى مبارك جذوة من الوجدان والعاطفة وهو مثل فريد للعاشق الصادق والمحب الأمين ، وقد فجر الحب ينابيع الشعر والجمال فى نفسه الوالهة وروحه العاشق ! .. ولم يستطع هذا القلب العاشق المفتون اخفاء وجده المشبوب ، وأشواقه العنيفة ، فسجلهـا فى صـدق وامانة وحرارة ! ..

ولقد كان لبلائه فى الهوى صور وتموجات نفسية لطاف فى صوره الشعرية وقد قضى دهره وهو مشغول بعواطف رقيقة وقلوب وارواح ! .. ان اغاريد هـذا الشـاعر الصـداح تنزل فى مرتبـة عالية من الشـعر والعشق ! ..

وقد قضى شاعر الحب والجمال عمره فى التغنى بهوى ليلاته ! .

(ولى فى مشارق الأرض ومغاربها قلوب وارواح ، اخشى عليها غدر الزمان ، وذلك اخطر ما افكر فيه فى ليالى الأعياد) .

وقد زاد فى اضرام عواطفه والهاب أحاسيسه انتقاله من هوى الى هوى ومن روض الى روض ! ..

وغنى هذا الشاعر العاشق أغاريده العذبة لأن عواطفه تعذبه وتضنيه ، فافتضح فى هواه ، وكانت أغاريده دافقة بالشعور الحى والحرارة الخصبة والجمال الرقيق لأنه قبسها من نار قلبه ونور وجدانه .. وكان زكى مبارك صادق العاطفة ، مرهف ، الحس ، رقيق القلب ، قوى الوجدان ، فكانت حياته سيمفونية حب رقيقة فيها الشعر والحنين والسهاد ...

وقد عرف الحب وسعد به سعادة روحية عميقة ملأت نفسه وفجرت ينابيع شاعريته الخصبة .. ولكن ما رأى شاعر الحب والجمال فى الحب ؟ ! .

يرسم زكى مبارك صورة ساحرة ورائعة للحب يقول فيها :

(الحب عاطفة نبيلة لا تعرف غير كرائم النفوس ، الحب لغة روحانية يفهمها القلب عن القلب ، وتنقلها الروح عن الروح ، وتسرى نشوتها فى الأفئدة سريان الصبا فى الغصن . الحب قبس من الصهباء فى كأس من الماس ، الحب لمحة من لمحات السحر الذى يفيض به الوجود فى ليلة قمراء ، الحب نغمة حلوة تناغى السرائر وتناجى القلوب ، الحب نعيم يلبس ثوب البؤس أو بؤس يلبس ثوب النعيم ، الحب عاطفة ساحقة لا يدرى الرجل أهى نعمة أم نقمة ولا يعلم أهى هدى أم ضلال انما يعرف انها كلمة سحرية تزلزل العزائم وتدك الجبال . الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج قلبين وانسجام نفسين . الحب هو أن تذوب القسوة فى كوثر الحنان وان تأنس الأسود الى الظباء ، الحب هو أن تصير قلبا شفافا تجرحه النظرة وتفتنه الخطرة ويأسره الدلال ، الحب هو أن تكون دنياك كلها ملكا لمن تحب . الحب هو أن تخاطر بالملك فى سبيل من تحب ..) .

هذه هى نظرة شاعر الحب والجمال الى عاطفة الحب .. لقد ظل حياته سادنا يغرد فوق أفنان الجمال .. وكتاباته الوجدانية تفصح عن سرائره وتشير الى انه كان عاشقا واله القلب مفتون الروح قوى العاطفة يتقلب على سعير الوجد ووهج العاطفة .. وقد ألهمه هذا الحب أدبا عاطفيا رائعا قبسه من نور روحه ونار وجدانه وفيه حرارة الشعور والأصالة الصادقة ..

وقلب زكى مبارك قلب عاشق مفتون يهيم بتذوق أطايب الوجود ويتشوف الى أفنان الجمال ...

(وما خفقت أرواح النسيم ولا برقت لوامع النجوم ولا هتف هاتف بالوجد فى صباح أو مساء الا حسبت ذلك لمحات من وميض قلبى) كأن العشق محنة أصيب بها قلبه العاشق الرقيق ، وقد طال بلائه بالهوى حتى صح أن نراه يرى الحب شريعة من شرائع الوجود ويجعل من الوجد بالحسان مروجا نتفيأ ظلالها حين يلفحنا الهجير فى صحراء الوجود ، وقد شغل خياله وأوهامه ولعه بتعقب الهوى والجمال اينما كانا ، ويتمثل الحسن فى كل روض وفى كل بقعة جميلة وفى كل نسمة رقيقة يقول : (أنا اليوم أتمثل الحسن فى كل مكان فما مشيت فى الطريق الا افترضت ان ثراه قد تعطر فى صباحه أو مسائه ببعض الأقدام اللطاف ، وما رأيت نافذة ترفرف عليها ستارة الا توهمت سكونه نجوى حبيبين ولا لاح نجم أو طلع بدر الا تذكرت أن هناك قلوبا تخفق طربا أو حزنا لمصابيح السماء ولا أشرق البدر الا طربت لمن شبهوا به أسيلات الخدود ، ولا اهتز غصن الا انتشيت لما يذكر به من رشيقات القدود ، ولا ترنم مزهر ولا عود الا تشوفت روحى الى ما توسوس به الأوتار من ذكريات الهوى والجمال ٠٠ فأنا أعيش فى دنيا من المعانى بعضها بهيج وبعضها حزين ، والحزن والابتهاج يتراوحان فى قلبى صباح مساء فما أدرى أشقى أنا أم سعيد ؟ !) ٠

وزكى مبارك فى كل ما كتبه يعانى ويحيا التجربة لانه عاش حياته عاشقا والها مغرقا فى حب متعطش ينضح حرارة وأصالة ، ورغم ما اتهم به من اغراقه فى الحسية ونعته بالأبيقورية الا أننا نرى أن معظم ما كتب تبرز فيه عاطفة الحب الروحية النبيلة ، ونراه يضع عاطفة الحب فى مستوى الحياة نفسها ٠٠٠ والجانب الروحى من حياة هذا الشاعر العاشق جانب عميق وأصيل ! ٠٠ ويكفى أنه مات وهو يهتف للحب فكان أصدق عاشق شهيد ! ٠٠

ولكن ما هى نوعية المرأة التى يفضلها زكى مبارك ؟ يقول (قضيت أكثر من عشرين سنة فى الدراسات الفلسفية والنفسية فالمرأة الرقيقة القلب لا تؤنسنى الا قليلا لأن عقلى أكبر من قلبى وأنا اشتهى المرأة اللئيمة التى يكون غرامى بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول ٠٠) ٠

ويقول ان قلبه صير الحديث عن الحب شريعة من شرائع الوجود وقد اختلف البعض حول زكى مبارك ، فقال قوم انه كاذب فى الحب ، وقال البعض الآخر انه صادق ٠ يقول هو (ان قال قوم انى كاذب فى الحب فقد صدقوا وان قال قوم انى صادق فى الحب فقد صدقوا فأنا كاذب فى تصوير ما أعانى من شقاء ٠ لأن الواقع يشهد أن الحب لم يشغلنى

عما أضطلع به فى حياتى الخصـــوصية والعمومية من أعباء ثقال ..
وأنا صادق فى تصوير ما أقاسى من لواعج وشجون لأن الواقع يشـــهد
أيضا أن حياتى لم تخل من التأثر بمكايد السحر والفتون .. كم تمنيت
أن أكون فى الحب من الكاذبين وكم تمنيت أن أكــون فى الحب من
الصادقين لو كان فى المقدور أن ينال الرجل ما يتمناه ! ..

بين زكى مبارك وقيس :

من هو الدكتور زكى مبارك ومن هو قيس ؟ !

هما عاشقان متيمان عانا الصبابة والشوق والوجد

ولكن من قيس ومن زكى مبارك ؟

قضى قيس عمره كله متيم بمحبوبة واحدة هى ليلى العامرية ..
فكان أمام الموحدين فى الحب ! .

وقضى زكى مبارك دهره فى التنقل من هوى الى هوى من روض الى
روض فكان مشركا بعقيدة التوحيــد فى الحب .. (كان قيس مجنونا
بليلى واحدة) ..

وكان زكى مبارك مجنونا بألف ليلى وليلى !

★★★

واغرم الدكتور زكى ذات مرة بالموازنة بينه وبين قيس بن الملوح
لـــا بينهما من وشائج قوية فكلاهما فى الهم واحد .. فماذا قال ؟ !

يوازن زكى مبارك بينه وبين مجنون ليلى فيقول : (١) .

(كان المجنون يقرأ صفحة واحدة من كتاب الوجود ، اما انا فاطالع
جميع الصحائف من أسفار الوجود ..

وهل أتيح للمجنون أن يهيم حول شواطىء النيل والسين وبردى
ودجلة والفرات ؟ هل أتيح للمجنون أن يشهد ليالى الجنون فى القاهره

---

(١) ليلى المريضة فى العراق ، جـ ٣ ، ١٩٣٩ .

وباريس وبغداد ؟ هل أتيح للمجنون أن يعانى من بلاء العقل ما أعانى ؟ ان المجنون كان يخاطب ليلاه فيقول : غزتنى جنود الحب من كل جانب — اذا حان من جند قفول أتى جند . أما أنا فلا أدرى من أخاطب : لأنى أصبحت وترا من أوتار القيثارة الوجدانية ولأن قلبى مشدود الى القوة الكهربائية التى تربط الوجود كله برباط وثيق ، كان قيس فى جنونه يدرك ان فى الدنيا انوارا وظلمات ، اما أنا فلا أعرف الفرق بين الأنوار والظلمات لأن الهوى محانى ومحا وجودى فلم أعد ادرك كيف يظلم الليل أو كيف يشرق الصباح ؟ وأنا مع هذا الخبال مسئول امام قوانين الوجود فأنا اعظم نكبة من قيس لأن بلاءه كان اخف من بلائى ، خرج قيس من دنيا العقل فاستراح .. وبقيت فى دنيا العقل فابتليت بأعنف فنون الجنون ؟ ..) .

★★★

وهو يصور بلائه فى دنياه لأنه عاشق ومتزوج فيقول (١) (وبلائى فى دنياى اعظم بلاء : لأنى متزوج وعاشق ، أنا ارى المرأة فى البيت وفى خارج البيت أراها حيثما توجهت لأن الله كتب أن آكون من الأشقياء فاذا دق التليفون فى المنزل تظن زوجتى أن جميع المحادثات التليفونية آتية من سعير الوجد فى الزمالك وحلوان ، واذا ذهبت الى باريس فهى تظن أنى ماض الى محادثة مرجريت ، واذا مضيت الى بغداد فهى تظن أنى ماض الى مغازلة ظمياء ، واذا تقلبت من مدينة الى مدينة لتأدية الواجبات الرسمية ظنتنى على ميعاد مع حسان الاسكندرية أو ملاح اسيوط ، فمن يفهم هذه المرأة أننى لا أريد غير فهم سرائر النساء لأقدم الى الأدب الوانا من الدراسات النفسية ! ..) .

وشاعر الحب والجمال لا يترك مناسبة دون ان يعلن هيامه بليلاته كعاشق مضن يتقلب على سعير الوجد والحنين وحياته سيمفونية جميلة مليئة بأنغام الوصال والحنين والعتاب ! .. وقد مر فى حياته العاطفية بظروف هجر وغدر صنعت بعض الفصول فى مأساة حياته الأخيرة .. يقول (ما الموجب لقتل الوقت والعافية فى تذكر القلوب الغوادر وفى دنيانا تكاليف تميد من أثقالها الجبال ؟ ! .

ما الموجب ؟ ! الموجب معروف وهو الوثاق المسطور فى اللوح المحفوظ بألا تعيش روح الا مجذوبة الى روح ! ..) .

---

(١) ليلى المريضة فى العراق ، جـ ٣ .

● الفصــل الســادس

غراميات زكى مبــارك :

اربــاه انقــذنى فــانت رميتنى

بقــلب على عهــد الاحبــاء بــكاء

احب سعير الوجد فارم حشاشتى

على جمــرات منه حمقــاء هوجــاء

احب شـــقائى فى الغــرام وانــه

لأروح من مطلولة الزهر شــجراء

ســـتذكرنى غيــد مــلاح أوانس

أطلن بلائى فى الغــرام واشــقائى

زكى مبـــارك

غراميات زكي مبارك

كانت لزكى مبارك غراميــات فى كل مكان حل فيه فقد كانت له غراميات فى باريس وبغداد والقاهرة والاسكندرية والمنصورة وسنتريس وقد قضى فى باريس خمس ســنوات كانت من اجمل ذكريات حياته وكانت له هناك جولات وصولات مع حسانها وله كلمة طريفة تقول :

(لو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس ٠٠٠٠٠) ومن غرامياته فى باريس نروى بعض مغامراته العاطفيه فى الفترة التى قضاها هناك والتى استغرقت خمس سنوات (١٩٢٧ — ١٩٣١) — حيث كان يطلب العلم هناك ولكن اعظم قصــة حب عاشها هناك هو غرامه مع مرجريت ٠٠٠٠

★★★

مرجــريت :

دخل الدكتور زكى مبــارك ذات صباح الى قهــوة الدوم فى حى « مونبارناس » فوجد سيدة تطالع سفر الوجود بعينين زرقاوين يندر أن يكون لهما شبيه أو مثيل وجلس بالقرب منها عســاه ينتهب منها نظرة أو نظرتين يستعين بهما على اتمام بعض الفصول فى كتابه (سحر العيون) وما هى الا دقائق حتى تلاحظا برفق ثم أشــــارت بأن يقترب فاقترب زكى مبارك منها ٠٠٠٠

ثم أدع الدكتور زكى بنفسه يروى بقية القصة فيقول :

(وبعد أن دار كأس الحديث نحو عشرين دقيقة عرفت انها من البغايا أعوذ بالله أمثل هذا الحسن يكون من نصيب الفجرة (الأوباش) ؟ أتكون هذه الحسناء الفاتنة شبيهة الشمس ينعم بضوئها من يشاء ولو كان من الخفافيش ؟ اتكون هذه التحفة الفنية الشبيهة بكرائم الأنهار ٠٠٠٠ يشرب منها البهائم ؟ الك يا رباه حكمة فى اذلال هذه الروائع الفنية التى زينت بها الوجود ؟ وهجمت على تلك السيدة بعنف فقالت :

(أنا امراة شقية خدعها شاب مثلك باسم الحب وكان ثمرة الحب طفلا هو اليوم بمدرسة (٠٠٠٠) وقد هجرنى الحبيب والد الطفل وتركنى وحدى اربيه وارعاه وأنا أتسول باسم الحب لأنفق على ذلك الطفل المسكين الى أن يظهر أبوه ٠٠٠ وما كدت أسمع هذا القول حتى دارت الأرض تحت قدمى ٠٠٠ ومن أين أنفق على هذه السيدة وعلى طفلها وليس لى من جريدة (**البلاغ**) ومن الدروس الخاصة (**الخصوصية**) الا مبلغ ضئيل من المال لا يزيد على ثلاثة آلاف من الفرنكات ؟ والحياة قاسية أشد القسوة على الغرباء فى باريس ؟ ثم نظرت فرأيت هذه المراة تعرض مشروعا نبيلا قد يرفع روحى بعد اسفاف وقالت فى استحياء : ان لغرفتى مفتاحين ، لك مفتاح ولى مفتاح فخذنى لنفسك وراقبنى كيف تشاء فان استطعت ان تشهد على ما يريب بعد اليوم فاقتلنى والمهم أيها السيد ان ينجو طفلى من الجهل والجوع ٠

وقد أنسى كل شىء ولكن لن أنسى طلعة (**موريس**) ٠ وسألنى الطفل : أين كنت ؟ فأخبرته انى توجهت الى الشرق لزيارة القاهرة وبغداد وبيروت واخترعت له اقاصيص تعجبه وتلهيه ٠٠٠٠٠

وفى تلك الليلة شعرت أن روحى ارتفع الى اجواز السماء وفرحت مرجريت بما صارت اليه من راحة البال وصفاء النفس بعد الهيام الأثيم بأحياء باريس ومضت تقترح ما تشاء من المغامرات فعلمتنى الرقص وطوفت بى على المكنونات من صناديق الليل ٠٠٠٠

ويفضل مرجريت عرفت من خبايا باريس ما لا يعرف الشياطين ولم تكتف بذلك بل نقلتنى الى (**روان**) و (**الهافر**) واطلعتنى على المستور من شواطىء (**المانش**) واقامت معى فى الضواحى النائية أسابيع ٠٠٠٠

والله وحده يعلم كيف عاشرت تلك الحسناء ٠ فلو انى قلت انى كنت فى حبها من الأطهار لما صدقني مخلوق واجمل ما نلت

منها قبلة شهية طبعتها على جبينى حين اخبرتها انى متأهل ولى ابناء وقد قهرتنى على قبول هدية من العطر الكريم لارسلها الى ابنتى او زوجتى وقد قبلت الهدية ثم ألقيتها خفية فى نهر السين ...

وكانت مرجريت متعبة الى ابعد الحدود قالت لى ذات يوم :

أنت يا دكتور معرض للسمنة لكثرة ما تشرب من البيرة ... كانت مرجريت ضجرة من حياة الفتون وكنت ضجرت حياة الفتون وكنا نشتهى أن نعرف معنى التصوف فى الحب وكيف لا نتصوف فى الحب وقلوبنا معمورة بحب الطفل العزيز موريس ؟ .

وبعد ان دام هذا النعيم النبيل خمسة عشر شهرا وصلت الى ما اريد من امتحانات مدرسة اللغات الشرقية ... واصررت على الرجوع الى أهلى وأبنائى ولم يكن بد من توديع مرجريت وموريس ... واى توديع ؟ .

كان من الواجب ان أرد المفتاح الى مرجريت فرفضت والدمع فى عينيها الزرقاوين وقالت :

احفظ المفتاح ... فقد تصل على حين غفلة الى باريس .

ذات يوم زار الدكتور زكى مبارك مصانع (ستروين) بصحبة مرجريت فوقفا ينظران الى فتاة رقيقة .. تطرق الحديد فبكت مرجريت لهذا المنظر وبكى معها الدكتور زكى مبارك وقالت مرجريت والدمع فى عينيها : هذه فتاة تستعد لتكون ربة بيت فهى تطرق الحديد لتجمع من الأموال ما يمكنها من أن تكون زوجة لرجل شريف مثل المسيو مبارك ....

ثم استغرقت فى البكاء والنشيج وبكى الدكتور زكى فى تلك اللحظة لبكاء مرجريت ....

وفى تلك اللحظة جذب يدها بعنف وقال :

« لن نفترق يا مرجريت .... فقالت : كيف .. ؟ فقال : سأنقلك الى مصر ان كان لى الى مصر معاد .... فقالت : ـ وماذا أصنع فى مصر ؟ هل ترانى أصلح لمعاونة مدام مبارك فى ترقيع الجوارب .. ؟ .. فقال الدكتور زكى : ـ ان مدام مبارك لا ترقع الجوارب ... فقالت : كيف تقول هذا وانت ابخل من اليهود ..

وضحكا ضحكا صنع بالدموع ما تصنع الشمس بآثار الغيث .

ويصور فى موضع آخر عواطفه نحو مرجريت فيقول :

« كنت اقول ان مرجريت اوت روحى وقلبى خمسة عشر شهرا وأمكنتنى أن أصير أبا كريما لطفل جميل وكنت أقول أن لمرجريت فضلا عظيما فى مرونة لسانى باللغة الفرنسية ... المرونة التى مكنتنى من أن أحاور هيئة الامتحان فى مدرسة اللغات الشرقية خمس ساعات وذلك مغنم ليس بالقليل ..

كنت أقول ان مرجريت هى التى عرفتنى بدقائق الحيـــاة فى باريس .. كنت أقول انى لم أحسن الأكل بالشوكة والسكين الا بفضل مرجريت » .

وعندما افترقا وعاد زكى مبارك الى القاهرة لم تنقطع الرسـائل بينهما يقول زكى مبارك (.. وكانت مرجريت تكتب الى كل أسـبوع خطابين وكانت تخاطبنى بالكاف وكنت أبخـل عليها بالمخاطبة بالكاف لأنى كنت أخشى أن يكون فى المخاطبة بالكاف ما يشهد بأنى كنت مع تلك المرأة على صلات غرامية (١) وكانت تقول ان بخلك على بالمخاطبة بالكاف يوحى الى أن أخفى رسائلك عن موريس وهى كل ما فى حياة هذا الطفل المسكين من عزاء ....

وكانت مرجريت تتحدث فى رسائلها عن أشياء دقيقة لا تذكر الا فى رسائل العشاق وكنت أتغافل عن تلك الأشياء حين أكتب الجواب وكان هذا يؤذيها أبلغ ايذاء فكانت تتهمنى بالقسوة والعنف والله وحده يعلم كيف كنت أسىء الأدب فى مراسلة مرجريت فأنا أعيش فى القاهرة وهى تعيش فى باريس ، أنا أحترس تخوفا من بطش خصومى ، وهى تترسل بلا تخوف لأنها تعيش بين قوم يرون صيانة الحب من الشرائع وهل تعلم مرجريت أن محبوبها الغالى يحيا فى القاهرة بلا ناصر ولا معين .. هل تعلم مرجريت انى لا أصلح أبدا لما صلح له فكتور كوزان الذى كان أعظم اسـتاذ للفلسفة فى باريس ولم تكن له زوجـة وانمـا كانت له خليلة تحرسه وترعاه ان مرجريت لاتفهم انى مصرى يعيش فى مدينة لها تقاليد غير تقاليد باريس .

ويقول فى موضع آخر :

---

(١) المخاطبة بالكاف تعبير عربى أصيل وهو يمائل Tutoiement فى الفرنسية .

(كانت مرجريت تقـدم الى كل أسـبوع كتابا من غرر المؤلفات الفرنسية لأرى كيف يفهم الرجال سر الحياة) .

ويقول (مرجريت .. اذكريني بالشعر يوم أموت ......) .

★★★

وهذه احدى الحسان الألمانيات التى وقع زكى مبارك فى غرامها أثناء دراسته فى باريس وقد تعرف عليها فى دروس المسيو (تونلا) أستاذ الأدب الألمانى بالسوربون وكانت دروس هذا الرجـل تستهويه كل الاستهواء فقد كانت تنقله الى آفاق من الفكر لا يصل اليها فى صحبة رجل سواه وفى هذه دروس عرف سيدة ألمانية لم تكن مع زوجها على وفاق وكانت فيما حدثته من شواعر برلين ويقول زكى مبارك (وكانت ملامحها وشمائلها تشهد بأنها على صلة وثيقة بشياطين الشعر الجميل ويظهر أن الزوجية قيد لا يستريح اليه بعض هذا النوع من الجنس اللطيف ولم يكن للشاعرة بد من رجل تشـكو اليه جهالة زوجها الغبى البليد فهدتها الفراسة الى أن أذنى أصلح الأذان للترحيب باغتياب الأغبياء والبلداء وكذلك اخـذت تصب فى أذنى شـكايات هى اعذب وأحلى من صهباء الرضاب .. كنت أعرف ان الغيبة من الكبائر وان السامع شريك القائل فى الاثم ولكنى نسيت الأدب مع الشرع لأن تلك الكبيرة كانت تساق الى اذنى فى لغة فرنسية ملحونة وانا أعبد اللحن فى اللغـة الفرنسية اذا صدر عن الألمانيات الملاح وهل فى الدنيا لغة أحلى وأعذب من لغة باريس حين تمضغها ظبيـة من برلين ؟ واتفق فى تلك الأيام انى كنت مشغول الفكر والقلب بدرس طوائف من الشعراء العشاق منهم ألفريد دى ميسيه وقد كتب فى تاريخ هواه عشرات من المؤلفات الجياد فحدثتنى النفس بأن أحج الى قبر ميسيه مع تلك الألمانية الحسناء لأذوق حلاوة النجوى فى رحاب ذلك (الشهيد) .....

وكذلك مضينا الى مقبرة بير لاشيز فى صباح يوم مطير لا يدفع غيومه الثقال غير ما فى قلوبنا من صفاء ثم يقول :

(وما هى الا لحظات حتى التفتت رفيقتى فرأت عينى مغرورقتين بالدمع ، ورأتنى لا أطيق الجواب من فرط الحزن والذهول فصـوبت الرفيقة بصرها الى ما صـوبت اليه بصرى فرأتنى أحدق فى لوحة رقمت فوقها هذه العبارة الصارخة ـ فرنسا تذكرى ـ وهى عبارة مسطورة فوق قبر رجل استشهد فى الدفاع عن الالزاس أيام حرب السبعين .

فقالت : وماذا يهمك من هذه العبارة ؟ فاجبت : اشتهى ان أوجه مثل هذه العبارة الى وطنى ....

★★★

ومن مغامراته العاطفية فى باريس تلك المغامرة الطريفة ... فى ذات صباح جلس الدكتور زكى مبارك فى قهوة الدوم فى حى مونبارناس (فرايت فتاة فصيحة العينين تجالس رجلا فانيا فاخذت اداعبها بنظراتى وكنت فتى فصيح العيون يرسل بعينيه اشارات وخطابات وبرقيات الى من يشاء ، وكانت الفتاة تفهم عنى فتعبس تارة وتبسم تارة وفقا لسياق الحديث ورآها ذلك الشيخ موزعة بين الابتسام والعبوس ، فسالها فلم تنكر ، فاشار الى أن اقترب فاقتربت فقال بلهجة صارمة ماذا تريد ؟ ... وقد أزعجنى السؤال ، وتخوفت العواقب ، فقد كنت فى كل أدوار شبابى أبغض الذهاب الى الشرطة ولو لتادية شهادة ، وتلطف الله عزت قدرته فستر عيوبى وأعفانى من ذل الاستجواب فى مراكز البوليس تباركت يا الهى وتعاليت فلولا لطفك لأذلتنى شماتة الأعداء ... وكنت فى تلك الساعة أتصور بشاعة الذهاب الى ادارة التحقيق فاضطربت وتلعثمت وأعاد الشيخ سؤاله : ماذا تريد ؟ خبرنى ماذا تريد ؟ فجمعت قواى وقلت : سيدى أنا شاب من الشعراء أنا من سلالة العباس بن الأحنف ؟

فهدأ الشيخ قليلا وقال : ومن العباس بن الأحنف ؟ . فأجبت : هو الذى يقول :

اتاذنون لصب فى زيارتكم
فعندكم شهوات السمع والبصر
لا يضمر السوء ان طال الجلوس به
عف الضمير ولكن فاسق النظر

وترجمت له البيتين ترجمة مقبولة فابتسم وقال :

ومعنى ذلك انك تحب ان ترى وجه هذه الفتاة وتسمع صوتها ؟ قلت ان سمح سيدى ....

فقال : Mais Vous Etes mal placé

ففهمت اشارته ودنوت فزاحمت بركبتى ركبتى الفتاة رباه : متى تعود أيامى ... ؟ !

وافهمنى الشيخ انه شاعر سويسرى وأنه لا يرجو من هذه الفتاة الا ان تكون مصدر الوحى .

وتلطف فقال انه يسمح لى بمصاحبتها حين اشاء ..... فقلت : عفوا يا سيدى فجيبى يعجز عن تكاليف الحب .... فقال : لك الحب وعلى التكاليف ....

فأهويت على يده فقبلتها قبلة ما سمحت بمثلها لشيوخى فى الأزهر الشريف .. وكانت فرصة عرفت فيها ان الغيرة لها حدود .. ولن أنسى ما حييت عبارات ذلك الشيخ الجليل فقد كان يسألنا بعد كل نزهة : ماذا صنعتم يا أطفالى ؟ ... فكنت أقول مثلا : رأينا بارك سان كلو وطربنا لجمال الطبيعة هناك فيقول : ثم ماذا ؟

فأجبت : ثم رجعنا ... فيقول فى ألم وسخرية : وهذا كل ما صنعتم ؟ .. وتفهم الفتاة ما يريد الشيخ فتقول - أؤكد لك يا مولاى ان المسيو مبارك ليس من العقلاء ..... وكان بدهشنى أن يستريح الشيخ لهذا التصريح فأمضى وأقص ما افترعنا من المغامرات .... رباه متى تعود ايامى ؟ ولم يدم هذا النعيم غير اربعة أشهر ثم سافر الشيخ والفتاة الى جنيف) .

★★★

وهذه ملهمة أخرى اسمها مادلين عرفها فى باريس وكانت بينهما قصة حب ويتحدث عنها فيقول :

(أتحدث عن روح لطيفة عرفتها فى باريس روح جميلة لها فى حياتى تاريخ وتواريخ كان اسمها مادلين فسميتها ليلى ودعتنى فى محطة ليون وارسلت لى برقية على الباخرة (شامبليون) ثم أخذت مادلين توالينى بالرسائل اللطاف وبلغ بها الوجد مبلغا قضى بأن تنظم الأشعار فى حبى حتى شاء هواها أن تزور القاهرة لترانى ... فلما لقيتنى قالت : متى نتزوج ؟ فقلت لها اننى متزوج ولى أبناء) .

★★★

ويذكر انه تعرف على فتاة غريبة الروح فى باريس وقد تركت دينها لتعتنق الاسلام بعد محاورات روحية عنيفة بينهما وقد أطلق عليها (ليلى المريضة فى باريس) .

وغير هذه قصص ومغامرات عاطفية عاشها فى باريس وسجلها بصدق وأمانة وحرارة حتى حق له ان يقول :

(لو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس) !

★★★

وكانت للدكتور زكى مبارك غراميات متعددة فى مصر وطن الهوى والجمال فكانت له محبوبات فى الزمالك ومصر الجديدة والمعادى وجاردن سيتى والمنصورة والاسكندرية وسنتريس .....

وفى الثغر الجميل فى الاسكندرية كانت له غراميات وأحباب .. وهذه قطعة وجدانية رفيعة ترسم صورة لاحدى محبوباته فى الثغر الجميل (غناء وغناء) فيها يصور مبلغ احساسه بالوحشة والاغتراب لغياب المحبوبة وهى تصوير لقلبه العاشق المفتون ويرحم الله أرباب القلوب ... يقول فى تلك القطعة الوجدانية الرقيقة ... « فى مكان يستبق اليه ضياء الشمس ونور القمر وهدير الأمواج وقفت انتظر وفاء بميعاد هو الميعاد » ...

« واقبلت الروح الملائكية فى سمة انسانية كما يطيب للملائكة ان تتشكل بصور الناس فى بعض الأحيان » .

« ودار حديث أعذب من رنين الكؤوس وارق من وسوسة الحلى فى لحظات الصفاء ثم دار عتاب كعتاب القلوب للعيون فماذا قلت وماذا قالت تلك الروح وقد أصغى البحر واستمع الوجود ؟ لو تجمع ما أثار البحر من عواطف على اختلاف الأجيال « ولو اعتصرت الحياة ما يجرى فى أعوادها من رحيق الحب لكان هذا وذاك دون ما أضفينا على الكون من بهجة النعيم ولو دعينا لأداء الزكاة عن تلك اللحظات لكان من القليل ان تقضى العمر فى شكران من قضت حكمته بأن يجعل الحب سيطرة روح الى روح وانجذاب روح الى روح » .

• كان ضجيج المدنية اضعف من أن يحجب سرار القلوب وكان القمر بفضل علياته أشرف من ان ينم عن خلوة حبيب لمحبوب فى شهر يونيه تقوم غمامة تحجب القمر فى لحظة لا تنتظر ظـلال السحاب فنفهم ان للحب والشعر آلهة كما تقول أساطير القدماء » ٠٠ « كانت الدنيا كلها فى يدى وكان هواى هو الهوى وزمانى هو الزمان وكانت لغة الوجد فوق الأصوات والحروف وهل يعرف احد ما لغة الأنفاس الحرار ؟ وكيف وما كانت اللغـات الا تعابير عما يجوز البوح به من سرائر الأرواح ؟ وأين اللغة التى تعبر فرضا بالحب فى تلك اللحظة الوجدانية ؟ أين أين ؟ • وهى لحظة ما ظفر بمثلها عاشق فى قديم ولا حديث ؟ هى زاد العمر كله فليتمرد الهجر كيف شـاء بعد ذلك الوصـــال ٠٠ لو مرت تلك اللحظة بالناس فى ماضيهم البعيد لظفرت اللغات بألفاظ وتعابير تفوق الوصف ولكان من السهل ان أشرح ما يوصى به (ذرع الرمل) على نغمات الموج فى صمت الليل ٠٠٠٠٠٠ ثم نفترق فمتى نلتقى يا روحا لا يحيا بدون روحى ؟ ٠٠ « للوجود كله غناء ولنا وحدنا غناء وروحك هو غريد البلبل وحفيف النسيم وهدير الموج وعربدة الكهرباء ثم نفترق وقـد تحيرنا بين النور الأحمر والأزرق وهذه اشارة لا يفهمها غير أسارى هذين النورين فى (دار الوجد والمجد) عليها أطيب التسليمات ٠٠٠ فمن فاته ان يعرف سر هيامى بوطنى فليقرأ هذه السطور بروحانية واخلاص ٠

• الاســــكندرية هى المثال المصـور لسرائر النعماء ومن لم يزر الاسكندرية فليس من حقه أن يزعم انه عاش لحظة من زمان ٠٠٠

• ولى فى الاسكندرية دار تشكو جفائى ولم أكن من الجافين دار اساورها بلا استئذان حين اريد كأنها دار الهوى فى سنتريس أو بغداد او باريس ٠

• فى الصبح قرات مقالا فى جريدة الأهرام عن ايطاليا بعد ثلاث سنين فتذكرت أنى عرفت تلك الروح فى اليوم الذى اعلنت فيه ايطاليا الحرب قبل ثلاث سنين وما ابعد الفرق بين ايطاليا وبينى ٠٠٠٠

• مرت بها موجات هزمتها ومرت بى موجات نصرتنى ؟ أفى الحق اننا لم نتعارف الا قبل ثلاث سنين ؟ » ٠

• انت يا جنية الشاطىء رفيقة روحى منذ ازمان وأميال وانت منای من الهوى قبل ان يتنفس صبح الوجود ٠٠ لابد من الاسكندرية فرح الأليف بالأليف يا مثال الحسن ومثال اللطف ويا ريحانة مطلولة فى صباح من

أصبحة آذار ٠٠٠٠، يا تلك الروح فى تلك المدينة تذكرى ثم تذكرى ٠٠ تذكرى (**سبعة أبحر**) فى لغة العراق و (**سبعة أرادب**) فى لغة السودان وتذكرى الأبيات التى أمليتها من لغة الفرنسيس والى اللقاء فى شباب الوجدان ٠٠٠٠ » ٠

ما رأيكم فى هذه العاطفة الجياشة ؟ الا تشمون عبير غامض أخاذ ٠٠ ارجعوا الى هذا القصيد السمفونى مرة أو مرتين أو مرات ثم اسألوا انفسكم : كيف لون هذه اللوحة الفنية تلوينا اخاذا قضت بأن نغيب فى نشوة علوية سامية ؟ ٠

★★★

وملهمة أخرى تعرف اليها فى الاسكندرية وعشقها عشقا مبرحا وأبدع الغناء وهذا الحب الجديد يصور حقبة من حياة الدكتور زكى مبارك عندما نشبت أوار الحرب العالمية الثانية فى نهاية سنة ١٩٣٩ فملأت هذه الملهمة فراغ حياته وألهمته أن يبدع صورا شعرية فريدة فى هذه المحنة العصيبة ٠٠

كتبت اليه هذه الملهمة خطابا تقول فيه انها مضت الى الاسكندرية لتصطاف وأنها تحب أن تراه هناك وفى وسط الحرب والغارات الجوية تزعج المصطافين أشد الازعاج أسرع الدكتور زكى فسافر وبحث عنها فى الشواطىء الى أن اهتدى اليها وهى تسبح فى مياه البحر بقوامها الرشيق ٠٠٠ فقضيا العصرية فى نزهات مختلفات وبعد المغرب أشار اليها ان يقضيا السهرة فى منزله ليسترها من ضجيج الجنود فى أوقات الشراب وقالت وهى تنصرف : لقد شعرت بسعادة عظيمة لقضاء الليل بالقرب منك وأرجو ان أظفر مرة ثانية بمثل هذا الحظ السعيد (رجعت الى الاسكندرية بعد أشهر والشتاء فى العنفوان ٠٠ رجعت وحدى فانقبض صدرى وشعرت بوحشة تزلزل القلب أعنف الزلزال ٠٠ وأخذت أسرى عن نفسى بمطالعة كتاب (**الأسمار والأحاديث**) وفيه نسخة مقيمة بمنزلى هناك ولكننى أفاجأ بالعواصف تثور من جميع الجوانب وتكاد تقتلع البيت فاطفىء النور وأفتح الشبابيك ـ لأرى كيف يكون هول الرعود والبروق والأمطار فى ظلام الليل ٠٠ والمكان نفسه موحش لأنها ليس فيه فكيف لا يوحش مع تلك الأهوال ٠٠ ؟ ٠

وكانت اخبار هذه الملهمة انقطعت عنه ثلاثين يوما مع انهما كانا يلتقيان فى جميع أيام الثلاثاء ٠

(لقد عشقت تلك العصفورة عشقا لم يسبق له مثال كان تلاقينا بمصر الجديدة وفي أيام الثلاثاء تلاقى شخوص تتحارب بالعيون ولكن التلاقى روحا الى روح لم يقع الا بمنزلى فى الاسكندرية بالقرب من هدير الامواج ... ان الأشواق الى تلك العصفورة يعتصر قلبى كيف كنت أعيش لو لم تنبت هذه الزهرة فى صحراء حياتى ؟ وكيف كنت أعيش لو لم تنبت هذه النجمة فى ظلماء وجودى ؟ .

★★★

وليلى المريضة فى الزمالك لها أحاديث وأحاديث لقد عشقها عشقا عنيفا مبرحا والهمته رسائل وجدانية رقيقة ... قبسها من روحه وأودعها أشواقه ومشاعره وعواطفه وتلك الرسائل قطعة من الأدب الوجدانى الرفيع ...

ونرى فى تلك الرسائل اللوعة المحرقة والعاطفة القوية ولكن من هى ليلى المريضة فى الزمالك ..... ؟ .

هل تكون شخصية خيالية ؟ هذا مستحيل .. فما يقضى شاعر عاشق مثل الدكتور زكى مبارك الأعوام الطوال فى التغنى بمحبوبة من صنع الخيال ؟ وهو قد روى لنا غرامة معها والليالى الساحرة التى كان يقضيها معها يقول :

(ما أجمل تلك الليالى القمراء وقد قال أخوها : احب أن أقضى معكما السهرة لأرى كيف يتناجى العاشقان فى الليلة القمراء ...

كان ذلك بعد لحظات قضيناها فى (مدينة الملاهى) ان تلك الشقية تحبنى الى حد الجنون أهلا وسهلا ....) .

وليلى المريضة فى الزمالك كانت فتاة حسناء ولكنها ليست زوزو حمدى الحكيم كما يذهب البعض ، لأن كل الوقائع والأسانيد تنفى ان تكون هى ، وتنفى أيضا أن تكون هى ملهمة قصيدة « الاطلال » لناجى ولكن لظروف ما حدثت قطيعة بينهما وافترقا بعد غرامهما العنيف وذكر انهما افترقا لأنها لئيمة لا تحفظ العهد وقد اوحت هذه القطيعة الى قلم الدكتور زكى رسائل وجدانية رقيقة هى صور شعرية لونت بالشعر والفلسفة والكبرياء ...

وهذه مناجاة حارة لمحبوبته الظلوم يقول عنها :

(كنت أتشهى أن أرى النور المتوهج فى جبينها المشرق كنت أتشهى أن أقضى معها سهرة فى زورق يترنح فوق أمواج النيل كنت أتشهى أن أخاصرها فى بساتين الجيزة الفيحاء) ....

« كنت أتشهى أن نهيم على وجوهنا فى حى القصر العالى الذى يسميه الجهلاء (جاردن سيتى) .. كنت أتشهى أن أرى معها البيت الذى كنا اصطفيناه بحدائق القبة . كنت أتشهى ان أهصر فوديها بحى الزيتون .. كنت اتشهى أن نغرق معا فى النيل عند القناطر الخيرية ولكن من الذى يدرك كل ما يتمناه ؟

« أنا أعيش بروح سماوية وهى تعيش بروح أرضية ، مع انها والله حورية نزلت الينا من الفردوس » ....

« ان ليلاى بالزمالك لا تعقل ، لأنها حسناء ، والحسن يغرى بالجنون .... سأحارب ليلاى بالزمالك .. سأحاربها بقلمى ، كما حاربت انجلترا بقلمى . وأنا رجل يحارب الظلم فى جميع الأشكال) .

وهذه هى الرسائل النفيسة التى استوحاها من الفراق وقد قبسها من نار قلبه ونور وجدانه ونرى فيها حرقة الوجد وصدق العاطفة وقوة الوجدان والحسرات فى هذه الرسائل حسرات شاعر عاشق خلق ليكون أميرا للعشاق .....

وهو فى تلك الرسائل الوجدانية عاشق متأجج العاطفة يبكى حبه ويخشع أمام ذكريات الهوى والغرام ؟

وقد كتب تلك الرسائل سنة ١٩٣٨ الى ليلى المريضة فى الزمالك بعد القطيعة التى حدثت بينهما بعد عودته من العراق .

أولى رسائله العاطفية الى ليلى المريضة فى الزمالك يقول فيها : (١)

« ما كنت أظن أن الدنيا ستصل الى هذا الحد من الاقفار والايحاش ، ما كنت أظن أن تفسد الدنيا حتى أحبس نفسى عن رؤية الزمالك أربعة أسابيع بعد أن طال اغترابى فى العراق ، واشتقت اليك والى الزمالك أشد اشتياق ..... كان الوهم يحدثنى بأن الأرض سترقص تحت

---

(١) زكى مبارك ، نوفمبر ١٩٣٨ .

قدميك حين تسمعين بقدومي ، كنت أتوهم أني سأموت مقتولا بأريج الأزهار في قصرك المنيف ، كنت أحسب أن حسابي سيطول على ما قدمت وما أخرت ، وأن العتاب سيقتل الليالي المطلولة حين نلتقي فما الذي وقع من كل ما توهمت وحسبت وظننت ؟ (لينك تعرفين يا سيدتي ما صنع الدهر بقلبي ! ...

« ليتك تعرفين أني لم أعد ضاحكا بساما على نحو ما كنت في الليالي الخوالي ! .. كان هواك يا غادره ينير الدنيا أمام روحي » .....

« كنا نلهو ونلعب ، وكانت الدنيا من حولنا تلهو وتلعب وكان للقمر رقصات تميد لها راسيات الجبال من الرفق والحنان .... » .

« فمن يعيد تلك الأيام السوالف ؟ من يعيدها لأرى بعيني جبينك المشرق وهو يتوهج ويتألق ؟ من يعيدها ، يا ليلى ، من يعيدها يا روح القلب الذى شرده الزمان ! ....

اسمعى يا ليلى سأزور الزمالك بعد أسبوع أو أسبوعين ، فان دار رأسك من حيث لا تحتسبين فاعرفي أن روحا شفافا يزور ذلك الحي الجميل ، ولن يكون ذلك الروح غير روحي المشرد الذى أشـــقاه الغرام بالملاح .

اسمعى يا ليلى اسمعى ستطوف بالدنيا قلوب وأرواح ، ويبقى فى عالم الخلود قلبي وروحي ... لن يكون لك أثر في الوجود الا بفضل العاشق الذى تكوين فؤاده بنارك الحامية .

ستفنى محلة الزمالك ، ويبقى ما قلت فى عروس الزمالك اصنعى ما شاء لك الغدر والجحود ، ولكن تذكرى أن غضب الحب سيحل عليك ، وسيذلك الهوى فتسألين عنى بعد حين ! استغفر الحب .

فما اتمنى الا ان تعيشى بخير وعافيـــة ، وأن تظلى ريحانة مطلولة تبسم للشروق والغروب ، وتطالع الدنيا بالنضرة والنعيم .... احبك يا ليلى ، أحبك يا غادرة ، وأحب من أجلك جميع الملاح ...

وسلام الحب على الجدائل المعطرة التي كانت ذكراها تؤنس وحشتى فى أيام الاغتراب وسبحان من لو شاء لأرضانى عنك وأرضاك عنى ...) .

هذه هى رسالته الأولى الى ليلاه المريضة فى الزمالك وهى عتاب واستثارة لقلبها وروحها الظلوم ....

وفى رسالته الثانية الى ليلاه فى الزمالك نرى تموجات نفسية ووجدانية فهو فى تلك الرسالة يثور تارة ويعتب تارة ويترفق تارة ثم يعود بعد التمرد الى معبد الحب والجمال طائعا وكيف لا وهو شاعر الحب والجمال وفى تلك الرسالة الى ليلاه صور شعرية رائعة واقباس وجدانية متميزة بأصالة فريدة يقول فى تلك الرسالة الى تلك الحسناء الظلوم :

« لم اكن أعرف أن ليلى التى نقلت قلبها من مكان الى مكان ، وعلمتها كيف تناجى النجوم ، وتصافح الأزاهير ، وتباغم البلابل ، وتسامر الأحلام ، وتراود الأمانى ، لم أكن أعرف أن هذه الانسانة الظلوم ستسقينى أكواب العلقم بعد ان سقيتها أكواب الشهد .....

أنا الذى جعلتك ريحانة الدنيا وأنس الوجود أنا صاحب الفضل ، يا ليلى ، ولولاى لكنت زهرة مجهولة من أزهار الصحراء ...

ولكن أين جزائى ؟ أين جزاء العاشق المهجور الذى صار حظه أشد سوادا من قطع الليل ؟

كل حظى أن أتلقى خطابا فيه خصلة من الشعر أتذكر بها سواد حظى فى غرامى ... كل حظى أن أصبح وأمسى مبلبل الخاطر ، مقروح الكبد ، مفطور القلب .

سارجع اليك يا ليلاى ، سأنتقل من مصر الجديدة الى الزمالك فى سبيل البحث عن سرائر الروح الانسانية ... وسترضين عنى يا شيقة لأحترق فى كوثر الوصال .

ولكن ما هو الوصال ، هو أن تكشفى الحجاب عن قلبك الغادر لأرى ما فى الوجود من حقائق وأباطيل .

أحبك يا ليلى أحبك يا ليلاى أحب النار التى تصهر قلبى .

★★★

وفى الرسالة الثالثة الى ليلاه فى الزمالك عتاب رقيق لربة هواه وفيها نداء العاشق لعودة الفه ومن تأمل هذه الرسالة نجد لوعة العاشق الهيمان من فراق المحبوبة ودلالها ٠٠٠٠ ونرى فى تلك الرسالة عذوبة الصدق وفيها موجات وجدانية وليلى المريضة فى الزمالك احدى الحسان الفاتنات المثقفات وهى خليقة بأن يشقى بها هذا الشقاء وقد أطال فى رسالته الحديث عن بلائه فى الحب وكيف لا يشقى بالحب من ظل يهتف له طيلة عمره ؟ ثم نقرأ هذه الرسالة التى قبسها من روحه وهى غاية فى القوة البيانية ٠ وقد استوحاها من تجنى ربة هواه ٠٠ آمنت بالله وكفرت بالحب ٠٠ ويطيب لزكى مبارك أن يقول انه سلا عن الحب ولكنه يعود الى معبد الحب والجمال وهذا حال من هداه الله الى عبادة الجمال ٠٠ وهذه هى الرسالة الوجدانية الثالثة الى ليلى المريضة فى الزمالك يقول : (١) ٠

« لا تسأل كيف كنا عاشقين الى خريف سنة ١٩٣٧ ؟ كنا عاشقين ٠٠٠٠ وما أسعد العشاق ! ٠٠

كنا نعرف أطايب الخلوات على شواطىء النيل ٠٠٠ كان قلب ليلى أصغر من قلبى ولكنها مع ذلك كانت تملأ قلبى ، وهو قلب يرضى بالقليل فى بعض الأحيان ٠

وكنت أتلقى القليل من عطف ليلى بالحمد والثناء ٠٠٠ والذوق كل الذوق ان تفرح بالقليل من الملاح ٠٠ كانت ليلى تعد وتخلف ، وكنت أرى اخلافها من الدلال وكنت أروضها بنفسى على الاخلاف ، لأنى كنت احب أن أخلق منها دمية روحانية أعاقر فى محياها كؤوس النبل والصفاء ٠٠٠٠

وكان ما أردت وأراد الحب العذرى حينا من الزمان أردنا مرة أن نؤلف رواية ٠٠ فهل ألفنا الرواية ؟ ٠٠ ليتنا ألفنا الرواية ٠٠٠ آه من ليلى ومن زمانى !

« ودامت دنيانا فى قبض وبسط ، وبؤس ونعيم ، الى مساء يوم الثامن عشر من الشهر التاسع سنة ١٩٣٧ ٠٠ ففى ذلك المساء تفضلت ليلى فدعتنى الى تناول العشاء لتمنحنى القبلة الموعودة قبل رحيلى الى العراق ٠

وكانت لحظة من الحياة لن أنساها ماحييت ، وان كدرتها ليلى بعد ذلك .... أحبك يا ليلى ، أحبك لتلك اللحظة التى بلبلت نجوم السماء .. احبك يا ليلى وان صيرت حياتى بؤسا فى بؤس ، وشقاء فى شقاء ... أحبك يا صغيرة القلب ، ويا ضعيفة العقل ، ويا قليلة الوفاء .

« وفى اليوم التالى رحلت الى بغداد واطياف الزمالك تؤنس روحى ..... ثم سمعت ليلاى فى الزمالك أنى تعرفت الى ليلى المريضة فى العراق فماذا صنعت الحمقاء ؟ أرادت أن تنتقم منى ففتحت أبواب قصرها للواغلين ..... من أدعياء الأدب والبيان .

« اما بعد فقد انتهى ما بينى وبين ليلى المريضة فى الزمالك ، وقد حرمت على نفسى رؤية الزمالك الى أن أموت فحدثونى يا رفاقى عن أضواء الزمالك وأيام الزمالك وليالى الزمالك .

« انتهى حلم الحب ، وانتهت أيام الزمالك ، وانقضت ليالى الزمالك

فأين السبيل الى الرجاء ، بل أين السبيل الى اليأس ؟

أحبك يا غادة الزمالك ، احبك يا غادره ، واعشق ضلالى فى هواك النبيل وهواك الأثيم ....

« ليلاى ، ليلاى ما زال روحى الظامىء يحوم على وردك النمير ، فارحمى الطائر الذى يرفرف حول حماك فى السحر والضحى والأصيل ، ويخفق بقلبه وجناحيه كلما لذعه الشوق الى صهباء الرضاب .

أنا مشتاق الى الكوثر الممنوع الذى كانت قطراته تسكر روحى وتعقر فؤادى .. أنا مشتاق الى النار التى كوت كبدى ، فمتى أواجه تلك النار العصوف ؟

ليلى ، ليلاى التى خرجت من حماها كما خرج آدم من الفردوس ، ليلاى أجيبى .. مضت أعوام وأنا أتلقى منك تحية رمضان ، فأين تحية رمضان ؟ .

ان الناس يذكرون موتاهم فى هذه الأيام يا معبودتى ، وأنا قتيل الهوى ، فمن يذكرنى اذا صدفت عنى ؟

انا أنتظر الجزاء الحق على وفائى واخلاص فان لم تفعلى وستفعلين .. فودعى دنيا الرفق والحنان ليلى ، ليلاى .... الى صدرى يا عروس الزمالك الى صدرى يا جارة النيل الى صدر العاشق الوفى الأمين .

هذا هو غرامه مع ليلى المريضة فى الزمالك . وقلبه يتموج وهو يذكرها بهواه معها فينتقل من حال الى أحوال ... ينتقل من الرضا الى الغضب ومن الوعد الى الوعيد ثم أخيرا يناديها لتعود الى فردوس الحب فيعودا عاشقين وما اسعد العشاق ! .

★★★

وفى المنصورة وطن الشعر والجمال كانت له غراميات ومحبوبات واصطاد هناك بلطية منصورية فقد دخل المنصورة ذات صباح وكانت اول مرة يرى فيها المنصورة وكان يشعر بمتاعب وجدانية أثقل من رواسى الجبال ثم جلس على الشط (وأطلقت العنان لروحى وقلبى وعينى كان ذلك والنهر المبارك فى طغيان والعبور بين المنصورة وطلخا يحتاج الى سباح ماهر كالذى كنته فى مطلع شبابى فقد عبرت النيل مرة من روض الفرج الى وردان جلست على الشط أمام قهوة ثم حضر أحد باعة السمك وعرض بلطية بضة صاحية كأنها فتاة عذراء .....

وكان فطورا شهيا لا يظفر الجائع بمثله الا فى القليل من الأحايين وبعد أعوام كانت لى فى المنصورة بلطية جديدة لم تكن سمكة ، وانما كانت فتاة أوحت الى قلبى أطايب المعانى لقد ماتت هذه الفتاة .. ماتت فى قلبى وان كانت لا تزال تتمتع بنسيم الحياة ومن مات فى قلبى فلا يجوز له ان يتوهم أنه من الأحياء ان كان لتلك الفتاة هوى يشغلها عنى فانا عنها مشغول بألوف وألوف من الأهواء ... ولكن برغم هذا التجنى أشعر من حين الى حين بثورة فى صدرى تشابه ثورة البراكين ... أيكون معنى هذا اننى لن أتوب من حب هذه اللعوب ؟ وماذا يبقى فى الحياة ان تبت من حب تلك الفتاة ؟

★★★

وهناك روح لطيف عرفها زكى مبارك قبل سفره الى باريس يقول عن تلك الروح انها (غربتنى فى حياتى وصيرتنى شقيا فى حياتى .... وعتابى على تلك الروح لن ينقضى الى آخر الزمان .. وما الموجب للعتاب ؟

كان يجب أن تودعني وانا ذاهب الى باريس فى شهر يونيه من سنة ١٩٢٧ فأخلفت الميعاد .

هل أنسى تلك الروح ؟

انها تدعونى لمساهرتها ومسامرتها حين أريد ولكننى لا أريد فقد صيرت قلبى نيرانا فى نيران ...

لقد عشقت تلك الروح عشقا لا يتصوره الخيال ... انا أحب ان انسى ولكن أين بائع النسيان ؟ ان دار الهوى عدت عليها العوادى فحولتها الى أطلال ولا يسرى عن همومى الا الشعور بأنها فى عافية ..

رسائل مجنون سعاد :

وقد أحب الدكتور زكى مبارك ملهمة حسناء من مدينة المنصورة وطن الشعر والجمال ألهمته رسائل وجدانية رفيعة فى الحب والعشق هى رسائل مجنون سعاد التى نشرها فى الصباح سنة ١٩٣٩ وقد احب تلك الحسناء الساحرة حبا قويا مبرحا وكان فى حبها من المتيمين ويصفها الدكتور زكى فيقول عنها انها بنت لطيفة وصلت بقلبها قلبى يقول انها فنانة من الطراز الأول وعن أمها ورثت معانى الحنان وقد دام الغرام بينهما فترة كانت من أجمل الفترات فى حياة زكى مبارك العاطفية ثم حدثت القطيعة بينهما فعرف مبارك السهاد والحنين والدموع وألهمه ذلك الغرام العنيف رسائل غرامية ملتهبة تعكس روحه الوالهة ونفسه العاشقة وقلبه المفتون وقد لونت تلك الرسائل بالوان من الشعر والفلسفة والدموع والكبرياء يتحدث زكى مبارك عن ظروف كتابة تلك الرسائل الغرامية فيقول : (هناك كتاب لم يسبق له مثيل ولا نظير وهو (رسائل مجنون سعاد) تلك التى أنشأها الدكتور بديع الزمان : أما ذلك الدكتور ـ وأنا ذلك المجنون وأنا ذلك البديع ـ فقد كانت تلك الرسائل ترسل بطريقة سرية الى صاحب الصباح لاننى كنت من اكابر المفتشين بوزارة المعارف ولا يجوز لرجل من أكابر المفتشين ان يتحدث عن الحب والجمال بدأت تلك الرسائل فى بغداد لم تكن الموحية ليلى البغدادية وانما كانت ليلى قاهرية رمت سهمها فاصمتنى وأنا فى بغداد لقد اعتصرت فؤادى وأودعته تلك الرسائل العاطفية الرفيعة نرى الدكتور زكى يتحدث فى عدة مواضع عن انه طبيب ابدان ... لا طبيب ارواح والدكتور زكى طبيب أرواح ، وان غضب فلان وفلان وهو طبيب ليلى المريضة فى العراق ... وفى تلك الرسائل

نلاحظ انه يجعل محبوبته سعاد من أسيوط والواقع أن سعاد هي من مدينة المنصورة التى استطاعت بسحرها ودلالها أن تملك قلب الدكتور زكي مبارك وتستبيه وتجعله فى حبها من الوالهين ٠٠ وهذه هي بعض رسائله العاطفية الملتهبة الى محبوبته سعاد وقد قال الدكتور زكي عن تلك الرسائل أنها رسائل تصور أعنف مأساة غرامية فى العصر الحديث ٠٠٠

وهذه رسالة فيها عتاب ودموع ومناجاة الى سعاد يقول فيها (١)٠٠

(اليك أرجع يا سعاد وما كنت أحسب أننى سأرجع اليك أرجع يا سعاد بعد عامين من أعوام الصدود وبعد أعوام من الأهوال وكان تجافينا محنة قاسية يا سعاد وكانت أيامى بعد التجافى أيام بؤس ألم تعلمى بما وقع للمحب المسكين فى مستشفى الملك ؟ لقد فسد ما بينى وبين رؤسائى أقبح الفساد وتطلعت نفسى الى الأستاذية بكلية الطب فى جامعة الاسكندرية ثم وقفت العوائق دون ما تسامت اليه نفسى لأنى فيما يقال لا أصلح لأمثال هذه الشؤون والحق أنى أصلح لاعاظم الواجبات ولكن تصدنى قلة الحيلة فى التقرب الى من يملكون زمام الأمور فى وزارة المعارف وهم قد علموا أنى افتضحت بهوى الغادة التى تقيم بشارع الحمراء فى أسيوط ٠٠٠ وكان فى نيتى أن اتخذ من هواك سنادا لحياتى ٠٠٠ كان فى نيتى أن أنقلك الى القاهرة لنعيش عروسين فى مصر الجديدة أو حدائق القبة أو الزيتون ولكنى خشيت الا تملكى من القناعة ما أملك فأنا طبيب فقير وان تظاهرت بالغنى والثراء والفتاة التى ترضى بالقليل لم تخلق بعد لان عمار القلوب لا ينسجم مع خراب الجيوب ٠٠٠ فى قلبى ثروة عظيمة من العطف وهى عزيمتى ثروة هائلة من الرجولة وفى روحى كنوز من المعانى فالى من أقدم هذه الثروات المعنوية يا سعاد ؟ ٠٠٠ أفى الحق أن كنوز المعانى ليست عند اهل مصر الا سرابا يخدع الظمآن ؟ ٠٠٠ ان صح ذلك فما الذى يقهرنى على التعلق بهواك وهو لم يكن الا سرابا فى سراب ؟ ٠٠٠

وفى رسالة أخرى يداعبها ويصف دلالها وبرودها وقلبه يحترق شوقا ولهفة اليها يقول : محبوبتى الغالية نسيت أن أتحدث عن رسائلك الأولى بعد الصدود الذى دام عامين تقولين انك افتقدتنى ولم تجدينى يوم عيد الميلاد ميلاد سعاد ٠٠٠ ؟ وتقولين انك ولدت مع الربيع ٠٠ انت يا سعاد ولدت مع الربيع ؟ ٠٠ آمنت بالله ٠٠ لقد

---

(١) الصباح : زكي مبارك رسائل مجنون سعاد ، ٧ ابريل سنة ١٩٣٩ ٠

كنت أظن أنك ولدت فى الليلة التى تفصل بين الخريف والشتاء ... وما الذى فيك من شمائل الربيع ؟ ... فى الربيع أزهار ورياحين وفى الربيع أغان وألحان وفى الربيع تعطف القلوب على القلوب فهل يجد قلبى فى هذه الأيام نغمة روحانية ليصدق أنك ولدت مع الربيع ؟... أنت ولدت مع الربيع يا سعاد ؟ ... ومتى ولدت ثلوج الشمال ان صح ما تدعين ؟ ... الربيع يعرف البلادة والغباوة والحمق وانت بليدة وغبية وحمقاء ... فيك من الربيع معنى واحد هو قوامك الفينان .. فهل أنت كما عهدت يوم التقينا بنادى القلم سنة ١٩٣٥ ؟ .. وهل أستطيع أن أكاثر بك الدنيا حين أراك ثانية بالقاهرة ؟ ... وهل أستطيع أن أنظم الشعر ولو مرة فى التسبيح بقوامك الفينان ؟ ... أنا طبيب جاهل والطبيب الجاهل يدرس الأجسام قبل أن يدرس الأرواح ... لو كنت شاعرا لأهديت الى جسمك الفانى نفثة من نفثات الخلود ... اعذرينى فأنا طبيب جاهل والحمد لله والحب على نعمة الجهل .. وفى رسالة تالية عنيفة يقول فيها : (محبوبتى الغالية هل تذكرين انى تحدثت فى الرسالة الماضية عن قوامك الفينان ؟ ... لقد نسيت ان أقول أن لك مع ذلك شطحات روحانية تشبه شطحات أفروديت .. ومن هى أفروديت ؟ .. أنت أجهل من أن أتحدث اليك عن هذه الدقائق الروحية ...

ثم يبعث اليها رسالة فيها استثارة لقلبها الظلوم وفى تلك الرسالة يحاول الدكتور زكى ان يثير غيرتها لشركه فى الحب بحديثه عن غرام له مع محبوبة أخرى ليثير ربة هواه الظلوم فتعود الى معبد حبه طائعة وفى الرسالة يحاول زكى مبارك أن يدعى أنه سلا حبه وسلا محبوبته سعاد المنصورية يقول فى تلك الرسالة (١) :

(محبوبتى الغالية عليك وعلى جميع بنات حواء غضية الحب .. كنت ليلة الأمس فى السهرة التى أقامها نادى (...) وكانت سهرة حضرها نحو عشرين من بنات حواء وكان فيهن فتاة تشبه سعاد وكانت تجلس أمها مع الحيزبون فتقدمت اليها وقلت : — بونسوار سعاد ... وهجمت على يدها فقبلتها بشوق وعنف ثم علمت بعد لحظة ان اسمها سعاد وأمسينا رفيقين ولم أتركها الا بعد أن وصلت الى بيتها بسلام فما رأيك فى هذا الحب الجديد ... أتغارين ؟ ... اشربى ما شئت من عباب النيل عند خزان أسوان ... أنت تغارين يا سعاد ؟ ... ان الغيرة لها معان لا تعرفها الثلوج ... ويقول فى رسالة أخرى : (محبوبتى الغالية أنا اليوم على صلات وثيقة بسعاد الجديدة فماذا

---

(١) أبريل ١٩٣٩ / الصباح / رسائل مجنون سعاد .

ترين ؟ ... ولد الحب فى لحظة واحدة كما ولدت أفروديت على شاطىء المحيط وسعاد الجديدة لها مزايا كمزاياك فماذا ترين ؟ ... حدثينى ماذا ترين ؟ فأنا أشتهى أن أعيش ... ثم يعترف زكى مبارك بانهيار مقاومته لسحر سعاد المريضة فى المنصورة فيرفع الراية البيضاء ويعود طائعا الى معبد الحب والى حمى محبوبته سعاد القديمة فيقول وقد تحطم صموده أمام سحر سعاد بعد أن أدرك انه لا حب الا حبها ولا وداد الا ودها بعد أن سأم من الهوى المزيف (محبوبتى أنا اليوم سعيد بفضل الحب المزيف فكيف لو ظفرت بالحب الصحيح ؟ كل هوى دون هواك ضلال فى ضلال وخداع فى خداع سأظل فى هواى الى أن ترحمينى من هواى) ثم يتحدث اليها عن غرامه الجديد الذى ولد مع الربيع وسعاد قد ولدت مع الربيع يقول : (سعاد : أنت ولدت مع الربيع ؟ .. ربما كان ذلك فقد ولد غرامى الجديد مع الربيع ؟ ومع الربيع ولدت آلامى وأحزانى ومع الربيع الجديد ودعت هواى القديم ياويح من يستشفى من الغرام القديم بغرام جديد ... ثم يحس زكى مبارك بلوعة الفراق وبحنينه ولهفته الى سعاد : ربة هواه الظلوم والتى جعلته يبكى ويتألم ويسهد بعد أن كان فارس الغرام الذى أخضع العديد من القلوب الغوادر فعادت اليه طائعة الى حماه ولكن سعاد كان غرامه معها تجربة عاطفية فريدة وتميز غرامه معها بتموجات نفسية متباينة فمن استثارة الى غضب ومن وعيد الى وعيد ومن حنين ولهفة ودموع الى وصال ولقاء وغرام ملتهب ... وفى هذه الرسالة يصور حزنه ولوعته وحنينه الى سعاد يقول : (سعاد قضيت الليلة فى حزن موجع ولم يخرجنى من بلواى الا انشاد قول العباس بن الأحنف :

ما أرانى الا سأهجر من ليس يرانى أقوى على الهجران
ملنى واثقى بحسن اخائى ما أضر الأخاء بالانسان

فأنت تهجريننى ظالمة لانك تثقين بأنى مملوك خاضع مطيع يرجع اليك باشارة حين تشائين .. وأنا والله مملوك خاضع فما تمثلت قوامك الفينان الا ضاع رشدى وطار صوابى ليتنى أعرف كيف ابتليت بهذه اللوثة الأرضية ؟ .. ليتنى أعرف كيف عجزت عن رفع روحى الى الآفاق السماوية ... خلقت لنفسى محبوبة جديدة لأسلم من هواك .. ولكن لم أفلح فحدثينى ماذا أصنع ؟ .. حدثينى ماذا أصنع ؟ .. حدثينى .. وفى الرسالة الطريفة التالية تظهر خفة ظل زكى مبارك وفكاهته الحلوة وهو يصر دائما على انه طبيب أبدان ... والحقيقة أيها العشاق انه طبيب للقلوب العاشقة فهو طبيب وشاعر وعاشق ولم يأخذ الدكتوراه من القصر العينى ولكنه أخذ الدكتوراه من سعاد المريضة فى المنصورة والتى تشهد له فيها انه أمير للعشاق وانه من أعظم أطباء الأرواح

والقول ما قالت سعاد ... وقد علل زكى مبارك لسعاد مقدرته البيانية وجمال أسلوبه ورقتـه وعلل لها الوثبـات الوجدانيـات التى تقرأهـا سعاد فى رسائله اليها فى هذه الرسالة الطريفة يقول (١) :

« سـعاد : أبتسمت وأنـا اطالع خطابك الذى وصـل فى صـباح اليوم .. ابتسمت لانك تقولين ان فى رسائلى وثبات وجدانية تنقلنى الى صفوف العباقرة من أهل البيان ، والحق انى أصبحت أثق بقـدرتى على التعبير الجميل ولكنى لا أعرف كيف وصلت الى هذه المقدرة البيانية فقد كنت من المتخلفين فى الانشـاء يوم كنت تلميذا بالسعيدية على أيامها وعلى الجيزة أطيب التحيات ... والدراسة فى كلية الطب كانت بالانجليزية فلم يكن هنـاك ما يساعد على التفوق فى اللغة العربية فما الذى أوصل الى عقلى هذه الأقباس من ضياء الأدب والبيان ؟ ... لذلك أسباب يا محبوبتى الغالية أفصلها بعض التفصيل فى هذا الخطاب ... كان نظام الجامعة المصرية فى سنة ١٩٢٥ يوجب على طلبة الطب أن يقضوا سـنة فى كليـة العلوم وكانت لا تزال بقصر الزعفران وكانت كلية الآداب فى ذلك العهد تقيم فى قصر الزعفران وفى ربيع سنة١٩٢٦ قامت معركة حول آراء الدكتور طه حسين فى الشعر الجاهلى وكانت جريدة البـلاغ وجريدة الكوكب توجهان اليـه أعنف الهجوم وأشـنع التجريح فكانت تلك المعارك فرصة تنبه فيها طلبـة كليـة العلوم الى ما يقع فى كلية الآداب وكنت أتسلل من وقت الى وقت لسماع محاضرات طه حسين فصح عندى أن الأدب قد يخلق لصاحبه مكانة فى المجتمع وان كانت نسبته الى العلم أضعف من أن توضع فى الميزان فالعلم فى جملته حقائق والأدب فى جملته اباطيل الا أن كان على نحـو ما أكتب اليك يا سعاد وانما احترست هذا الاحتراس لئـلا يضـاف أدبى الى التزييف وهو من فيض القلب والوجدان وكنت أظن أن انتقالى من قصر الزعفران الى القصر العينى سيقطع صلتى بالحياة الأدبية ولكن شـاء حسن الحظ أن أكون عضوا فى اتحاد الجامعة المصرية وانما كان ذلك من حسن الحظ لأن مندوبى كلية الآداب كانوا يغروننى بالحرص على فصاحة القلم واللسـان فقد كان يوكل اليهم تحرير محاضر الجلسـات وكانوا أسبق منا الى الخوض فى المناوشات الكلامية .. الأدب سخيف يا سعاد ولكنه مع ذلك شائق وجذاب (بالجيم لا بالكاف) وقد تفوقت فى كليـة الآداب على سـائر الكليـات بفضل الثرثرة وتزويق الكلام وزخرفة المعانى ، والمعانى تزخرف كمـا تزخرف الألفاظ وهذه الفكرة من مبتكرات الطبيب الولهان ...

---

(١) الصباح : رسائل مجنون سعاد ، ٢١ أبريل ١٩٣٩

ثم يبث زكى مبارك نجواه الى سعاد محبوبته فى المنصورة ويصور لها أشواقه وحنينه ويصور غرامه الزائف مع سعاد الجديدة التى آمل أن يجد فى حبها السلوى والنسيان ... ولكن هيهات فهو لا يحب الا سعاد ولا يهوى الا سعاد بنت المنصورة ثم يقص لها بعض ما حدث له مع سعاد محبوبته الجديدة فيقول :

(سعاد : هل استطيع أن ابثك اليوم بعض ما أعانى ؟ .. كنت حدثتك أنى تعلقت بهوى فتاة اسمها سعاد وكنت أتوهم أنى أتداوى من الحب بالحب كما يتداوى شارب الخمر بالخمر وهو علاج شرعه مجنون ليلى رحمه الله ورحم ليلاه ... فما الذى جنيت من سعاد الجديدة ؟ ... لم أجن غير مرارة الخيبة وظلمات اليأس .. ماذا أقول ؟ ... ان قلبى يتمزق كلما تصورت ما حدث فى بعض ليال قضيتها فى صحبة تلك الجميلة الرعناء .. جميلة ؟ .. جميلة ؟ .. نعم جميلة جميلة جميلة .. ولكن أى جمال .. هو جمال الصور والتماثيل لا جمال الأرواح والقلوب .. تقيم هذه الرعناء فى ( ) بمنزل رقيق الحواشى فله حديقة غناء تزدان بمجموعة نفيسة من غرائب الأزهار والرياحين وفيها أبراج لأنواع من الطيور الصادحات وفى ابهاء المنزل أطايب من روائع الفنون وفيه مكتبة عامرة بنوادر المؤلفات العربية والفرنسية وفيه مقصف تأوى اليه أحاسيس القلوب حين تشاء ولكنى .. ولكن ماذا أريد أن أقول ؟ .. ان هذه الرعناء تملك من أسباب النضرة والنعيم ما ينقل العاشق الى رحاب الفراديس ولكن .. ولكن ماذا أريد أن أقول ؟ .. أقول ان هذه الجميلة الفتانة الخلابة مريضة بداء عضال هو الغرام بالنكتة المصرية .. والنكتة يا محبوبتى من أطايب فنون الحديث ولكن النكتة المصرية بالذات تحتاج الى ذكاء وهذه الفتاة محرومة من الذكاء الذى يمكنها من عرض النكتة المصرية عرضا يخلب الأذواق .. أتدرين لماذا تحرص هذه الرعناء على النكتة المصرية ؟ .. انما تحرص على النكتة لأنها سمعت ان أم كلثوم تجيد التنكيت .. وأم كلثوم أميرة الطرب بلا جدال واظنها تعرف كما أعرف ان النكتة من خصائص الروح المصرى ولكن يجب حمايتها من الابتذال ولا سيما حينما تجرى على ألسنة الملاح .. أصبحت أبغض سعاد الجديدة أقبح البغض فحولها صواحب رقيعات يتقربن الى قلبها الأجوف بالتنكيت الأحمق المرذول .. ليتك تعرفين كيف خاب املى فى هذه الحسناء يا سعاد ؟ .. لهذه المخلوقة لحظات من الوفاق والايناس ولها أحيانا شمائل من عذوبة الروح ولكنها كالمجنون الذى يثور جنونه من وقت الى وقت فينتقل من العقل الى الخبال بلا استئذان وانا يا محبوبتى أحتمل كل شىء الا الخروج على قواعد الذوق لأن الله صاغ

قلبى صياغة دقيقة جدا وأخشى أن يكون لذلك تأثير فى مستقبل حياتى فقد أصبحت أعامل المرضى بأساليب مختلفات وفقا لما يملكون من عناصر الذوق ولولا بقية من العقل لقتلت كل من أصادف من المرضى الذين يتقربون الى بالحذلقة فى اختراع النكت والمطايبات وما خلق الله أسخف ممن يتظرفون وهم ثقلاء ·· أفتينى يا سعاد أفتينى فأنا أحب أن يكون اليك الفصل فى هذه القضية ·· أترين أن أهجر هذه الرعناء ؟ ·· قد تحملك الغيرة على دعوتى الى هجر تلك الرعناء ولكن ذلك مستحيل ما دمت بعيدة عنى فأنا بصراحة لا أستطيع الحياة بلا حب وكيف أحيا بلا حب وبين ضلوعى ذلك القلب الذى تعرفين ؟ ·· هل ترين أن أحتمل سخف تلك الفتاة فى التنكيت ؟ ·· حدثينى ماذا ترين ·· اترين أن أحتمل سخف تلك الفتاة وأقول : (حفت الجنة بالمكاره ؟ ··) أنا مجذوب الى هذه الفتاة بجواذب من الكهرباء ولكنها سخيفة فحدثينى ماذا أصنع ؟ ··

وفى رسالة تالية يصور محنته ·· وكيف جنى عليه الصدق وكيف جرت صراحته عليه صنوف المتاعب والآلام من الرجال ومن الملاح ·· ويصور بلائه فى عشقه لتلك الحسناء الظلوم يقول : (لم يصل جوابك ياسعاد فما الذى وقع ·· ؟ ·· أنا أعرف ذنبى ·· أعرف أنى كنت مثال النزق والطيش حين حدثتك عن سرائر قلبى ·· والمجنون المخبول هو الذى يخاطب النساء بأساليب لا خداع فيها ولا رياء ·· أنا أستأهل التأديب يا سعاد فقد أردت أن أرفع عن الحياة أوزار التلفيق والتزوير والتضليل وكان جزائى أن أشرب العلقم من أيدى من عاملتهم بالصراحة والطهارة والاخلاص ·· لقد عاملت الرجال بالصراحة فخيبوا أملى فكيف جاز أن أصارح النساء بعد التجارب التى اكتوت بها يداى ؟ ·· كان يجب أن أموت مقتولا بالعشق لأظفر منك بنظرة عطف يا سفيهة ·· أنت امرأة ؟ ·· أنت امرأة يا سعاد ؟ ·· أنت كتلة من الصخر الأسود الأصم الذى لا يبتسم لأنداء الصباح ·· باسم الحب المزور المكذوب يصل الى قلبك من يشاء وباسم الحب الصادق الصحيح أشرب من يديك كأس الموت ·· غضبة الله عليك وعلى جميع بنات حواء قلبى ·· لطف الله بك وهداك ··

وفى رسالة أخرى يصور مصير حبه الصادق وكيف كان جزاء صدقه واخلاصه فى حبه يقول معاتبا محبوبته :

« سعاد : أؤكد لك أنى غير غضبان من سكوتك الأثيم وكيف اغضب وانا أعرف أن الحب لعب فى لعب وخداع فى خداع ·· لا يؤذينى الا شىء واحد هو الشعور بذهاب الصدق من هذا الوجود ·· ومعنى

ذلك ان أفهم مقهورا أن النوازع الوجدانية لم تكن الا اضاليل واحابيل .. معنى ذلك يا شقية أن احول أدبي وذكائي الى وجهة جديدة من الخبل والمكر والرياء .. معنى ذلك أن أصير مخلوقا حيوانيا لا يعرف غير الفتك والافتراس وسأتأدب بالأدب الذى تلقيته على يديك الكريمتين فأفعل بأسراب الظبـاء ما يفعل الذئب الجـائع بقطعان النعاج .. أنـا بعد اليوم مخلوق لا قلب له ولا ضمير ولا وجدان سأكون أحمق الناس وان عرفت حسن الأدب بعد الذى عانيت من غدر الملاح ..

ثم نختتم تلك الأقباس الوجدانية فى الحب الجمال بتلك الرسالة الغرامية الملتهبة التى يعاتب فيها الدكتور زكى مبارك محبوبته الظلوم سعاد التى تمعن فى الدلال وآه ثم آه من دلال الملاح .. وقد بلغ وجده بسعاد مبلغا عظيما فعرف الدموع والسهاد والحنين وتقلب على سعير الوجد حتى بلغ به وجده أن أعلن لهـا أنه لم يبق له الا أمل واحـد هو الحب او الموت .. وزكى مبارك العاشق يتمنى دائما ان يتردى فى هاوية الحب وأن يحترق فى كوثر الوصـال مع ربـة هواه سعاد .. وهذه المحبوبة الحسناء كانت فيما يبدو باردة العاطفة وهى تتظاهر ببرودة العـاطفة أمام فارس الغرام لتريه كيف يطيب سهر الليالى فى السهاد والحنين والدموع .. ولتذيقه أكواب الصاب والعلقم بعد أن كان الفارس الذى لا يبـارى وتنجح سـعاد فى ذلك . فيرفع زكى مبـارك راية الاستسلام ويذوب صموده .. وتنهار مقاومته وكبرياءه فيطلب العودة الى حمى سعاد المريضة فى المنصورة ليعودا عاشقين وما أسعد العشاق وهذا حال الدكاترة زكى مبارك .. وفى تلك الرسـالة الملتهبة لشاعر الحب والجمال أقباس وجدانية تفصح عن سرائر روحية وتموجات نفسية لذلك الروح العاشـق اللطيف يقول فى رسـالة الوداع الى سعاد (١) :

(عرفت شيئا من طباعك يا لئيمة فأنت تحبين أن تكونى فيلسوفة على حسابى ومن أجل هذا أطلت الكلام فى تفصـيل الرذائل والفضائل وبيان المقبول والمردود من أخلاق الناس .. كان خطابك الأخير تحفة من الوجهة الخلقية ولكنه كان خفيف الوزن من الناحية الروحيـة .. والفتاة التى تحدث محبوبها عن الأخلاق وتسكت عن الحب هى فتاة زودها المجتمع بزاد من الرياء .. انا فى هذه اللحظات أحيا حياة شقية سوداء لان روحى يعيش بلا رفيق ولا أنيس وقد بقيت يدى من العبث الذى يجريه المشرط فى كل صباح .. وهل يرضينى أن يسعد الناس

---

(١) الصباح : رسائل مجنون سعاد ، ٥ مايو سنة ١٩٣٩ .

بيدى وأشقى بنفسى .. كانت يدى بالأمس بلسما شافيا لرجل برح به الداء وقد تأوه آهة الارتيـاح وجرت على لسانه دعوات تمثل فيهـا العطف والشكران وأنا داويت روحك مرات ومرات يا سعاد ولم اظفر منك بكلمة ثناء فهل تدرين ما الذى وقع بعد أن خرجت من غرفة العمليات سارعت الى معطفى أفتش فيه عن بريد أسيوط فوجدت رسائلك كلها خاليـة من الروح .. ألا تذكرين يا سـعاد ؟ .. ألا تذكرين أنـنى أستجديت منك كلمة واحدة فلم ينفع الاستجداء ؟ .. استجديتك كلمة حبيبى فلم تجودى بها يا بخيلة وظلت خطاباتك كلها مفتتحة بهذا التعبير المملول : (حضرة الطبيب النطاسى ..) نطاسى ؟ .. وهى كلمة تقولينها كما يقولها سائر الناس وهى كلمة عديمة المعنى والمدلول .. أنا حزين يا سعاد والحزن مرض لا يدرس فى كلية الطب وليس له أطباء فيما علمت .. فأين الوجه الذى يعدى روحى بالجذل والفرح والابتهاج ؟ .. أين ؟ .. أين ؟ .. فقد طال بالحزن بلائى ؟ .. الى ين أذهب بهمومى يا سعاد ؟ .. لو كنت من الشـعراء لقتلت حزنى بالغنـاء .. ولو كنت من الصوفية لدفنت حزنى فى تربة الوجد مع الصـابرين فى جيش الخلاص ولكنى وا أسفاه شاب مفتون بمخلوقة صيغ جسمها من النور وصيغ روحها من الظلام .. فأين المفر من أحزانى ؟ .. وبمن أستنجد ؟ .. والى من أتوجه ؟ .. والى أين أصير وفوق صدرى شجون لا تحملها الجبال ؟ .. لم يبق الا أمل واحـــد يا سعاد هو الحب أو الموت .. أما الموت فهو مطلب سهل المنال لأنى أتوقع فى كل يوم أن أستشهد فى سبيل الواجب .. أما الحب فهو الغاية التى لا أصل اليها الا بعد أن أحترق فى سعير الوجود .. وأنا سائر فى طريق الوصول الى تلك الغاية المشبوبة بأرواح الرجال فاطمئنى على محبوبك الغالى يا سعاد فلن اموت قبل ان اشرب تلك الكأس .. أمثلى يخلق الأمل الكاذب فى هوى مخلوقة سخيفة لا تميز بين الزائف والصحيح من جواهر القلوب .. أيموت مثلى وجدا بانسانة جادت عليها المقـادير بمالا تستحق حين وهبتها عينين نجلاوين وحين أضـفت على جسـمها الفينـان تهاويل السـحر والفتون ؟ .. سـنلتقى باذن الهوى يا سـعاد وسـترين كيف يكون العتاب .. أنا أشعر بأنى فوق قمة تشرف على هاوية الحب .. فمتى اتردى فى تلك الهاوية ؟ .. ومتى أحترق فى كوثر الوصـال ؟ .. أنا حزين يا سعاد .. حزين على الشباب المضيع فى هواك .. حزين على الوقت المضيع فى تدبيج هذه الرسـائل الطوال .. حزين على العمر الذى أنفق منه بلا حسـاب فى التغريد فوق افنان الجمال .. أستجديك للمرة الأولى بعد الألف كلمـة (حبيبى) فخطيها مرة واحدة لأعرف أنى اخاطب انسانة ولدت مع الربيع ولم تولد مع ثلوج الشمال .. وتذكرى الحكمة التى تقول : الرحمة فوق العدل ..) .

هذه هى قصة غرام الدكتور زكى مبارك مع سعاد التى الهمته هذه الثروة النفسية من الرسائل العاطفية الملتهبة ·· وكان الدكتور زكى يزور سعاد فى بيتها فكانت أمها تقول لسعاد : الم أقل لك ان الدكتور هافف على قلبى ·· وقد اوحى اليه هذا الحب بما فيه من عذاب ودموع وحنين ووصال أقباس وجدانية رفيعة تفصح عن سرائره الوجدانية ، وتنم عن روحه العاشق اللطيف فكانت رسائل مجنون سعاد تصور كما يقول اعنف مأساة غرامية فى العصر الحديث . وقيل ان سعاد شاعرة جميلة كان يخاطبها بقوله : « يا جمال الجمال » وقد اصدرت ديوانا شعريا كانت فيه اصداء احلامها وعواطفها نحو زكى مبارك وناجى وغيرهما من ادباء تلك الحقبة .

رسالة وجدانية

وفى سنوات زكى مبارك الاخيرة لم يكف عن احاديثه عن الحب ولم يصمت قلبه عن التشوف الى افنان الجمال بل ظل شاب القلب والروح رغم ارتفاع سنه ورغم مأساته العنيفة التى كان يعيشها ويعانيها ·

فى تلك الحقبة من حياته ظل يهتف للحب ويغرد للجمال اجمل الأغاريد واعذبها تتخللها أنات قلب كليم وروح حزين ففى سنة ١٩٤٨ وكان يعانى فى تلك الحقبة من حياته مصاعب عدة مادية وصحية واجتماعية ونفسية كتب رسالة وجدانية ملتهبة الى احدى ملهماته يناجيها ويبثها لواعج نفسه وهمسات روحه فى حرارة وصدق كتب يقول لها : (١)

« الى تلك الروح أوجه خطابى قبل أن تخرج من حياتى تلك الظلوم اشرح اشجانى فى سطور اخذت مدادها من روحى وقبست نارها من روحى » ·

« ولقد طوفت بالشرق والغرب وبقيت يا ايتها الروح فى اعماق وجدانى » ·

« فهل نسامر القمر للمرة الاولى بعد الخمسين والبحر يضرب امواجا بأمواج ؟ ·· ليس هذا بالمستحيل وان كنت أعترف أننا نسطر احاديث الغرام فوق الرمال » ·

---

(١) البلاغ : الحديث ذو شجون ، ٩ فبراير ١٩٤٨ ·

« نحن على ميعاد فلا تخلفى الميعـاد .. انت تعرفين مكان التلاقى هل تعرفين ؟ .. » .

« هو نفسـه المكان الذى تلاقينا فيه يوم كنا اطيافا نتناجى فى فراديس الخيال لا تكذبى يا ظلوم ولا تتهمينى بالغدر والخيانة لان لى اعمـالا تشغلنى عنك فى بعض الأحايين .

« انا أجاهد فى الحياة وأنت فى البال والخاطر والوجدان » .

« انك تمنين بانك أوحيت ديوان الحان الخلود يا زهرة نبتت فى حدائق حلوان — فهل يكون من حقى أن اقول ان اشعارى اضفت عليك الوانا من الجمال ؟ » .

« وهل تذكرين ليالى التلاقى قلبـا الى قلب وروحـا الى روح والقنابل تصنع ما تصنع أيـام الحرب ؟ ... كان ذلك فى الاسكندرية يا ظلوم فما نزلنا الى المخبأ وانما كانت نجاتك لأننى آويتك الى صدرى فكان ليلك كله أمانا فى أمان وأصبحت مع الصبح وجبينك أجمـل من الشمس عند الشروق » .

« وفات من ايامنا ما فات وتوالت خطوب كانت قـديرة على ان تشغلنى بنفسى فما استطاعت ان تشغلنى عنك بنفسى » .

« اما الدار التى شربنا فيها افاويق الحب فهى تتلهف على لمحـة من لمحات جبينك الوهاج كل ما فيها يذكرنى بمرائيك الجميلة فى تلـك الليالى البيضاء » .

« ما هفا قلب الى قلب كما هنا قلبى الى قلبك ولا انست روح بروح كما انست روحك بروحى ما قرأت قصيدة وجدانية لشاعر قديم أو حديث الا رايت الشاعر يترجم عن غرامى ولا سمعت المطر ينهمر فى سكون الليل الا حسبته يتحدث عن آلامى » .

« وهل كان من الممكن ان أعيش بلا غرام وبلا آلام ؟ ... » .

« لقد فكرت فى ان اعتصر دمى قطرة قطرة من يوم الى يوم ومن اسبوع الى اسبوع واخرج ما فيه من الحديد لاصوغ منه خاتما اقدمـه هدية لك ولكنك لن تسمحى بذلك ابقاء على البقية الباقية من شبابى ؟ » .

« اين نحن يا ظلوم ؟ .. » .

« امرك هو الأمر وهو صريح بانه لا يجوز ان اتكلم فى التليفون لأن الوصيفة تعرف صوتى ولكن هذا يخالف ما كنا اتفقنا عليه كنت اقول : (اننى ارحب فى حبك بالموت ! ..) » .

فتقولين : (وانا ارحب فى حبك بما هو اخطر من الموت وهـــو الفضيحة ..) .

« فهل حققنا ما اتفقنا عليه ؟ » .

« لن اموت ولن تفتضحى فيجب ان اعيش لاقول ما لم يستطــع المجنون ان يقوله فى ليلاه ويجب ان تظلى مصونة من الاقاويل لتكونى محجوبة من احاديث العاذلين لقد أوحيت الى قلمى ادبا ما اوحت مثله محبوبة الى حبيب والجمال الموحى هو الجمال . انا استيقظ مع الفجر لأرى ما تصنع الشمس قبل الشروق واستيقظ بعد القيلولة لأرى ما تصنع الشمس قبل الغروب ويقول اصدقائى : ان هذه فكرة صوفية اريد بها اثبات نظرية وحدة الوجود .. واحب الصـــديق ان يحامى عن الصديق ولكننى ارجو اصدقائى ان يسمحوا بأن اعفيهم من المحاما عنى »

« انا بعد زوال الغسق اراك فى نور الشمس وهو من وحى ثناياك اللؤلؤية » .

« ... وانا بعد غروب الشمس ارى الشفق وهو من وحى خدودك الوردية » .

« ثم اتعجب من صنع الله فيما صنع لم تكن بينى وبين الله خصومة فأنا مؤمن بالقول والفعـل ولكننى أحب أن أعرف كيف جعلك الله ظلام حياتى ونور حياتى » .

« ان تلاقينا فصفاء يعقبه جفاء وان تجافينا فجفاء يعقبه صفــاء يا موحية (غرام يوم الثلاثاء) ماذا تريدين ؟ » ..

« وماذا يريد ذلك الطرف الأحور وذلك القد الرشيق ؟ » ..

« وما هو الغرض من ان اموت موقوذا بغرامى ولى فى حياتى رسالة هى تعطير الشعر العربى بأمثال هذه المعانى ؟ » ..

« هل كان لك وجود فى حياتى يا شقية ؟ » ..

« كان ذلك فيما توهمه خيالى فمتى تلاقينا ؟ » ..

« وفى اى مكان كان التلاقى ؟ » ..

« فى هذه الأيام يقتتل النحل حول زهرة فى مكان عرفناه بالاسكندرية يوم كنا من العاشقين ! » ..

« وما أجهل النحل ! » ..

« كان يجب عليه لو كان يعقل أن يرتشف الأزهار التى أزهرت فى بيانى وانا أناجيك يا شقية بآلامى وآمالى ! » ..

« ان النحلة تبنى وانت تهدمين ! » ..

« ولكننى لن اسمح بأن تهدمى قلبى فما تستطيع النمال أن تهدم الجبال » .

« شاع وذاع أننى افتقرت واننى لا أجد قوت يومى فصدقت عنى ولكنك تجهلين أننى أقتات بحبات القلوب ! » ..

« أنا أعيش كما يعيش العصفور يا شقراء وآخذ طعامى من غرامى ! » .

• الفصـل السـابع

أضواء على حياته وأدبه

هذه الدنيـا وما تحـوى هباء
ان خلت من صفو ايام الصفاء
انت من اهوى وان طال الجفاء
كلنا يا روح فى الوجد سـواء

زكى مبارك

أضواء على حياته وأدبه :

ايمـــانه

كان الدكتور زكى مبارك مؤمنا بالله اعمق الايمان عن تأمل وتفكير ودراسـة ..

وقد كانت لنشأته الدينية بين أسرته المؤمنة المحافظة اثر كبير فى نزعته الدينية العميقة ...

وقد كان منذ طفولته وصباه يحافظ على الفروض ويؤدى النوافـــل ويقرأ الأوراد ويحفظ القرآن الكريم — وقد كان لمذهبه الأدبى واحاديثه عن الحب والغرام والغرائز والعواطف الانسانية آثار مريرة .. فتصدى له جماعة من الذين يأكلون السحت باسم الدين وكان من اشد أعدائه شراسـة وعنفا وتعنتا محمد احمد الغمراوى والسباعى بيومى وعبد المتعال الصعيدى وابو ريه وقد حمل عليه محمد الغمراوى حملة عنيفة ظالمة وكتب عدة مقالات فى مجلة الرسالة سنة ١٩٤٤ يثبت فيها الحاده لعبارات لم يفهمها حين قرأ كتاب الدكتور زكى الخالد (النثر الفنى) .

وزعم ان الدكتور زكى يحارب القرآن ... فكتب الدكتور مبارك وهو يحس — بالمرارة فى أعماقه يقول (ان ابنائى تعجبوا من ان يسمح الأستاذ الزيات بنشر كلام يزعم كاتبه أنى أحارب القرآن وأحارب الدين مع انهم يرون فى كل يوم انى ادعوهم الى المحافظة على الصلوات ...) .

ويقول (الاسلام دين العقل لا دين الجهل ونحن بفضل الله ومشيئته ورعايته انصار هذا الدين) .

وقى لقى الدكتور زكى حربا رخيصة من بعض الذين على قلوبهم غشـــاوة .. ولانه مؤمن عميق الايمان صافى القلب .. فاتهموه بالزندقة ... والالحاد ... لقد عمد البعض الى استغلال ما كتبه عن نفســه وافكاره بصراحته المعروفة وصدقه فأثاروا حوله الأراجيف والأباطيـل وشككوا فى ايمانه ودينه ....

وقد روى أنه كان يصوم رمضان حتى فى باريس :

(كانت صحتى قد اعتلت فنهانى الدكتور محمد عبد الحى عـــن الصيام فى شهر رمضان ولكنى رايت ان اصوم فى الأعوام التى قضيتها فى مدينة باريس ، وتمسكت بالحلال فى جميع الأشياء .. لقد شـــعرت بروحانية غريبة حين صمت عن الطعام والشراب فى مدينة باريس وهو صيام غريب وعجيب) .

ونراه يتجه الى الله بقلب مؤمن خاشع فيناديه :

(ياملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف .. لقد مرت أجيال وانت المأوى الأمين لكل من تضيق عنه بلاده) .

وكان زكى مبارك قنوعا راضيا بعطاء الله ويصور ذلك فى صورة رائعة حين يقول ... (فى يوم صائف جاءوا بما لا أريد فقدموا الى طعاما لا اشتهيه فى أيام الصيف وكانت النتيجة أن أهم بالاعتراض وفى أقصر من لمح البصـــر تيقظ قلبى وادركت أن الاعتراض على رزق الله بداية الانحلال وانى لو جحدت الرزق فى اية صـــورة لذهب الى غير معاد أن نعم الله تواجهنـــا من كل جـــانب ويكذب من يزعم ان الله يتخلى عمن يتوكلون عليه فى النعماء والبأساء وهو يؤمن بأن الله أنعم عليه بنعـم كثيرة (من تلك النعم نعمة الرضاء المطلق بما كتبه وقضاه فما اذكـر ابدا أنى جزعت أو ضجرت من مكروه يلم بى وهناك نعمة أعظم تفضل بها على الله وهى الأيمان بأنه تباركت أسماؤه هو وحده القادر على الضر والنفع فما خشيت غيره ولا رجوت سواه) .

ولكن رغم هذا الايمان العميق فان جمهور الحجارة والطوب كمـا يسميه الأستاذ التابعى(١) ــ جمهور تقى النفاق وورع الدجل يقذفون الكاتب لأقل سبب ولغير ســـبب وهذا الجمهور الذى يضـم المثقفين وغير المثقفين والخاصـــة والغوغاء يترصـــدون أقل خطأ لزكى مبارك

(١) محمد التابعى . الوان من القصص ــ الكتاب الذهبى .

ثم يهاجمونه وينعتونه بأقبح التهم والاباطيل رغم خدماته الجليلة للدين الاسلامى يقول الدكتور زكى ومع ذلك يقرا علماؤنا مقالات رجل مثلى حرفا حرفا ليبحثوا عن لفظة نابية يثيرون حولها الاراجيف ومن يكون المؤمنون اذا حرم رجل مثلى نعمة الايمان الصحيح آه ثم آه .... الجهاد فى سبيل الدين ضائع فماذا أصنع وقد شقيت بوطنى وزمانى) .

وعندما نشر الدكتور مبارك مقاله (النواحى الانسانية فى الرسول) فى مجلة الرسالة سنة ١٩٣٩ انبرت جماعة المرائين تهاجمه وتناوشه وتثير حول ايمانه الأراجيف والأباطيل فكتب يقول والمرارة فى اعماقه :

(ان بينى وبين الرسول صلة وثيقة هى البلاء بالدنيا والناس فكيف يتوهم قوم انهم يغارون عليه اكثر مما اغار عليه وهم لا يتقدمون لنصرته الا مدفوعين بالثمن الذى اعرف وتعرف .... ان فى خلق الله من ياكلون الشهد بفضل الرياء فكيف يؤذيهم أن نشرب اكواب الصاب والعلقم بفضل القول الصريح ؟ الم يكف ما نعانى من الايذاء فى سبيل الصدق حتى نشرب السم من ايدى المرائين ؟) .

ويرسم زكى مبارك صورة رائعة لله تعالى فيقول :

(النور القدير على تمزيق الظلمات هو نور الله النور الغلاب القهار الذى لا يصده حجاب ولو كان فى كثافة أنفس المحبوبين عن كرم واجب الوجود وما تمر بنا لحظة عن كرم واجب الوجود وما تمر بنا لحظة من لحظات الغيظ الا كانت شاهدا على ان ايماننا بالله ايمان مدخـــول ولا تمر بنا لمحة نعتمد فيها على هذا المخلوق او ذاك الا اذا كانت دليلا على ان ثقتنا بالله مزعزعة الأركان فما بال قوم تطير نفوسهم شعاعا حين يهدرون بغضب بعض الخلائق ولا يجوز لمن يخاف الناس ان يرجو الله ... جرب الثقة بالله ان كنت لم تجربها من قبل فسترى ان الأنس بالله يرفع عنك اعباء الثقة بالناس وما اعتمد احد على خلق الله الا باء بالخذلان) .

وهو يصور فضل الله عليه فيقول (انك تلومنى على ان اظل بين اقلامى واوراقى ساعات من كل يوم فهل تعرف السبب فيمــا اخترت لنفسى ؟ انى اؤدى زكاة العافية وانا افهم كيف اراد الله ان يحمينى من قضاء ليلة واحدة على سرير المرض على طول ما شرقت وغربت فى السنين العجاف ....) .

وهذه لوحة فنية رائعة ومناجاة صوفية لله يقول فيها :

(السماء فى عيدك والأرض فى عيدك والشمس فى عيدك والقمر فى عيدك والنجوم فى عيدك وانت العيد لما نجهل عن المواجيد فأنت فى غضبك ورضاك عيد والف عيد فهل تسمح يا الهى بأن نكون بفضلك كل يوم فى عيد ؟) ويعتمد على الله فى كل ما يقوم به من أعمال فيقول (قضيت دهرى بلا نصير ولا معين وسائل كذلك طول حياتى لأقيم الدليل على أن من يستنصر بالله لا يخيب ولا يضيع) .

هذا هو ايمان زكى مبارك بالله واعتماده عليه سبحانه فى كل ما يفعل ... وقد يسأل القارىء : كيف يكون هذا الأديب المؤمن الراسخ الايمان هو نفس الأديب الذى ظل يهتف للحب ويملأ الدنيا بالحديث عن الغرائز والعواطف الانسانية ؟ .

ولكننا فى نفس الوقت نسأل : ماذا كان قصد زكى مبارك من حديثه عن الحب والجمال والعواطف الانسانية ؟ .

لم يكن قصده اثارة الغرائز والشهوات بالطبع ولم يكن له الا مأرب واحد من الجمال هو درس الطبائع والغرائز والميول ليخرج من ذلك بمحصول فلسفى قد ينفع بعض النفع فى أذكاء الدراسات الأدبية والفلسفية فقد خلق قلبا عاشقا يهيم بجميع المعانى ويعشق جميع الصور وكان انتاج زكى مبارك الوجدانى انتاجا أدبيا رفيعا خاليا من الأثارة الرخيصة والابتذال السوقى وكان هدفه الأدبى هدفا فنيا رائعا .... وقد تكلم عن تلك المسألة العويصة توفيق الحكيم لأنه تعرض أيضا لحملات جماعة المرائين باسم الأخلاق والدين فقال : (١)

(لقد صور (رفاييل) جسم المرأة عاريا فلم يثر فى النفوس مشاعر رخيصة لأنه لم يقصد من تجريدها الا الجمال الفنى فبلغ هذا الهدف على الرغم من وعورة المسالك ... وكثير من الشعراء والأدباء والفنانين ساروا على الصراط الرفيع الذى يفصل بين الفحش والنبل واستطاعوا ان يتفادوا السقوط ويصلوا الى الأهداف الشريفة) .

ويقول (ان الكاتب الأخلاقى ليس فى كل الأحيان ذلك الذى يردد الفاظ الوعظ والارشاد أنه فى أغلب الأحيان ـ وفى العصور الحديثة

---

(١) توفيق الحكيم : الرباط المقدس ....

على الأخص — ذلك الذى يواجه مجتمعه بالحقائق الصريحة بغية اصلاحه وان تعرض لأقسى الاتهامات) .

وقد تعرض زكى مبارك لحملات قاسية عنيفة بسبب صراحته وصدقه واتهم بأشنع ضروب التهم واثيرت حوله الأراجيف والأباطيل من جماعة المرائين فوقع فى حيرة عنيفة وشعر بالمرارة فى اعماقه يقول :

(لقد جعلت الحديث عن الحب شريعة من الشرائع هل احسنت هل اسأت ؟ ولئن قلبى يحدثنى بأنى كنت من المسرفين أتوهم حينا انى اخدم لغتى بهذه الأحاديث ... أحب أن أعرف نفسى .. هيهات . لو كنت رجلا فاسقا لعرفت الحدود وأنتهيت ولكنى رجل عفيف وهنا تظهر دقة الاشكال ومن الذى يصدق اننى رجل عفيف وقد ملأت الدنيا بالحديث عن طغيان الشهوات ؟) وقد وصف الدكتور زكى مبارك نفسه وقال انه من الذين يحبون لقاء الناس بالفجور ولقاء الله بالعفاف بدلا من أن يلقى الناس بالعفاف ويلقى الله بالفجور ......

زكى مبارك والتصوف :

ترجع صلة زكى مبارك بالتصوف الى فترة الصبا حين اتصل بالصوفية فى سنتريس وكان يشهد مجالس الصوفية وكانت لأبيه صلات روحيه بأهل الطريق وكان يعرف وهو طفل انه موصول العهد برجل صالح اسمه محمد سعد وكذلك درج على احترام أرباب الصوفية وفى سنة ١٩١٢ وهو طالب فى الأزهر الشريف اشتدت رغبته فى صحبة الصوفية وألح به الشوق فأخذ ينتقل من ناد الى ناد حتى تعرف الى رجل فاضل من أساتذة الأزهر كان يومئذ من كبار الصوفية فأخذ عنه العهد وبدأ يقوم بالأدوار على الطريقة الشاذلية وكان فى صوته من المرونة ما يساعده على القاء الأناشيد فكان من المتقدمين فى الانشاد وفى سنة ١٩١٥ رآه ذلك الشيخ صالحا للأستاذية فى الطريق وأضاف اسمه الى قائمة الخلفاء .. وكان له سنتريس وغير سنتريس مريدون وأتباع ووفق فى هذا المجال ...

وفى سنة ١٩١٨ قام بينه وبين الشيخ الطماوى نزاع فقد كان يرى أن زكى مبارك قليل الرعاية للتقاليد الصوفية وتأمل زكى مبارك فرأى السبب تافها كل التفاهة فقد غاظ الشيخ الطماوى أن يتكلم الشيخ زكى فى حضرته وقد وضع رجلا على رجل وهى جلسة تدل فيما يبدو على تعاظم وكبرياء .

(فحاسبت نفسى فرأيت انى لم افعل ذلك عن عمد ثم خطر بالبال ان الصوفية ايمان بعلام الغيوب فلو كان ذلك الرجل من الملهمين لما اخذنى على هفوة شكلية لم يكن لى فى وقوعها قصد ولم تسبقها نية سوء وانتهى الحديث بالقطيعة ومرت أيام عانيت فيها من الضجر والغيظ ما عانيت وحاولت ان أصلح ما بينى وبين الشيخ ولكنى لم افلح فى جذب نفسى اليه فقد اقتنعت بان بعض الصوفية أرباب ظواهر وان أدعوا انهم أرباب قلوب ...) .

وفى خلال تلك الأزمة كانى يعانى ثورة روحية عنيفة وكان مشغولا بتاليف رسالته عن الأخلاق عند الغزالى ..) .

وكانت هذه الثورة الروحية هى مصدر حملته العنيفة على الغزالى وعلى التصوف ولكنه بعد سنوات عاد فواجه أخطاءه فى شجاعة نادرة واعتذر لتحامله على التصوف يقول :

(وما كاد ينشر هذا الكتاب حتى ضعفت حماستى لما أقمته عليه من أساس العقل ولان الدنيا كانت بدأت ترينى انى تحاملت على الغزالى وتعجلت الحكم على آرائه فى سياسة النفس فقد كان يدعو الى النفرة من الناس وكنت أرى ذلك من الجبن فى الحياة الاجتماعية .

ثم تكشفت لى بعض الحقائق فرأيت المروءة تقضى فى أحيان كثيرة بالهرب من الناس وكذلك عدت أستروح بذكرى التصوف وأضمر له الشوق والحنين ..) .

وقد تقدم زكى مبارك برسالته عن (التصوف الاسلامى فى الأدب والأخلاق) الى الجامعة المصرية سنة ١٩٣٧ لنيل درجة الدكتوراه وقد حاز درجة الدكتوراه بدرجة جيد جدا وقد قضى تسع سنين فى تاليف هذا الكتاب الضخم (وبه اكرمت وطنى فمصر هى المهد الأول لمعانى التصوف) .

ويقول ان الصوفية هم فى الأصل عشاق تحولوا من الحب الوجدانى الى الحب الروحانى والله فى لغتهم اسمه المحبوب وهذا الأسم عندهم أشرف الأسماء .

ويرى زكى مبارك ان التصوف لا يقتصر فقط على محض العبادة الدينية والتوبة الى الله والتجرد من شهوات الدنيا وانما هو كل افراغ للقوى الروحية والعقلية فى فكرة سامية وقد اعتبر هذا من الدكتور

زكى فى رأى بعض النقاد جراة ومخالفة للعقيدة السائدة عن مذهب التصوف بأنه وجدان دينى ..

وفى رأيه ان الانتقال من حب الجمال الى التصوف معقول ولاسيما فى حالة الحرمان من المحبوب .

ويقول أحمد حسن الزيات عن كتاب التصوف الاسلامى (١) (الحق ان كتاب التصوف الاسلامى بناء شامخ الذرى فى تاريخ الأدب واقوى ما يروعك منه الجهد والاطلاع والفهم .

ويقول (والصوفية هى النزعة الوجدانية الصافية فى الفطر السليمه ولها فى الأدب والخلق والفلسفة والحياة اشعاع هاد كاشعاع الحق وكان لابد لهذا العنصر الباهر المجهول من (مدام كورى) فى زى زكى مبارك تنهك الجسم والعصب ، وتنفق الوقت والذهب ، فى سبيل كشفه) .

ويقول (واذا كان الله قد عود الشعراء والأدباء أنه يغفر لهم من ذنوبهم ما تقدم وما تاخر لبيت من الشعر او خاطرة من الراى فما أحرى زكى مبارك أن يدخل معه الجنة على حساب كتابه الفا من الأدباء المحرومين ..) .

وقد كان لتوغله فى دراسة الصوفية وتاثره بها أثر كبير فى حياته وأدبه وفى حديثه الى الله أصبح يستخدم اسلوب الصوفية فى ذلك يقول مخاطبا الله :

(كل شىء يسبح بحمدك يا واجب الوجود وأمر الخلائق كله اليك أنا عشقتك بالروح والقلب والوجدان .

ويقول (ما كنت أملك غير ايمانى بالله وهو السر فى عقيدة التصوف التى اقمت عليها بناء حياتى) .

ويقول (فيا أيها المبدع الأول والأخير لأنوار القلوب وأضواء العقول تفضل فاجذبنا اليك حتى لا نرى روحا سواك ولا نشهد الا اياك

---

(١) أحمد حسن الزيات ، الرسالة يناير ١٩٣٩ .

ولا تستجير بغير حماك ولا نعتمد الا عليك فما يعتمد على الخلائق الا الأذلاء) .

ويهتف فى ايمان صادق عميق (هل صفت نفسى كل الصفاء ؟ فمازلت اشكر بعدى عن ربى وكنت قبل ذلك فى فراديس من الايمان الجميل كنت كلما رأيت ظلم الناس اقول لقد بقى لى ذلك الكنز الذى لا ينفد ولا يفنى وذلك المعين الذى لا ينضب ولا يغيض يبقى لى الله تلمس يدى وترى عينى آثار رحمته وعدله وتكاد تصافحه يمناى ولو شئت لمضيت فى ترديد هذه الجملة ولكن أين تقع التعابير من حقائق ما فى القلوب ؟ أنا اشتهى أن ينعم الله على بايمان أقوى وأمتع واشهى ـ ليس فى الوجود كله ما يغنينى عنك ياسر الأسرار وياروح الأرواح ..).

والنزعة الصوفية هى احدى خصائص شعر زكى مبارك ويقول ان أكثر قصائد التشبيب لم تكن لها موحيات من الجمال الانسانى وانما كانت موحياتها من الجمال الربانى .

ومن أنت يا ربى أجبنى فاننى رأيتك بين الحسن والزهر والماء

ويناجى ربه قائلا (١) (فيابديع الملاحات ويا فاطر السموات كيف ترى حالى ؟ وياخالق النخيل والأعناب كيف سكبت الصهباء فى روحى ؟

ويا مجرى الدمع فى العيون كيف علمتنى وعلمت الحمائم النواح ؟ وما عندك ـ لسلامتى من الناس وقد خاصمت فيك جميع الناس ؟

وكان زكى مبارك يؤمن بنظرية وحدة الوجود وقد شرحها على أصولها فى كتاب (التصوف الاسلامى) فقد كان يؤمن بأن الوجود مربوط برباط وثيق من الكهرباء وهو يقول فى تلك الفلسفة الوجدانية.

(هل يعقل ان تمر الريح بالوادى الجديب كما تمر بالوادى الخصيب ؟ هل يعقل أن تمر النسمات بوجوه أهل البلادة كما تمر بوجوه أرباب القلوب ؟ وهل اختلت الموازين فى الدنيا حتى نصدق ان الأرض التى تدوسها البهائم كالأرض التى تتخطر عليها اقدام الظباء ؟) .

---

(١) ليل المريضة فى العراق ١٩٣٩ .

وكان لايمانه بتلك النظرية آثار مريرة فقد هوجم بها فى سنواته الأخيرة وفجر ينابيع لاتغيض من الأراجيف والأباطيل حول ايمانه وحول عقيدته ... والواقع يشهد ان زكى مبارك كان فى كل الأحوال والظروف مثال الايمان العميق الراسخ ومثال التقى والورع والصلاح رغم كل ما قيل عنه .

الأسلوب :

ابرز ملامح أسلوب زكى مبارك هو تلك الرقة العاتية والموسيقا الهامسة ونثره هو شعر منثور أقيم على قواعد من الغناء ونلمس فى اسلوبه قسطا كبيرا من النغم والرقة ولكلماته ايقاعات موسيقية خلابه.

وأبرز سمات الموسيقا فى أسلوبه هو التناسق الموسيقى وحسن التوزيع للمادة اللفظية والتصرف فيها ففى هذه القطعة مثلا نلمس التناسق الموسيقى وجودة الصياغه يقول :

من أنت حتى تحولى دنياى الى أمواج من الظلمات ؟ تذكرى ماتملكين من شواهد الحسن التافة السخيف ؟ هل تملكين غير الدلال الذى يزلزل قلبى وعقلى ؟

هل تملكين غير الصوت المتكسر الناعم الرقيق المقتول الذى يذل الأسود ؟ هل تملكين غير ذلك الصدر المشرق الذى يغرق الناسك فى بحار الضلال ؟

هل تملكين غير تلك الطلعة البهية التى تخجل منها الأقمار والأزاهير) فمن الكلمات ذات الأداء الشعرى الفنى ذات الايحاءات القوية الجميلة كلمات مثل (أمواج من الظلمات) وحين يصف الصدر يصوره كبحر غريق عميق يغرق الناسك فى بحر الضلال ...

ويصف طلعتها وفيها وثبة من وثبات الخيال فما تخجل الأقمار والأزاهير من طلعة انسانة ولكنه جعل الأقمار والأزاهير تنكمش حياء بجانب طلعة ليلاه فى الزمالك ...

وزكى مبارك يختار ألفاظ ذات رنين موسيقى ساحر الجرس وله براعة خاصة فى خلق النغم الموسيقى ومن هذه القطعة الفنية نرى جمال الموسيقا وقوة التعبير ونراه يستعمل وسائل تعبيرية عديدة منها التشبيه

والايحاء ونرى فيها اشارات مبهمة وظلال فنية خصبة تدل على مقدرة زكى مبارك فى تصوير وتلوين ما يكتب يقول (لقد تشوقت اليك تشوق الزهر الى الندى وتشوق السارى الى البدر وتشوق الخائف الى الأمان وتشوق العاشق المهجور الى طيف الخيال ..) .

فهو هنا قد نجح ووفق فى حسن التقسيم وحسن توزيعه للكلمات واكسبها ايحاءات خاصة قوية ...

ومن ابرز ملامح أسلوبه احتوائه على قدر كبير من الضوء والظل واللون والنغم وهذه قطعة وجدانية نفيسة جدا تبرز ذلك وتؤكده يقول :

(للوجود كله غناء ولنا وحدنا غناء وروحك هو غريد البلبل وحفيف النسيم وهدير الأمواج وعربدة الكهرباء) .

وفى قطعة أخرى تبرز موهبته الفذة فى استخدام الظلال والضوء واللون حين يصف محبوبته الحسناء يقول :

(من أنت ؟ أتملكين شيئا غير عينين سوداوين وخدين اسيلين ومبسم يتلألأ بسحر البريق وقوام يترنح .. وما سقوه الصهباء) ان هذه الصورة تسبح فى بحر من الضوء والبريق .

وهذه صورة أخرى تبرز قدرته الفائقة على التلوين بالضوء والظل يقول (ساعتصر خدود الشمس عند الشروق وعند الغروب وللشمس فى الشروق والغروب خدود وردية تشوق الأبصار والبصائر والقلوب) .

وحين يصف الحب يرسم لوحة فنية مضاءة ملونة بعبير عطرى ساحر وموسيقا هامسه رقيقه يقول فيها :

(الحب قبس من الصهباء فى كأس من الماس .. الحب لمحة من لمحات السحر الذى يفيض به الوجود فى ليلة قمراء .. الحب هو ان تذوب القسوة فى كوثر الحنان ..) .

ويرى الناقد المشهور (روبرت لند) (١) ان الأسلوب هو توافق الكلمات - وانسجامها وحسن صياغتها حتى تؤدى المعنى المطلوب بحيث

---

(١) ابوللو ، مارس ١٩٣٣ .

اذا كنت تصف عاصفة مثلا فلا يصح أن تختار كلمات هادئة تعبر عن حزن وهدوء .

فأين أسلوب زكي مبارك من ذلك ؟ في الواقع ان الدكتور زكي مبارك وفق غاية التوفيق في قدرته الرائعة في حسن توزيع كلماته وتوافقها وانسجامها ونجح في جودة الصياغة وحسن استخدامه للمادة اللفظية ببراعة بالاضافة الى قدرته البارعة على التصوير بالضوء والظل .

وهذه قطعة تصور حسن توافق الكلمات وانسجامها وحسن صياغتها عند زكي مبارك وتمثل رأى الناقد (روبرت لند) أصدق تمثيل وأعمقه يقول مبارك :

(لم أكن أعرف ان ليلى التى نقلت قلبها من مكان الى مكان وعلمتها كيف تناجى النجوم وتصافح الأزاهير وتناغم البلابل وتسامر الأحلام وتراود الأماني .

لم اكن اعرف ان هذه الانسانة الظلوم ستسقيني أكواب العلقم بعد أن سقيتها أكواب الشهد) .

ويرى الكاتب المعروف (ريمى دى جورمون) (١) أن الأسلوب الممتاز هو شيء مكون من عناصر ثلاثة هي بحسب اهميتها وتوافرها :

١ ـ دقة الشعور

٢ ـ صدق النظر

٣ ـ قوة التفكير .

فأسلوب زكي مبارك ممتاز اذن بحسب هذا التعريف الدقيق للأسلوب في رأى هذا الكاتب .

فمن أبرز سمات أسلوبه دقة الشعور وصدق النظر وقوة التفكير ومن يقرأ ما كتبه يجد مصداق ما اقول .

---

(١) ابوللو ، مارس ١٩٣٣ .

وهذا التعريف ينطبق بالأخص على دراساته الادبيـة والفلسفية وبالذات كتـابه النفيس (النثر الفنى) فهو آية من آيـات العبقرية فى دراسة الأدب القديم .

وكلمات زكى مبارك معطرة دائما بأريج الحب والجمال يقول عن احدى محبوباته (لن ترى الدنيا ولو تحولت الى فردوس عاشقا أصدق منى ولن أرى - أكرم منك يا تلك الروح الغالية ولا أعذب ولا الطف وان توهمت ان الصدود من جنود الجمال ...) .

وزكى مبارك فى مقدمة من نجحوا فى خلق عذوبة الأسلوب فى اللغة العربيـة واضاف الى قاموس الوجدان اشكالا رائعـة من التعبيرات والمعانى الجديدة الرقيقة فالرقة عنده طبيعيـة وأسـلوبه يتسم ببراعة التعبير ورشاقة البيان بالاضافة الى ما يمتاز به من عاطفة جياشة ملتهبة وتموجات نفسية ووجدانية بارعة .. حين يناجى قلبه مثلا نراه يستخدم صورا فنية طريفة يقول (١) :

(قلبى .. هل تسمح بأن احمل مصباحا فى هذه الليلة واخرج معك لزيارة المدفون من أوطارك وأحلامك ؟ ولكن أين المقابر التى دفنت فيها أوطارك وأحلامك حتى أونسها بضوء المصباح ؟ أين لا أين ؟ فانى أخشى أن تكون المقـادير صنعت بأحلامك ما يصـنع البحر بما يدفن فيه من سرائر القلوب) .

فى هذه اللوحة الفنية يسـتخدم كلمات غريبة مثـل المصباح والمقابر والبحر فى خلق الجو العام ليصور غربة قلبه .. وسبب هذا انه بارع كل البراعة فى خلق الجو العام لمقالاته بحيث يصبح مقاله مليئا بالاشعاع والرموز والايحاء .

وهذه مناجاة لقلبه العاشق فيها عتـاب وتمرد على قلبـه المفتون بالحب والجمال وتشهد تلك القطعـة ببراعـة مبـارك فى التصوير والتوزيع اللفظى وملونة بلون قلبه العاشق يقول :

كيف تريد ان أرجع اليك ان لى عقـلا يعصمنى من غيـك فاصنع ما أنت صانع ألست أنت الذى أغرانى بالتطلع الى مشارق الأقمار

(١) وحى بغداد ، غريب الهوى فى عيد القمر .

والأزهار ومواسم الأفئدة والقلوب ؟ ألست أنت الذى حدثنى بأن النعمة الصحيحة هى جودة الفهم لأطايب الوجود ؟) .

ونجد فى تلك القطعة الصورة النفسية الوصفية والتحليق الشعرى العالى فهو يرمز الى قلبه العاشق ويجعله يحس ويفهم ويعقل فيعاتبه ويتمرد عليه .

ونلمس الموسيقى الحزينة الخافتة الهامسة فى تلك القطعة والتى تتلاءم كل الملاءمة مع الجو النفسى العام .

* * *

ان براعة أسلوب زكى مبارك ترتكز على الاتساق اللفظى بحيث يقوم رنين خاص بين الكلمات المستعملة بدقة وبراعة وتوافق وأسلوبه هو الأسلوب السهل الممتنع وقد نجح فى خلق النغم الموسيقى الناعم ..

ولا ينسى ان يوشى كتاباته بآيات قرآنية او يجمله بكلمات فرنسية رقيقة أو أبيات من الشعر الوجدانى مما يضفى على اسلوبه سحرا خاصا ورقة عاطفية متميزة .

وأسلوب زكى مبارك الموسيقى العاطفى استمد رقته وطلاوته من جمال سنتريس وبلاغة الأزهر ورقة باريس .. وأسلوبه العاطفى الوجدانى حى يتبض ـ بالحرارة والصدق والعاطفة ويعبق بالعطر .

(وكان زكى مبارك الفلاح قويا فى كل شىء يكتب فينطلق كالنهر ويعصف كالريح ويموج كالبحر ويهدأ كالنسمات اللطاف) .

* * *

كان اسلوب زكى مبارك أسلوبا موسيقيا وجدانيا رقيقا من ابرز سماته البساطة فى التعبير والرصانه والطلاوة مع ما يتميز به زكى مبارك من الفكاهة الحلوة .. وخفة الظل ورقة العاطفة ..

---

(١) محمد خفاجى أدباء الشرق ١٨ .

يقول (١) زكى مبارك عن أسلوبه انا أعتقد بلا زهو ولا كبرياء انى وصلت باللغة العربية الى ما كانت تطمح اليه من البيان .

أنا عتقد بلا استطالة ولا تزيد انى خلقت عذوبة الأسلوب فى اللغة العربية وقد صار البيان عندى طبيعة اصيلة لا يعتريها تكلف ولا افتعال وما أذكر انى عرفت التسويد والتبييض فيما الفت من الكتب أو نشرت من المقالات بعد زمن التمرين الذى سبق سنة ١٩١٦ .

وما اعرف بالضبط خصائص اسلوبى لأنى أصدر فيه عن السجية والطبع ولكنى أعرف بالتأكيد ان الذى يقرأ مؤلفاتى ومقالاتى يشعر بأنه يرى الحياة وجها لوجه ويشهد صراع الأحلام والأوهام والآراء والأهواء والحقائق والأباطيل ...) .

واسلوب الدكتور زكى مبارك يعد اسلوبا فنيا يشتمل على افكار عميقة وصور شاعرية عذبة فاسلوبه يتكون من (Idée, et forme)

ويعرف الكاتب الفرنسى الكبير بوفون (Buffon) الأسلوب فيقول(٢):
« الأسلوب هو الرجل نفسه » (Le Style et de l'home même)
فماذا نرى فى أسلوب زكى مبارك ؟ ..

ان الأسلوب يختلف من كاتب لآخر بحسب اختلاف الطبائع وتركيب الخلق .. وأسلوب زكى مبارك يعبر أصدق تعبير عن طبعه وخلقه ونفسيته .. فاسلوبه يتميز بالتوقد والاشراق والشاعرية والرنة والتلوين والحركة والطلاوة وكل ذلك فى حسن نسق وجمال إيقاع وموسيقا هامسة وهو يصدر عن حسن سجية ورقة طبع .

ان موسيقا مبارك الحان من المعنى وانغام من اللفظ . موسيقا معبرة قوية تصدر عن سجية رقيقة وطبع شاعرى أصيل .

فاسلوبه صادق اصيل ينم عن طبعه وجوهره الأصيل ومما يزيد اسلوبه جمالا وعذوبة حلاوة الجرس وطلاوة العبارة فالرقة فى اسلوبه اصل من طبعه وطبيعة فى خلقة والخلاصة ان من ابرز سمات اسلوبه

---

(١) الأسمار والأحاديث زكى مبارك .

(٢) دفاع عن البلاغة ، ١٩٤٥

اشراق البيان والوضوح والصدق والحرارة والشاعرية والعذوبة ومرجع ذلك كله يعود لى طبيعته الشاعرية ونفسه الحساسة المرهفة المحبة للجمال · ومجمل القول فى أسلوب الدكتور زكى مبارك انه يتميز بسمتين بارزتين هما : (L'originalité, et l'harmonie)

الأصالة والموسيقية

هذه هى أبرز سمات اسلوب زكى مبارك ···

تلك هى غاية السمو الفنى والاشراق البيانى ··

وان شئت أن تتحقق من صدق ما أقول فاقرأ على سبيل المثال كتابه (ليلى المريضة فى العراق) أو الأسمار والأحاديث) أو (الحان الخلود) ·

فماذا ترى فى أسلوب زكى مبارك ؟ ··

هل ترى فيه غير روعة البيان وحرارة الصدق ؟ هل ترى فيه غير اشراق البيان وأصالة الفن ؟ ··

وبعد فادب زكى مبارك فى مجموعه صورة من نفسه الملهمة وطبعه الرقيق وأن ملامحه الروحية ونفسه ومشاعره وأفكاره وتأملاته وذكرياته ممثلة فى أدبه أصدق تمثيل فى حرارة وأمانة وصدق ·

وهذا هو غاية الصدق وتلك هى غاية الأدب الأصيل والفن الأدبى الصادق المبدع الخالد على مر الأجيال والعصور ·

زكى مبارك الانسان :

رسم الدكتور مبارك صورا كثيرة لحياته وافكاره ومشاعره وذكرياته وكان فى كل ما كتبه عن نفسه صريحا صادقا قال كل ما كتبه بامانة وحرارة وصدق ·

وقد صور أحزانه لفقد ابنه أحمد يقول (١) :

(كنت القى دروسا مسائية فى تدريس اللغة الفرنسية بمدرسة الأليانس فرانسيز وكنت اخرج مكدودا وبعد ساعتين من الدرس دخلت

(١) الحان الخلود : زكى مبارك ١٩٤٧ ·

البيت فوجدته فى سكون على غير المألوف فعرفت أن (أحمد) مات وان زوجتى لا تريد أن ترانى لئلا اقرأ فى ســطور وجهها أن (أحمد مات) أويت الى فراشى وهو فى الدور الثانى من البيت وقضيت الليل كله فى أحلام مزعجات ان للثكل طعما مرا ٠٠ كفنته بيدى وحملته على كتفى الى مثواه الأخير ٠٠) ٠

وكان أهل بيتــه يترقبون عودته من غيــابه فى كل مرة وكانت للدكتور مبارك دقة جرس معروفة اذا ما وصل صداها الى أهل منزله عرفوا أنه وصل وعندما عاد من العراق سنة ١٩٣٨ (كانت دقة واحدة من الجرس كافية لأن يطرب جميع أهل البيت :

[illegible]

قالت زوجتى وهى تبــكى من الفرح : ــ ما كنت احســب أنى سأعيش حتى أراك ؟ ٠٠

فقلت : أنتم تغلون نشاطى بهذا الحنان المزعج ٠٠) ٠

ويعترف بالجميل لزوجته ٠٠ يقول : (يسرنى أن أسجل اعترافى بالجميل لزوجتى الفلاحة التى سارت سيرة أمها وأختها فحفظت قلبى سليما من الهموم التى تزلزل عزائم الرجال ٠٠) ٠

ويقول أنه ورث خضرة العينين عن امه سقى قبرها الغيث وقد تقلب زكى مبارك بين الأزياء فكان معمما ثم مطربشا ثم مقبعا ثم لبس السدارة العراقية ٠٠ وهو يرى ان من الخير أن يلبس المرء زى أهل البلد الذى يعيش فيه يقول :

(اننى تقلبت فى ملابسى من حال الى حال فكنت أولا ألبس الطاقية والجلابية وهو لباس أهلى فى سنتريس ٠٠ ثم كنت معمما يوم كنت طالبا فى الأزهر الشريف ولم ويظهر أنى كنت غريبا بين الأزهريين فقد كانت عمامتى أظرف عمامة وكان هندامى أجمل هندام وكنت وحدى فى الأزهر أمثل مذهب المعتزلة يوم كان الأزهر لا يذكر المعتزلة الا قال : قبحهم الله ٠٠٠

وكان فى النية أن أظل أزهريا فقد انتقلت من مذهب الشافعى الى مذهب أبى حنيفة لأكون مفتى الديار المصرية ثم نقلتنى الأقدار الى الجامعة لأصبح من تلاميذ منصور فهمى وطه حسين ومع ذلك فقد ظللت معمما الى أن ظفرت بأجازة : الليسانس فى العلوم والفلسفية والأدبية سنة ١٩٢١ ثم أخذت أستعد لامتحان الدكتوراه فبدا لى أن

أصبح (أفندى) فقدمت ما عندى من الجيب الى أحد (الترزية) فى شارع محمد على فصنع منها بذلتين سخيفتين شهدتا بانى كنت مهندما فى الجبة والقفطان ثم أصبحت أضحوكة فى السترة والبنطلون ..

وفى يوم امتحان الدكتوراه أوصانى الدكتور منصور فهمى أن أحضر فى البذلة السوداء فلم أفهم المراد ولولا فصاحتى وبلاغتى فى ذلك اليوم لعدنى القوم من السفهاء ... وجاء فى رسالتى أنى قد أخلع العمامة وألبس الطربوش ولكنى لا ألبس القبعة ولكنى لبست القبعة بعد ذلك بثلاث سنين حين هاجرت لطلب العلم فى باريس سنة ١٩٢٧ ومن الغريب أنى لم أصنع كما صنع زملائى وعهدى بهم يذهبون الى البواخر بالطرابيش وانما لبست القبعة من منزلى فى مصر الجديدة فلم يعرفنى المودعون وفيهم الشيخ ابراهيم القاياتى رحمه الله ...

وفى العراق لبست السدارة وعندى أن الأخلاق الكريمة تقوم على أساس الانلماج المطلق فى البلد الذى تعيش فيه والسدارة العراقية لباس جميل ..) .

ويقول عن نفسه : (الذين قرأوا (مدامع العشاق) يحسبوننى فتى لا يتجاوز الثلاثين والذين قرأوا الأخلاق عند الغزالى) يحسبوننى شيخا يصافح الثمانين) .

ويتحدث عن بداية اتجاهه للوجدانيات فيقول (لقد ابتدأت حياتى الوجدانية بأخطر بداية ابتدأتها باللعب بالجمر وما أخطر الجمر فى أيدى اللاعبين فقد نظمت فى بداية حياتى هذين البيتين :

اشجاك ما خلف الستار وانما خلف الستائر لؤلؤ مكنون
والناس فى غفلاتهم لم يعلموا
انى بكل حسانهم مفتون

وكان ذلك كله مزاحا فى مزاح ثم انقلب اللهو الى جد صراح ... فانا اليوم أتمثل الحسن فى كل مكان ..) .

ويحس مبارك بالمرارة والندم على اشتغاله بالأدب (لو كنت اتجرت بالتراب لصرت اليوم من أكابر الأغنياء ولكنى اشتغلت مع الأسف بالأدب فذرعت فضاء الله فى فرنسا الى أن سبحت فى بحر المانش وذرعت فضاء الله فى العراق الى أن سبحت فى شط العرب واشتغلت

بالتدريس عشرين سنة فكانت صراحتى تقطع رزقى فأخرجنى الأستاذ محمد حسن العشماوى من عملى واخرجنى الأستاذ عبد الرزاق السنهورى من وزارة المعارف ...) ·

ويصف عبد الله حبيب الدكتور زكى مبارك فيقول أنه (خلق بغير فرامل أو هو كالسيارة الضخمة التى لا تقوى فراملها على ضبط توازنها ودقة سيرها فهو ان سار لابد من حادثة تصادم) ·

ويقول عنه محمد زكى عبد القادر :

(لقد أحب الحياة بشرها وخيرها فأحسن التعبير عنها ·

أحبهـا أعمق ما يكون الحب فكان يرى فى بأسـائها النعيم وفى نعيمها طيف من أطياف الجنة غناها وشكاها تألم فيها وتوجع صبر عليها وصابرها ولكنه لم يبغضها قط ...) ·

● الفصل الثامن

معارك زكي مبارك الأدبية

« لقد ابتدات حياتي الأدبية باناشيد الحب والجمال ، ولو خلاني الناس وشاني لعشت بلبلا وديعا لا يسمعون منه غير انغام الحنين ، ولكن لؤم اللئام حولني الى اعصار عاصف » .

زكي مبارك

معارك زكى مبارك الادبية :

خاض الدكتور زكى مبارك معـارك ومساجلات متعددة عنيفة وكان فى مساجلاته ومعاركه الأدبية شديد العنف صلب العود قوى العارضة.

وكانت تلك المعارك الأدبية مطبوعة بطابع عاطفى وجدانى وقد تمثلت فيها شخصيته الصريحة وروحه العاطفى ونفسه الصافية .

وقد ظل زكى مبارك يخوض الملاحـم فى شجاعة ونزاهة وظـل محتفظـا بقوتـه وعنفـه فى مساجلاتـه منـذ عودتـه من باريس حتى سنة ١٩٤٠ وهى الفترة بين سنتى (١٩٣١ - ١٩٤٠) وكانت أخصب سنوات انتاجه وقوته .

ثم اخذ بعد ذلك يتهاوى ويذوب تدريجيا حتى لم يعد يقوى على الرد على مهاجميه وخصومه ...

وأعظم ميزة لزكى مبارك انه لم يسخر قلمه لحزب من الأحزاب ولم يدخل فى المهاترات الحزبية كما فعل الكثير غيره من كبار الأدباء والكتاب يقول (١) :

---

(١) ألحان الخلود ١٩٤٧ .

(ان الذخيرة الباقية فى حياتى هى اننى أعيش بروحى وبقاى انه روح نظيف وقلم نظيف فما استطاعت حكومة مصرية أو غير مصرية ان تستأجر قلمى ٠٠ هل افقرنى الشرف ؟ هل افتقرت بفضل الحرص على الشرف ؟

وابرز ملامح معاركه ومساجلاته انها اتسمت بالعنف والتحدى (ان الخصومات تذكى عزيمتى) وتتسم معاركه بطابع السخرية اللاذعة والفكاهة الحلوة والاعتداد بالنفس ثم هذا الأساس العاطفى البحت الذى اتسمت به وقد كان لعنفه فى معاركه ومساجلاته آثار سيئة فصراحته وصدقه حملاه متاعب كثيرة واثارا حوله الأراجيف والأباطيل ٠٠ فحورب فى رزقه وعمله يقول :

(الناقد الصريح فى مصر يتعرض رزقه ومعاشه لضروب من الزعزعة والاضطهاد وقد يتعرض مسلكه فى الحياة الى سفاهة القيل والقال وفى مصر عبارة مالوفة حين تظهر مقالة نقدية وهى :

ما الذى بين فلان وفلان ؟ ومعنى ذلك ان الناقد لا يتعرض لمؤلف الا كان فى صورة غرض خاص) ٠

ويقول محمد زكى عبد القادر :

(٠٠ ما من احد من النـاس كان يشـعر بموجدة نحو الدكتـور زكى مبارك حتى هؤلاء الذين هاجمهم فقد كان رحمه الله طلق النفس رقيق الطبع كان فنانا أصـيلا ٠٠) ٠

***

كان الدكتور زكى مبارك صورة فريدة فى الأدب العـربى المعاصر فرغم سفره الى باريس وتاثره بالثقافة الفرنسية والمذاهب الغربيـة فى أسلوب البحث وطريقة التفكير وبرغم انه خريج السربون الا انه لم يتغير ولم ينحرف ولم يستغرب فيتحول عن تراثه وثقافته العربية الأصيلة بل عاد أشد ايمانا بالأدب العربى والتراث العربى والقومية العربية وخاض معارك عديدة مع دعاة التغريب ومع أعداء الثقافة العربية والقوميـة العربية ٠٠ ويكاد يكون هو الشخص الوحيد الذى لم تخدعه الثقافة الغربية ولم ينجرف وراءها بل ظل شديد الايمان والاعتزاز بتراثه ولغته وقوميته العربية بخلاف بعض الكتاب الذين ذهبوا الى أوربا وعادوا وقد استغربوا وهم يحملون لواء الدعوة للفكر الغربى والثقافة الغربية مثل سـلامة موسى وطه حسين وهيكل ومنصور فهمى وغيرهم ٠

كان زكى مبارك شديد العارضة قوى الحجة رائع البيان صلب القناة فى افحام خصومه فى الثلاثينات ولكنه فى بداية الأربعينات لم يعد كما

كان ووهنت قواه واجترا عليه ادعياء النقد وصعاليك الصحافة ولم يستطع ان يرد عليهم ويقحمهم فشعر بالمرارة فى أعماقه (متى تعود ايامى فاناضل كما كنت اناضل فى الجرائد والمجلات ؟ متى يكون لى خصوم كالذين كانوا فى الأيام الخاليات ؟ متى يكون لى خصوم أصاولهم وأنتصر عليهم من امثال طه حسين وابراهيم المازنى وعلى الجارم ومصطفى الرافعى وأحمد زكى باشا ومحمد لطفى جمعه وعبد الله عفيفى وعبد العزيز البشرى ومحمد فريد وجدى ومحمد عبد المطلب ومحمد خالد واحمد امين ومن اليهم من أقطاب الرجال ؟) .

وكان يرى ان الخصومات تذكى عزيمته وتمد دمه بفيض من قسوة الحديد (كيف آنس بالسكون وانا اعتقد ان السلام ضرب من الموت) .

وقد اوقد فى صدور بعض الأدباء نيران الغيظ والحقد ومنهم كاتب يدعى (عبد الله حبيب) تجنى عليه حتى انه تمنى له الموت ليستريح ويريح ورسم له صورة البعبع الذى يخوفون به الأطفال واحس زكى مبارك بالكمد وبالمرارة فى أعماقه فكتب (١) يقول :

(أفى الحق انى صرت كالبعبع الذين يخوفون به الأطفال ؟ أفى الحق انى صرت رجلا متوحشا يتحاماه الناقدون ؟

لقد أصبحت أعانى الوحشة والغربة فى وطنى من التهمة الشنيعة تهمة الشره الى أكل لحوم الناقدين ..) .

ويصرخ صرخة حزينة لاحساسه بالظلم والغبن فى حياته بسبب الأراجيف التى تثار حوله فيقول :

(يعز على ان تغلق فى وجهى ميادين كثيرة بسبب ما شاع وذاع من غرامى بالمشاغبات .. يعز على ان لا يكون فى هذا البلد أديب كريم يأمن مصاولتى على صفحات الجرائد والمجلات ؟ يعز على ان تنسوا جميعا ان مشاغباتى أيقظت الحياة الأدبية بضع سنين ..

(وكيف يصح اتهامى بالوحشية ؟ أم كيف يصح القول بان اهل العصر أجمعوا على انى أعد لهم أنيابا ومخالب ؟) .

---

(١) ليلى المريضة فى العراق ، ج ٣ ، ١٩٣٩ .

هذا هو جزاء صراحة دكتورنا المبارك وصدقه ‥ وقد وصل الحقد بعبد الله حبيب وبلغت أخلاقه هذا الدرك حين يقول انه كان من حسن الذوق ومن الرفق بنا وبنفسه ان يموت ؟

الى هذه الدرجة كان حقد هذا الجهول الذى شوى الحقد قلبه وأعمى بصيرته ‥ وأثارت هذه الكلمات التى تقطر سما وحقدا قلب الدكتور زكى الرقيق واحساسه المرهف فكتب والمرارة فى أعماقه والحزن يمزقه (١٩٣٨) يقول :

(‥ ما الذى تغنمون حين يذهب زكى مبارك من الوجود ؟ ما الذى تغنمون حين ينطفىء السراج الذى أستصبح به أعدائى بضع سنين ستذكرون انى كنت الكاتب الوحيد الذى عظمت نفسه فلم يضن على خصومه بكلمات الثناء حين يفرضها الواجب ‥) .

ويقول الأستاذ محمود تيمور عن معارك زكى مبارك ومساجلاته وهو رأى كاتب كبير منصف يقول (١) :

(وأما مشاجراته القلمية فقد كان فيها مطواعا لفطرته ‥ منساقا مع الشيمة البدوية او الريفية فى ايثار الصراحة العارية ‥

فهو اذا رأى شيئا ينكره انبرى ينقده ويشهر به غير آبه بما تواضع الناس عليه من الكياسة والحصافة والتزمت وتجنب الاحتكاك والهجوم ‥ وما كان زكى مبارك يؤمن بتلك الطراوة العصرية فى محاسنة الناس بعضهم لبعض ولكنه كان عارم الرغبة فى البوح بمكنون وجدانه دون محاباة او مواربة ومن ثم يكتسب حديثه طابع الخشونة والجفوة والاقتحام ‥ وقد أفاد الرجل من ذلك انه أراح ضميره بيد انه أحاط نفسه بضروب من العداوات والمناوآت وان لم يأبه بها اذ بسط كل ما يجول فى صدره ونفض عنه ما يثقله فصفا قلبه وسلمت طويته وسهل عليه ان يصافح فى يومه من يهاجمه فى أمسه صادقا فى مودته كما كان صادقا فى خصومته ولا يعوز القارىء ان يلتمس صفاء نفس زكى مبارك فى كثير مما كتب اذ يصادف فى تعليقاته تحية لرجل كانت بينهما علاقة فى درس او مجلس وذكرى لراحل كان له أستاذه أو كانت بينهما مشاركة فى عمل وما يشبه الترضى والاعتاب لرجل هاجمه من قبل أعنف هجوم معترفا بجميل له عليه أو معجبا برأى أبداه) .

---

(١) الهلال مايو ١٩٦٦ زكى مبارك فتى سنتريس .

هذه شهادة كاتب نزيه منصف ادلى برايه فى زكى مبارك كما كان بلا تحيز وبلا تحامل ..

وقد أشاع عنه بعض خصومه ان له ولعا بالغض من أفكار الناس ولكنه يفند هذه التهمة الباطلة ويذكر انه لا يهجم على رجل الا بعد ان يدرس مقاتله دراسة جيدة ليتحاماه عند النضال (فليس من المرؤة ولا من الشرف ان يسخر القلم وهو نعمة من الله علينا فيما لا يليق بالأدب الصحيح ...) .

وقد وصفه الدكتور طه حسين (١) بأنه حاد الشباب عنيفه وقد اتهم زكى مبارك ببداوة الطبع فى معاركه ومساجلاته وقد دافع عن نفسه فقال :

(ان بداوة الطبع التى كثر الكلام فى ذمها وتجريحها لم يكن من المثالب الا فى كلام الشعوبية وهم قوم أرادوا الغض من الشمائل العربية ولولا ذلك الهجوم الأثيم لبقيت من المحامد فكيف ينكر على رجل مثلى ظل بدوى الطبع فى زمن توارت فيه الصراحة وكثر فيه تنميق الأحاديث) .

ولم تدع كلمة الحق له صديقا كما يقول أكثم بن صيفى وكان زكى مبارك يؤمن بان تلك المعارك الأدبية والمساجلات القلمية هى فرصة لايقاظ الروح الأدبية من الجمود والبلادة يقول :

(ما قال أحد انه يبغضنى ويحقد على الا أطمأننت الى تبليغ رسالتى الأدبية فأنا أخلق الفرص خلقا لاذكاء نار الغضب والحقد فى القلوب التى طال عهدها بالغفوة والجمود ..) .

وقد كان لهجومه على العادات البالية والأوهام السخيفه ما أهاج عليه بعض أعياء الأدب الذين حملوا عليه وهاجموه وأثاروا حوله الأراجيف فوقف فى وجههم وقفة صلبة عنيفة يقارعهم ويساجلهم بقلمه الجبار يقول :

(لقد انتزعت حظى من أنياب الحيات السود فهو حظ مدوف بالسم الزعاف ولو استطاع قوم ان يتجاهلوا وجودى لفعلوا ولكن كيف يستطيعون وقد ضيقت عليهم الخناق وقهرتهم على الاعتراف بان العاقبة

---

(١) طه حسين : حديث الأربعاء ، ج ٣ .

للصابرين على مكاره الجهاد وهل كانت مكايدة الأعداء هى أصل النار التى يقذف بها قلمى ؟ العدو الحق هو الغلطة المطبعية فى سفر الوجود وهذه الغلطة المطبعية قد تسمى أوهاما أو عادات أو تقاليد ومن واجب القلم ان يصحح تلك الغلطة بلا ترفق ولا استبقاء) .

وقد امتشق قلمه وهاجم بعنف ادعياء الأدب يقول :

(كان من حقى ان أصوب سنان القلم الى صدور من ياكلون السحت باسم اللغة العربية) .

وحارب زكى مبارك النفاق والرياء يقول :

(سأظل فى ثورتى الى ان انتصر فى حرب ما أمقت من نفاق التقاليد وأستطيع ان أؤكد ان كثيرا من الأصنام التى تعبد فى مصر والشرق ستتحطم عما قريب وسينشأ فى مصر والشرق جيل جديد يبنى احكامه وقوانينه على أساس التجارب والمشاهدات وستهدم صروح العظمة التى تبنى على أساس التوقر والتحفظ ..

متى أشهد مصرعك ياعصر النفاق ؟ ...)

وهو يعتقد ان رسالته الأدبية التى وكل بها هى خلق الفرص لاذكاء نار الغضب فى القلوب وتأريق الجفون يقول :

(وأنا مع ذلك سأنتقم ـ وقد انتقمت ـ من أهل زمانى سأتركهم فى بلبلة فكرية لا تنجيهم من أهوالها صفارة الأمان .. سأتركهم فى حيرة أقسى وأعنف من حيرتى حين أهم بمواجهة نفسى ولن أموت الا وقد اوقدت فى صدر كل قارىء جذوة لا تخمد ولا تبيد وتلك هى رسالتى الأدبية ولن يجد منى الناس غير ما يروع ويهول .. فقد ابتلتهم المقادير بقلم يتقرب الى الله بتوزيع الروع والهول على أغنياء الأمنين) .

وقد خاض زكى مبارك مساجلات عديدة مع معظم أدباء عصره صاول طه حسين والعقاد والمازنى والرافعى وأحمد أمين والبشرى وعلى الجارم ومحمد لطفى جمعه واحمد زكى باشا وغيرهم وقد عاش زكى مبارك متمتعا بعداوات الرجال وقد عانى من ذلك مصاعب لو صادفت غيره لدحرته فى أقصر وقت وكان يخجل من ان يقول فى السر ما يعجز عن قوله فى العلانية (فانا قد أخاصم ولكن لا أعادى فما استطاعت الدنيا بأحداثها الفواتك ان تضمنى الى أرباب الضغائن والأحقاد فاتهم بالعنف والقسوة بغير حق فما كان من همى فى كل ما أثرت من المجادلات الا ايقاظ الروح الأدبى واللغوى اما ايذاء الأدباء والباحثين فهو معنى لا يمر فى خاطرى لأنى ارجو دائما ان يكون الهدم فى عنفه من صور البناء .

● الفصل التاسع

معارك زكي مبارك الأدبية

ما الذى تغنمون حين يذهب زكى مبارك من الوجود ؟

ما الذى تغنمون حين ينطفىء السراج الذى أستصبح به أعدائى بصنع سنين ؟

سأظل فى ثورتى الى أن انتصر فى حرب ما أمقت من نفاق التقاليد .. فمتى أشهد مصرعك يا عصر النفاق ؟!

زكى مبارك

- ١ -

بين زكي مبارك وطه حسين

« انـا اعرف ما تكره منى ٠٠ انت تكره منى الكبرياء ٠٠ وكيف وقد اعاننى الله على بناء نفسى ؟ وكيف وقد اقمت الدليل على أن الشباب المصرى خليق بعظمـة الاعتماد على النفس » ٠

زكي مبارك

دارت بين زكى مبارك وطه حسين معارك عنيفة .. وقد اتصل حبل المساجلة بينهما أمدا طويلا وتوالت المعارك بينهما لسنوات طويلة وأضخم معركة بينهما هى معركة (النثر الفنى) ..

فقد هاجم الدكتور زكى مبارك آراء الدكتور طه حسين فى نشأة النثر الفنى وتأثر البلاغة العربية بالبلاغة اليونانية فى كتابة الخالد (النثر الفنى فى القرن الرابع) الذى نال به درجة الدكتوراة بدرجة مشرف جدا من جامعة السربون سنة ١٩٣١ والذى استغرق فى تأليفه سبع سنين .. فلما عاد الدكتور زكى من باريس تجاهل الدكتور طه هذا الكتاب .. ولما سئل عنه .. قال : (١) (كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب) . وامتشق زكى مبارك قلمه وبدأت المساجلات بينهما والتى استمرت أمدا طويلا وبرغم عنف زكى مبارك فى هذه المساجلات الا أنه كان يكن حبا واعجابا خالصا بالدكتور طه حسين رغم ما كان بينهما ورغم الملاحم المشهورة التى وقعت بين الاثنين .. ويروى زكى مبارك بعض ذكرياته مع طه حسين وسبب مساجلاته معه فيقول (٢) (ان هذا الرجل تربطنى به ألوف من الذكريات يرجع بعضها الى العهد الذى كنت فيه طالبا بالجامعة المصرية القديمة يوم كان يصطنع العدل الذى يلبس ثوب الظلم فى امتحان الطلاب .. فقد ساعد مرة على اسقاطى فى امتحان

(١) الرسالة ، ٢٦ مارس ١٩٣٤ ، النقد والطربوش وزجاج النافذة .

(٢) زكى مبارك ، النثر الفنى ، ١٩٢٤ .

الجغرافيا ووصف الشعوب .. وأسقطنى مرة ثانية فى امتحان تاريخ الشرق القديم والسقوط فى الامتحان مما يحفظه الطالب المخلص لأستاذه المنصف ويرجع بعض الذكريات الى العهد الذى كنت فيه مدرسا بالجامعة المصرية الجديدة حين كنت أحمل اليه على أكتافى أحجار الأساس لنرفع القواعد من كلية الآداب .. وأدق ما يصل بيننا من الذكريات ما وقع فى ربيع سنة ١٩٢٦ يوم ظهر كتاب الشعر الجاهلى وثارت الأمة والحكومة والبرلمان وكان أصدقاؤه وزملاؤه بين خائف ومترقب وحاسد يتربص .. وكنت وحدى صديقه الذى لا يهاب وزميله الذى لا يخون .. ولكن حماستى للفكرة التى أدافع عنها وغرام الدكتور طه بنقضـها فى رسائله وأحاديثه ومحاضراته كان مما حملنى على مقاومته بعنف وقوة حتى ليحسب القارىء أن بيننا عداوة سقيت لأجلها القلم قطرات من السم الزعاف حين عرضت لدحض آرائه فى فصول هذا الكتاب (النثر الفنى) أكتب هذا وقد شرق الدكتور طه وغربت ولم يبق بيننا الا أطيـاف من كرائم الذكريات قلبى بهـا ضنين .

وعندما تجاهل الدكتور طه حسين كتـاب « النثر الفنى » عاود زكى مبارك المساجلة فهاجم طه حسين بعد أن أخرجه من الجامعة المصرية .. فقال : (أعلن الدكتور طه حسين بعد اخـراج الشعر الجاهلى نـداء قال فيه) : أشهد أنى أومن بالله وملائكته ورسله واليوم الآخر .. انت تؤمن بالله وكتبه يا دكتور طه وأنت تكذب التوراة والقرآن اعتمادا على رأى خاطىء سرقته من أحد المبشرين .. ؟ أنت لم تترك حزبا الا خدمته .. ولا جريدة الا توددت اليها بعد عديد من الرسائل الطوال .. ذهبت الى باريس على نفقة الجامعة ومضيت أنا متوكلا على الله .. ولم تكن رسالتك عن ابن خلدون الا نسخا من آراء المسيو كازانوفا .. واتصلت أنا بمسيو مرسيه ففرضت عليه آرائى فرضا .. (وقف المسيو ماسنيون يوم أديت امتحـان الدكتوراة فقال : (انى حين اقرا أبحـاث طه حسين اقول هذه بضاعتنا ردت الينا .. وحين أقرأ أبحاث زكى مبارك أشعر بانى أواجـه شخصية جديدة) ..

مضيت فانتهبت آراء المستشرقين .. توغلت فسرقت حجج المبشرين وكان نصيبك ذلك التقرير الذى دمغتك به النيابة العامة وانت تعلم انه ليس لك رأى واحد وصلت اليه بعد جهد وبحث .. كنت لوحة اعلانات لاتذيع الراى الا لتغيظ الجمهور ولتصبح حديث النـاس فى الأندية والمجتمعات .. أنت تعرف أنى لم أنل ألقاب الجامعة المصرية بلا جهاد .. وأنت اسقطتنى فى امتحـان الليسانس مرتين واشتركت فى امتحـان الدكتوراة الذى أديته أول مرة مع أنك لم تكن عضوا فى لجنة الامتحان

وكان لخصومتك الصورية تأثير فى تأخير الدكتوراة التى حظيت بها للمرة الثالثة فلم أصل اليها الا بعد جهاد سبع سنين ٠٠) ٠

ثم عاد الدكتور زكى مبارك الى منصبه فى الجامعة المصرية سنة ١٩٣٣ ابان الفترة التى كان طه حسين فيها خارج الجامعة ٠٠ وكانت بينهما خصومة حادة عنيفة فلما عاد الدكتور طه حسين الى الجامعة مرة أخرى سنة ١٩٣٤ رفض تجديد عقد زكى مبارك ويصور زكى مبارك قصة خلافة مع طه حسين واخراجه من الجامعة المصرية ٠٠ يقول : (١) « انى بدأت أناوش الدكتور طه حسين منذ سنين حين تبينت أنه كالطبل الأجوف وأنه لايعرف من تاريخ الأدب العربى الا قشورا عديمة المحصول وكنت كلما هاجمته تخاذل وضعف وخشى عاقبة النضال ٠٠ ثم اتفق انى عينت فى الجامعة المصرية فبدا له أن يتشجع ويناوشنى ظنا منه بأنى أخاف من المناوشات حفاظا على منصبى فى الجامعة ودفعا لمغبات القتال امهلته قليلا وتركته يصول فى مناقشتى ويجول ٠٠ وكذلك أمليت له حتى جاءت الموقعة الحاسمة يوم عين أحمد نجيب الهلالى وزيرا للمعارف وكان يعرف الصلة التى بينه وبين نجيب الهلالى ٠٠ وفى هذا ما يقوى المحالفة بين رجلين لهما خصم لاسند له بين الأحزاب ولا عم له فى الحكومة ولا خال ٠٠ فى تلك الأيام أراد طه حسين أن يناوشنى ٠

وكان يثق بانى سأسكت فلا أجيب ورأى فريق من زملائى فى الجامعة انى اتسامح مراعاة لالظروف ٠٠ فأقسمت لأجعلنه مثلا فى الآخرين وكذلك كتبت مقال (طه حسين بين البغى والعقوق) ٠٠ ذلك المقال الذى أبكى طه حسين بالدمع السخين وكان يظن أنه لن يعرف البكاء ٠٠ وعاد طه حسين الى الجامعة (فى زفة) لم يسمع بمثلها منذ كان يسكن فى كفر الطماعين وظن الناس انى سالاينه وأداريه ولكن هيهات فقد تجاهلت عودته سبعة أيام الى أن جمع بيننا مجلس قسم اللغة العربية - فى تلك الأثناء أراد الشيخ أمين الخولى ان يصلح ما بيننا ٠٠ وكنت احسب ان الصلح لن يزيد على المصافحة وتبادل التحيات ولكنى فوجئت مفاجأة لم تخطر على بال فان الأستاذ أمين الخولى انتظر حتى اجتمع بعض الزملاء ثم نهض فقال : هذه أول جلسة يحضرها طه حسين بعد عودته ٠٠ وأنا اقترح ان تلقى كلمة ترحيب وافضل ان يلقيها الدكتور زكى مبارك لأن بينهما اشياء يجب أن تزول) وكان موقفا فى غاية الحرج ولكنى تحفظت اذ كنت أعرف أن العداوة التى بينى وبين الدكتور طه يصعب أن تزول ٠٠ ومن الحزم الا أقول كلاما ينطوى على تودد أو ترفق فوقفت

---

(١) البلاغ ، ٢٢ أغسطس ١٩٣٥ ، كيف هاجمت طه حسين ؟

وقلت : « انى ارحب بعودة الدكتور طه وقد زاملته من قبل ثلاث سنين وكنت من قبل من تلاميذه الأوفياء والذى وقع بينى وبينه لم يكن فيه شئ خارج الا المقال الذى نشرته فى « البلاغ » وهو مقال أعرف أن فيه شيئا من الشطط ولكنى لا أعتذر عنه لأنه من بعض ما علمنى ومن الخير أن يتناسى لأن مصلحة العمل توجب الوفاق » . وقد ابتسم الأساتذة حين ذكرت ان الشطط كان من بعض ما علمنى وعدوها خطبة لبقة فيها ترضية وفيها احتراس .. اما موقفى من جلسات قسم اللغة العربية فكان دائما موقف المعارضة الصريحة لنزعات طه حسين وكان لايسلم منى الا بأخذ الأصوات وكان أساتذة اللغة العربية لايرون فائدة فى معارضته اذ أنهم كانوا يعرفون ان كل شئ مصيره الى هواه بفضل الوسائل التى يعرفها الجميع .. لا انكر انى أسرفت .. ولكن الأيام أرتنى أن الحزم أوجب .. ما استطعت أن أناقش من يزعم أنى قابلت الدكتور طه حسين بالترحيب .. وانه مع ذلك لم ينس ما كويت به جبينه من قوارع التثريب ولم يغفر ما كشفت من سرقاته وكان الناس يحسبونه من المبدعين .

وفى أوائل شهر مايو دعانى الدكتور منصور فهمى الى مكتبه وقال :

ارسلت ادارة الجامعة تسأل عن تجديد العقد والنظام يقضى بأخذ راى الدكتور طه حسين فاذهب يابنى وصفى ما بينك وبينه وسأحفظ الخطاب حتى يتم بينكما الصفاء فأجبت الدكتور منصور فهمى بما نصه : « أنا على أتم استعداد لتصفية مابينى وبين الدكتور طه حسين ولكنى لا افعل ذلك فى هذه الأيام ولو أنك اقترحت ذلك منذ شهرين لقبلت اما الآن فلا تسمح نفسى بمصافحة الدكتور طه وأنا أعلم أن لذلك دافعا من الغرض ومع ذلك ما الذى يزعجك يا سيدى العميد .. ؟ اتظن ان الدكتور طه ينتهز هذه الفرصة ويتشفى منى ؟ انه أعقل من أن يقترف مثل هذا الانتقام المفضوح » . فابتسم الدكتور منصور فهمى ابتسامة مرة وقال : « انت يابنى تسرف فى حسن الظن بالناس » .

ولكن ما الذى حدث .. ؟ لقد جرت صراحة زكى مبارك المتاعب له فحورب فى رزقه واخرجه الدكتور طه من عمله وقال حين طلب اليه تجديد عقده .. « انا لم أستشر فى تعيينه .. فلا أستشار فى تجديد عقده » .

وخرج زكى مبارك من الجامعة .. :

واثار هذا العمل العديد من الأدباء والمفكرين فكتب المازنى مقالا قال فيه : « انى لأحدث نفسى أحيانا بأنى لو كنت أقول الشعر فى هذه الأيام لرثيت طه حسين فانه يخيل الى انه قد مات طه حسين الذى عرفته

واحببته وأكبرته وجاء غيره الذى أنكره) وكتب المازنى معاتبا الدكتور طه حسين فقال : (١)

« ان الدكتور طه حسين أصبح ممن يملكون اشباع البطون واجاعتها وأنه صار يضرب اللقمة التى ترتفع بها اليد الى الفم ويطيرها فتسقط على الأرض فتفوز بها الكلاب ويحرمها الانسان » . وأثار هذا العمل الدكتور زكى مبارك وأحس بالمرارة فى أعماقه فكتب مقال (طه حسين بين البغى والعقوق) .. وقال كلمته المعروفة « لو جاع أطفالى لشويت طه حسين واطعمتهم من لحمه » .. فكتب المازنى يقول : « لقد عرفت أن فى مصر رجلا عظيما .. » وأثار هذا العمل سلامة موسى فكتب يقول : يجب بالحق ان نخجل من مجازاة زكى مبارك على هذا الاحسان بمحاربته فى عيشه وعمله ولست اشك فى ان الجامعة المصرية تخسر باخراجه منها اكثر مما يخسر هو .. فان رجلا له مثل كفاءته يستطيع أن يجد العيش الرحب والفرصة المواتية لخدمة الأدب فى مدرسة فرنسية أو أمريكية بالقاهرة ولكن هذا الايلام للنفس يعكر صفوها ويشكك الانسان فى القيمة التى تعود عليه من الاخلاص والجد » .

وقال زكى مبارك : « ليس عيبا أن يجوع المرء وانما العيب ان يكسب الانسان الرزق على حساب المروءة والرجولة والشرف والكرامة » .

ويتحدث الدكتور زكى مبارك عن ظروف تلك المساجلة فيقول : « الذى بيننا لم يكن خلافا فى الرأى وانما هو قتال عنيف بين شخصين .. فالدكتور طه يرى أننى كنت تلميذه ومن واجب التلميذ فيما يزعم الا يخالف الأستاذ ما انا فارى الدكتور طه رجلا قليل العلم والمعرفة بالأدب العربى أراه مستمرأ السطو على آراء المستشرقين وأراه فى حياته الجامعية نموذجا للفوضى والقلق والاضطراب .. فقد يقولون وكيف سكت زكى مبارك عن نشر عيوب طه حسين وهو يصاحبه منذ خمسة عشر عاما وأجيب بأن الدكتور طه ابتدأ التدريس فى الجامعة المصرية قبل أن نقدم الدراسات الأدبية فكان منذ سنين مستور العيوب على أن الخواص يعرفون أنى بدأت أعارضه منذ سنة ١٩٢٧ حين أطلعت على عجزه الفاضح وعرفت أنه يعيش من سرقة آراء الأدباء والعلماء وأنتم تعرفون أننى رجل صريح لم تستطع الأيام أن تروضنى على المجاملة والمداورة فلم يكن خافيا أن يعرف الدكتور طه أننى لا أحترمه ولا أحترم مسالكه الأدبية ولا أحترم تهالكه الفاحش على موائد الأحزاب وكذلك هدته غريزته الى

---

(١) البلاغ ، ١٩٣٤ .

وجوب محاربتى فى عملى فى الجامعة المصرية وساعده على ذلك ناس كنت شجا فى حلوقهم وكان هو فى أنفسهم مثال الجاهل الأمين فان كان الدكتور طه قد انتصر حين وجد من يساعدونه على اخراجى من الجامعة وليتذكر من عاونوه على شفاء صدره ان انتصارهم ليس الا هزيمة شنعاء وسوف تعلمون ٠٠ لقد انكشف أمر طه حسين حين أصدرت كتاب (النثر الفنى) وقد بينت اغلاطه وسرقاته وتحديته أن يدافع عن نفسه فتخاذلت قواه ولم يملك الجواب وعرف الأدباء فى المشرق والمغرب أنه لايملك شيئا أصيلا وأن مؤلفاته ليست الا هلاهيل انتزعها من كلام الناس وأن ما يدعيه من الآراء ليس الا صورا ملفقة انتزعها مما يقرأ ويسمع » ٠

« ان قلمى ليس الا محنة صبها الله على طه حسين ٠٠ ولعله انتقام من الله صوبه الى صدر ذلك الشخص الذى اجترأ على التوراة والقرآن واستطاع أن يقول فى وقاحة (للتوراة أن تحدثنا وللقرآن أن يحدثنا) كأن العلم لايكون الا حيث تقع مساقط هواه أما التوراة والقرآن فهما ظنون فى ظنون » ٠

★★★

وقد دارت عدة معارك ومساجلات عنيفة بينهما حول الفكر اليونانى ٠٠ فالدكتور طه حسين يمجد الفكر اليونانى ويعلن أنه مصدر الثقافة الانسانية والدكتور زكى مبارك يخالفه فى تلك النزعة منذ كان تلميذه فى الجامعة المصرية ٠٠ وقد رد الدكتور مبارك على طه حسين قائلا : « قال طه حسين أن الأدب الذى يمثل المركز الأول بين الآداب القديمة هو الأدب اليونانى ثم يجىء الأدب العربى ٠٠ ومن المجاملة المخدرة أن يعلن الدكتور طه أن الأدب العربى أقوى من الأدب الفارسى واللاتينى ٠

الأدب اليونانى فى المكان الأول ٠٠ هذا صحيح ٠٠ ولكن ما رأى الدكتور طه أن الأدب العربى له المكان الأول من الناحية العاطفية والتمثيلية فانه فى هذا الباب يمتاز امتيازا صريحا لايقبل الجدل ولا النزاع ٠٠ والأدب العربى له المكان الأول من الناحية الدينية فان البلاغة الدينية باب هام من أبواب البلاغات فى الأدب القديم والحديث » ٠

ويقول فى الرد على آراء الدكتور طه حسين (وعندنا أدب الصوفية ٠٠ ايستطيع باحث أن يزعم أن اليونان كان عندهم هذا الصفاء فى الجوانب الروحية ٠٠ ؟ الأدب العربى يسكت عنه الأوربيون عامدين لأنه يمثل الحضارة الاسلامية وهى حضارة كانت تبغى اوربا هدمها منذ ازمان ٠٠ ولانه من جهة ثانية مصبوغ فى أكثر موضوعاته بصبغة الجد الرصين واوربا فتنت بماق الأدب اليونانى من نزق وطيش وخلاعة ومجون

بدليل ان اكبر شاعر شرقى راج ادبه فى اوربا هو عمر الخيام لأنه شاعر اللذة والقلق والارتياب) .

وقد أعلن الدكتور طه ان عقلية مصر عقلية يونانية وان الاسلام لم يغير تلك العقلية .. فرد عليه الدكتور مبارك وقال : ان مصر ظلت ثلاثة عشر قرنا وهى مؤمنة بالعقيدة الاسلامية .

★★★

وقد دارت مساجلات عديدة بين الدكتور مبارك والدكتور طه بسبب اعتراض طه حسين على مذهب زكى مبارك فى الكتابة فى الوجدانيات وأحاديثه عن الحب والعواطف .. وترجع بذور تلك المعارك حين اخرج الدكتور مبارك كتابه (مدامع العشاق) .. فكتب الدكتور طه حسين يعلن ان هذا الكتاب يحرض على الشهوات ووصف مؤلفه بانه حاد الشباب عنيفه ثم تجددت المعارك والمساجلات حين اخرج زكى مبارك كتابه الوجدانى الضخم « ليلى المريضة فى العراق » سنة ١٩٣٩ فكتب الدكتور زكى يرد على طه حسين ويصور مذهبه فى الكتابة فى الوجدانيات وعن السر فى تشريحه عاطفة الحب تشريحا أدبيا وجدانيا يقول (١) الدكتور زكى مدافعا عن نفسه ومذهبه الأدبى فى كلمة وجهها الى الدكتور طه حسين يقول : « أيها الأستاذ الجليل كنت سالتنى يوم لقيتك بوزارة المعارف فى صباح اليوم الثامن من هذا الشهر عن سبب اهتمامى بالحديث عن الحب وقد جرى ذكر كتاب (ليلى المريضة فى العراق) وكانت الابتسامة التى شع ضوءها فى ملامح وجهك تحمل معنى التعجب من أن تسمح الدنيا بان اعيش بقلب المحب المتيم المتبول .. فاجبت بأن شواغلى فى الحياة قد تجعل الحب آخر ما يشغل قلبى ولكن حديثى عن الحب صار مذهبا أدبيا أشرح به ما يتعرض له الناس فى ميادين النوازع والأهواء وانا اريد أن أخلق جوا من البشاشة أدفع به ظلمات الزمان . فابتسمت ابتسامة لها معنى وقلت: أخلق البشاشة فى الزمان ان استطعت : « ونحن لم نبتكر الكلام عن الحب فهو عاطفة عرفتها الأرواح منذ أقدم عهود الوجود وما قيمة الدنيا اذا خلت من الحب ولأى غرض يحيا الناس اذا أصيبت افئدتهم بالاعتلال فلم تحس ذلك الروح اللطيف .. ؟

وهل ينصرف القلب عن الحب وهو فى عافية .. ؟

« فانا أتحدث عن الحب بصفة جدية واتعقب اخباره وآثاره فى كل ما ارى ــ وما اسمع .. وآية ذلك انى لم انته ولم انزجر بعد

---

(١) الرسالة ـ تشريح عاطفة الحب ، فبراير سنة ١٩٤٠ .

أن رأيت غضبتك فى جريدة السياسة يوم ظهر كتاب (**مدامع العشاق**) وقد قلت أنه يحرض على الشهوات سامحك الله ·· وغفر لك ·· :

« وأنا أجد كل الجد فى كل شىء أجد فى الصداقة والعداوة ·· وأجد فى الشك واليقين ·· وليس أمامى مجال للمزاح وكيف يتسع وقتى للمزاح ·· وما قضيت يوما خاليـــا من الشقاء بالدنيا والناس ·· : فما أرضاك منى فهو حق ·· وما نفرك منى فهو حق ·· وما خصصتك بغضبى ورضاى الا لأنى أعرف أنك تعاقر من فرح الحيـــاة ·· وحزن الحياة ·· بعض ما أعانى : ·· وأنا موقن بأنك تفهم عنى ما أريد ·· لأنك تعرف من سريرتى مالا يعرف سواك ··

« كنت أحب أن أولف كتابا عن (**ليلى المريضـــة فى الزمالك**) : أفصل به أسرار المجتمع ·· وسرائر القلوب ·· فى هذه البلاد بطريقة روائية تفيض على شبابنا روحا من أرواح الوجدان ·· ولكنى خشيت ملامة الفارغين من أشباه الأدباء فهل أرجـــو أن يصر قلمك بمـا تهيب منـــه قلمى ·· ؟

لقد وضعت لك الخطة بكتاب (**ليلى المريضـــة فى العراق**) فأرنى كيف تصنع وكيف تصور عصرك وزمانك كما صورت عصرى وزمانى ·· ؟ ·· نحن نريد أن نشغل الناس فى أخـلاقهم وأذواقهم واوهامهم ·· نريد أن نسيطر عليهم بالأدب والعقل بعد أن سيطر عليهم السياسيون بالمناوشات الحزبية والسياسية ·· فهل أنت مستعد لاقتحام هذا الميدان ·· ؟ نحن نفكر فى خلق عصبية أدبية تعلو على العصبية الحزبيـــة ولن نصل الى ذلك الا يوم يؤمن الجمهور بأن الأدب هو الترجمان الصـادق لشهوات العقول ·· وللعقول شهوات أعنف وأخطـــر من شهوات الأحاسيس وتثقيف الشهوات العقلية يصـــل بنا الى منازل الحكماء ويطمعنا فى الخلود ·· ليتنى أستطيع مصـــارحتك بكل ما اريد من خلق الحيويـة الأدبية والفنية ·· وكيف أستطيع وأنت كثير التلوم والتعتب ولا يصل اليك الرأى الصريح الا مشفوعا بتهمة التحامل عليك : أنت على كل حال من ذخائرنا الأدبية ·· وانا اقبلك على علاتك كما تقبلنى على علاتى ·· فهل يكون من الفضول ان أصارحك بأنك لاتقبل على حياة الوجدان الا وأنت خائف مع انك قوى العبـارة فى الافصاح عن وساوس نفســك ونوازع قلبك ·· ؟؟ وقد اسـتقام لك أمر مصيرك الأدبى وصار اسمك من اظهر الأسماء ؟ ماخوفك من الاعتراف بأن عاطفة الحب تستحق التشريح ·· ؟ وما الذى يدعوك الى الاحتراس حين اقترح عليـك تاليف كتاب عما احس به شعراء العرب من النوازع الوجدانية ·· ؟؟ أتخاف أهل الجمود ·· ؟؟

اطمئن ياسيدى الدكتور فهم فى شغل عنا بمصايرهم الدنيوية ولن يفرغوا لنا الا بعد أن نفرغ من اعلام الناس بما نريد من شرح أوهام العقول والقلوب ٠٠ أما بعد فأنا أعلن عتبى عليك لأنك ابتسمت ابتسامة فيها طيف من الأعتراض على اهتمامى بتشريح عاطفة الحب ٠٠ وأصارحك بأن هذا مذهب ادبى سأحرص عليه مادمت املك القدرة على تشريح العواطف والأحاسيس ٠

فافتح قلبك ياسيدى الدكتور لوحى الحياة والحب وأعلم أن الابتسام الصادق هو أثمن ما يملك الرجال ٠٠) ٠

★★★

وقد أخذ الدكتور طه على الدكتور مبارك ثنائه المستمر على نفسه وزهوه واختياله بنفسه وفنه ٠٠ فكتب الدكتور زكى يدافع عن نفسه فى كلمة وجهها الى الدكتور طه يقول (١) :

« أنا أعرف ماتكره منى ٠٠ أنت تكره منى الكبرياء ٠٠ وكيف وقد أعاننى الله على بناء نفسى ٠٠ ؟ وكيف وقد أقمت الدليل على أن الشباب المصرى خليق بعظمة الاعتماد على النفس ٠٠ ؟ وهل رأيت رجلا مثلى ينهض بأوطار الشباب وهو مثخن بجراح الزمان بعد الأربعين ٠٠ ؟

هل رأيت رجلا قبلى يؤلف الكتب الجيدة فى البواخر والقطارات والسيارات ؟ ومن يصدق أنى أنفق فى سبيل الورق والمداد أضعاف ما ينفق بعض الناس فى سبيل الطعام والشراب ٠٠ ؟ »

وقد وصف الدكتور طه حسين الدكتور زكى مبارك « بأنه الرجل الذى لايخلو الى قلمه الا احتال على رأسه عفريت » ٠

فماذا قال زكى مبارك ٠٠ ؟

كتب زكى مبارك يرد على طه حسين ويدافع عن نفسه يقول :

الرجل الذى لايخلو الا قلمه الا احتال على رأسه عفريت ٠٠ تلك كلماتك وأنا عنها راض وبها مختال ٠٠ فما العفريت الذى يحتل رأسى حين أخلو الى قلمى ٠

أيكون هو الحق الذى سماه الفرنسيون (Cénie) ... ؟

---

(١) مجلة الرسالة ، الى الدكتور طه حسين ، ١٩٤٠ ٠

ان كان ذلك فانت تشهد لى بالعبقرية والقول ماقال طه حسين : وهل تكون العبقرية الا من نصيب من يخاصم رجلا مثلك فى سبيل الحق ؟

★★★

وبعد وفاة الدكتور زكى مبارك بعدة سنوات أدلى الدكتور طه حسين بآراء غريبة وظالمة ٠٠ فقد سأله الأستاذ انور الجندى عن رأيه فى زكى مبارك ٠٠ (١) فقال : (كان يذكرنى دائما بأبى حيان التوحيدى ٠

فقد كان أبى حيان عالما ممتازا وكان رائع العبارة ولكنه كان لايبالى الحق ٠٠ ولايبالى الباطل ٠٠ وقد أنهى حياته بأن أحرق كتبه كلها ٠٠ وغاية القول فى زكى مبارك :

أنه فلاح أزهرى سافر الى أوربا ولم يستطع مقاومة الحضارة الحديثة واندفع وراء اللذات البسيطة السهلة » ٠

وهذا رأى فيه الكثير من التحامل والتجنى على زكى مبارك ٠٠ فليدلنى الدكتور طه حسين على انسان يترك وراءه زوجته وأولاده ويغترب فى باريس بلا مساعدة ويكافح فى عصامية فريدة رغم فقره ورقة حاله ويظفر فى النهاية بأرفع الشهادات وأعظمها ويؤلف الكتب الجياد ٠٠ فما رأيك اذن يا دكتور طه فى مثل هذا الشاب ٠٠ ؟ هل تراه شابا طائشا ماجنا ٠٠ ؟ وهل مثل هذا الرجل لم يستطع مقاومة الحضارة الحديثة وهو الذى عاد من باريس أشد ايمانا بعروبته وتراثه ووطنه ٠٠ كنت انتظر أن تنصف زكى مبارك ٠٠ ذلك الجندى المجهول بعد ان عانى من العقوق والجحود حيا وميتا ألم يكفه أنه عاش غريبا ومات غريبا ٠٠ ؟

---

(١) أنور الجندى ، اضواء على حياة الأدباء المعاصرين ١٩٥٥ ٠

٢

زكي مبارك مع العقاد

ان العقـاد تلاطف مع رجـال وتحـامل مع رجال .. ثم صـال وجال حين تكلم عن الدكتور زكي مبارك .. كأنه يجهل أن للدكاترة زكي مبارك قلما ينسف به الجبال حين يشـاء ؟ !

زكي مبارك

دارت عدة معارك ومساجلات بين الدكتور زكى مبارك والعقاد ٠٠ ولكنها لم تكن عنيفة بل كانت فى معظم الأحوال هينة رفيقة ولم تحتدم المعارك والمساجلات بينهما كثيرا ٠ كتب زكى مبارك مقالا يعلن رأيه فى شخصية العقاد وأدبه ومنهجه فى النقد فقال (١) عنه : (العقاد فى الكتابة والنقد شخصان مختلفان كل الاختلاف ٠٠ فالعقاد الكاتب السياسى يرمى ويرمى ٠٠ ويظلم ويظلم فى كل وقت فهو من أبناء السماء عند قوم ومن أبناء الأرض عند آخرين ٠٠ أما العقاد الكاتب الأدبى فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع ٠٠ والعقاد الناقد لاينحرف عن القصد الا فى حال الحكم على من يعادى من المعاصرين أما حكمه على المفكرين الذين بعد عهدهم فى التاريخ فهو فى غاية العدل والسداد وقد يصل به الرفق الى المبالغة فى اظهار المحاسن واخفاء العيوب) ٠

ولم ينس العقاد رأى زكى مبارك الصريح فيه وفى أدبه ومنهجه النقدى فكتب بعد فترة تقارب العامين من مقال زكى مبارك يعلن رأيه فى شخصية زكى مبارك ومذهبه فى الأدب والنقد ٠٠ وقد تحامل فيه على زكى مبارك غاية التحامل وتجنى على أدبه وكتاباته قال(٢) : (أما زكى مبارك الكاتب فانه لايستغنى عن زكى مبارك بحال من الأحوال اذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم فى بعض الأحيان لأن زكى مبارك هو موضوع زكى مبارك الوحيد واذا كتب ألف مقال فى هذا الموضوع وقرأت منها واحدا ففى ذلك الكفاية كل الكفاية ومع ذلك يبدو زكى مبارك أقل الكتاب شخصية فى حياته الكتابية لأن طابعه غير ظاهر فى أسلوبه ولا فى نشأته ولا فى آثاره ٠٠ وقد حضر الأزهر والجامعة المصرية وجامعة من الجامعات فى البلاد الفرنسية ولكنه لايمثل الأزهر ولا الجامعة المصرية ولا جامعة فى فرنسا أيا كانت ٠٠) ٠

---

(١) الرسالة ، يناير سنة ١٩٤١ ٠

(٢) الاثنين ، ٢٦ ابريل ١٩٤٣ . ادباؤنا على المشرحة ٠

وقد تجنى العقاد على زكى مبارك غاية التجنى وظلمه أشد الظلم حين صرح بهذا الكلام .. ومن غير المشكوك فيه ان زكى مبارك يتسم أدبه وتتسم جميع كتاباته بقوة الذاتية .. وقد خالف الكثير من النقاد المنصفين رأى العقاد المتجنى فكتب دريني خشبة يعلن رأيه الصريح فى أدب زكى مبارك ومذهبه النقدى وأسلوبه وقال (١) : « وللدكتور زكى مبارك مشخصات أسلوبية معروفة وقد ظلمه الأستاذ العقاد حين جرد أسلوبه من مقومات الشخصية ومشخصات أسلوبه أكثرها أنماط جامعية فهو يكثر من (على التحقيق .. والنص على كذا .. وهذا معناه وهل يمارى منصف فى كذا) ... ؟ ثم يقول (هذا الى ما تفيض به مؤلفاته من روح الاعتداد بالنفس والزهو الذى أعجب به من زكى مبارك ولا أعيبه عليه .. ولله ما أظرف ما يجيب به حين يسأل عن هذا فيقول : زمان لايريد أن ينصفنى .. فلماذا لا أنتصف منه لنفسى) هذا هو رأى دريني خشبة فى زكى مبارك ..

وامتشق زكى مبارك قلمه وكتب يدحض آراء العقاد كل على حدة وقال يدافع عن نفسه (٢) : (قال الأستاذ العقاد ان الدكتور زكى مبارك أقل الكتاب شخصية فى حياته الكتابية وأن أسلوبه الكتابى معروض لتوقيع من يشاء .. » فبأى حق وبأى منطق يقول الأستاذ العقاد هذا الكلام الغريب .. ؟ هل يستطيع أن يدلنا على كاتب يضع اسمه على كتاب (التصوف الاسلامى) (أو كتاب النثر الفنى) (أو كتاب عبقرية الشرف الرضى) (أو كتاب ذكريات باريس) (أو كتاب اللغة والدين والتقاليد) الى آخر ما أخرجت من المؤلفات .

« ثم يقول الأستاذ العقاد ما نصه بالحرف » الدكتور زكى مبارك حضر الأزهر والجامعة المصرية وجامعة باريس ولكنه لايمثل الأزهر ولا الجامعة المصرية ولا جامعة باريس ..) .. وهذا كلام يسرنى وان أراد به العقاد ايذائى .. فانا ابغض الاستعباد بالمعاهد والمذاهب واعتقد أن أدبى سيعيش بعد أن تصبح تلك الجامعات خبرا لاتعيه ذاكرة التاريخ ..

زكى مبارك .. هو زكى مبارك كما قال العقاد .. وهى أصدق كلمة قالها العقاد وعلى كثرة ما صدق فى أحكامه الجوائر على أدباء هذا الجيل .

---

(١) دريني خشبة ، الرسالة سنة ١٩٤٤ .

(٢) الاثنين ، ٣ مايو ١٩٤٣ .

قد يقول الأستاذ العقاد كما قال الدكتور طه حسين (ان شخصية زكي مبارك المؤلف قوية كل القوة وانما الخلاف في شخصية زكي مبارك الكاتب) ·· واقول ان هذا ظلم من الدكتور طه والأستاذ العقاد ·· وأنا أتحدى هذين الرجلين بكتاب (ليلى المريضة في العراق) فهو آية من آيات البيان ·

ثم يقول زكي مبارك (مجموعات الرسالة تشهد بما أملك من قوة الذاتية وهي أيضا تشهد بأن أسلوبي أقوى من اسلوبه وابلغ وبأني أحلق في آفاق لايصل اليها ولو استمسك بأوهام الخيال ·· والعقاد يعرف في قرارة نفسه بأنه لايقدر على مجاراتي في أي ميدان) ·

ويقول : (العقاد شاعر كبير ولكنه لايستطيع أن يكون أشعر مني وله أن يحاول مصاولتي في ميدان الشعر ان أراد ··

« قال الأستاذ العقاد » زكي مبارك الكاتب لايستغني عن زكي مبارك بحال من الأحوال اذا استغنى المؤلفون عن أنفسهم في بعض الأحيان » وهذا حق وصدق وهو الدليل على ما أملك من قوة الذاتية ·· واذا استغنى العقاد عن نفسه فأنا لا أستغني عن نفسي لأنها أثمن ما أملك ··

وأقول ان في نفسي كنوزا لا تخطر على بال العقاد ، العقاد الذي لا يصلح لشيء الا اذا استأنس بما يقول الباحثون هنا او هناك العقاد مترجم ، وأنا مبدع ، والفرق بعيد بين الترجمة والابداع ·

أما بعد ·· فما الذي دعا العقاد الى مناوشتي بمثل ذلك التحامل الذي لايليق بمن يكون في مثل منزلته الأدبية ·· ؟ وما عدوانه على كاتب ذكره بالخير في أكثر ما أنشأ من المقالات والمؤلفات ·· ؟

وفي موضع آخر عاود زكي مبارك المساجلة وكتب ردا عنيفا مهاجما فيه العقاد ومدحضا لآرائه يقول (١) :

(ان العقاد تلاطف مع رجال وتحامل مع رجال ·· ثم صال وجال حين تكلم عن الدكتور زكي مبارك كأنه يجهل ان للدكاترة زكي مبارك قلما ينسف به الجبال حين يشاء) ·· ؟

« ولقد صبرت طويلا على تحامل الأستاذ العقاد وتركته يفرج عن حقده بمناوشتي من وقت الى وقت بعد ان أجليته عن ميدان الشعر والكتابة والتأليف ·· ولكنه لم يعرف أني متفضل بالصبر عليه ··

---

(١) الصباح ، ٦ مايو ١٩٢٣ ، جناية العقاد على العقاد ·

ولم يفهم انى لو شئت لقومته بأقل عناء ·· والعقــاد الظريف يقول : أنى حضرت جامعة من الجامعات فى البلاد الفرنســية ·· فهل يجهل العقــــاد أنى تخرجــت فى السربون وأنى أملك اللقب الذى يحمله منصور فهمى وطه حسين ··

« ثم ماذا ؟ ثم يبقى ان أسأل العقاد عن رايه فى شاعرية الدكتور زكى مبارك وهو لا يقدر على التوهم بأنه اشعر منى ·

« ثم ماذا ؟ ثم اسأل عن اللقب الذى خصــك به الدكتور طه حسين حين جعلك أميرا للشعراء ؟

« أتدرى كيف ضاع منك ذلك اللقب ؟

« ضاع لأن الدكتور طه بشهادتك فى نفس مقالك لا يملك مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية ·

« وكان من المنتظر من فهمك وذوقك أن لا تبخل بالحاســة الفنية على من جعلك أمير الشعراء ؟

« وهل غاب عنــا أن الدكتــور طه منحك لقبا لا يملك منحه بأى حق ، فانه كما قلت لا يملك مقاييس الشعر والبلاغة الشعرية » ؟

مالذى يمنع العقاد من التخرج فى السربون ان كان من أصـــحاب العزائم والمواهب ؟ والسربون باقية فحاول الانتساب اليها يا حضرة المفضال ان أردت فقد تصير دكتورا مثلى بعد حين وقد تصير دكاترة كما صرت أنا ·· ولن تستطيع » ·

★★★

وبرغم تلك المساجلات والمعارك بينهما الا أن الدكتور زكى مبارك كان معجبا بالعقاد وبأدبه يقول عنه :

أما بعد ، فأنا آسف لايذاء كاتب لم يكن فى نيتى أن أوجه اليه أى ايذاء فان بدا له ان يجـاهر بالعداوة أكثر مما صنع ، فهو المســئول عمــا يقــع !

(وانحراف العقاد فى كتاباته السياسية والنقدية يشهد بأنه سليم الشخصية وللسلامة هنا مدلول خاص ·· هو اكتمــال الحيوية والأحساس

« ·· فالعقاد يصادق بعنف ويعادى بعنف فأصدقاؤه ملائكة ولو كانوا شــياطين واعداؤه أبالسة ولو كانوا ملائــكة مقربين ·· وهو مســتعد لخوض النار مع أصدقائه ان أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق ·· أما اعداؤه فهو لهم بلاء وعناء وهو يلقاهم فى السر والعلانيــة باقبح مايكرهون » ··

٣

مع المازنى

« وماذا تنكر من حديثى عن نفسى ؟

« هل كان أدبك يا صـــديقى المازنى الا دورانا حول نفســك ؟

« وهل كتب العقـاد أقوى من مقاله عن الأزمة التى صاولت روحه يوم احتلال العلمين ؟

وهـل كتب طه حسـين أقوى مما كتب فى الحديث عن طفولته وصباه ؟

فما العيب فى أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبى ؟

زكى مبارك

ودارت بين زكي مبارك وابراهيم عبد القادر المازني معارك قليلة ولم تتسم المعارك بينهما بطابع العنف والحدة لأن الدكتور زكي مبارك كان يحيط المازني بهالة ضخمة من الاعجاب والتقدير والاحترام وكان يكن له كل مودة في قلبه ...

وقد دارت مساجلة بينهما سنة ١٩٤٣ .. فقد سئل المازني عن رايه في زكي مبارك .. وأدبه فقال : « لو اخلى زكي مبارك كتاباته من الحديث عن زكي مبارك لكان أحسن مما هو عليه الآن ... » .

فكتب الدكتور زكي مبارك يرد عليه ويدافع عن نفسه قال : (١) .

« وماذا تنكر من حديثي عن نفسي .. ؟ هل كان ادبك يا صديقي المازني الا دورانا حول نفسك .. ؟ وهل كتب الأستاذ العقاد أقوى من مقاله عن الأزمة التي صاولت روحه يوم احتلال العلمين ... ؟ وهل كتب الدكتور طه حسين أقوى مما كتب في الحديث عن طفولته وعن صباه .. ؟

« ان تصوير هموم النفس وما يحيط بها من مخاوف وآمال هو أدب صحيح جعلته الكتب السماوية من شمائل الأنبياء ... فما العيب في أن يكون الحديث عن النفس من خصائص أدبي ... ؟

« فاين الذي يملك من الصدق بعض ما أملك » .. ؟

« المازني وحده يستطيع أن يجازيني صدقا بصدق .. فقد وقف بجانبي وقفة كريمة يوم قال الدكتور طه حسين على صفحات الرسالة « ان كتاب النثر الفني كتاب من الكتب أخرجه كاتب من الكتاب » ولكن

---

(١) الرسالة ، زكي مبارك ، « الحديث ذو شجون » . يوليو سنة ١٩٤٣ .

هل يستطيع الاستاذ المازنى أن ينصف خصومه كما أنصف أعدائى ٠٠ ؟ لقد يئست من أنصاف الناس فكيف لا أنصف نفسى ٠٠ ؟

« وأنا بعد هذا أسأل من يؤذيهم ثنائى على نفسى أسألهم متى يجاهدون فى الادب كما أجاهد ٠٠ ؟ ومتى يعانون فى سبيل الأدب ما اعانى ٠٠ ؟ أين الزميل الذى يقول انه أحرص منى على الوفاء بحقوق القلم البليغ ٠٠ ؟ وأين الشخص الذى يملك الزعم بأنه نفعنى ٠٠ ؟ ومن هو المخلوق الذى يتوهم أن له دينا فى عنقى ٠٠ ؟ ومن هو الروح الطاهر الذى يطمع فى السيطرة على شيطانية روحى ٠٠ ؟ كانت الغاية عندى أن أقيم الدليل على أن لوطنى وجودية تحميه من الاباطيل وكانت حياتى شاهدا على صحة ما أبتغيت ٠٠ فما استطاعت قوة أن تهدمنى ولا جاز فى وهم مخلوق أن يرانى من أتباعه ولو كان أعظم العظماء ٠٠٠ أنا أخاطب رجلا هو الأستاذ المازنى يسره أن يعلم أنى أسيطر على شآبيب من الدواهى المواحق وساصبها على أعدائى حين اشاء ٠

★★★

ويذكر زكى مبارك أنه لا يبالى نقد طه حسين لأن بينهما أشياء ولا يبالى نقد العقاد اياه لأن بينهما أحقادا تنشر فى حين وتطوى فى أحايين ولكنه يخاف من نقد المازنى ٠٠٠ لماذا ٠٠ يقول زكى مبارك :

« الخوف كله من نقدك لأنك صديق حميم ولن أجد من يتهمك بالتحامل حتى أطمع فى أن يكذب الناس ما تقوله عنى يضاف الى هذا أنك مسموع الكلمة وأن الجمهور لا يفطن الى قدرتك على قلب الحقائق ٠٠٠ وهل أنسى ما صنعت بنفسك وبصديقك العقاد ٠٠ ؟ كانت العيون ترى قبل ٢٠ سنة أنك طويل جدا وأن العقاد قصير جدا فشاء برك بصديقك أن تزعم أنك القصير وأنه الطويل ٠٠ ومازلت تبدىء وتعيد حتى آمن الناس بقولك وظنوا أنك قزم وأن العقاد عملاق ٠٠٠ وبنو آدم يصدقون ما يسمعون وما يقرأون قبل أن يصدقوا ما تحدثهم به العيون والقلوب ٠٠ من أجل هذا أنقض حكمك على وارجو ان تكف عنى شرك » ٠

وعندما كتب المازنى يقول أن الشعر لم يبق له فى الحياة الأدبية مكان نكتب زكى مبارك يعاتبه ويقول :

« ان كنت أنت ظلمت نفسك فانا لن اظلم نفسى ٠٠ ولو كنت انا قاضيا لحكمت عليك بما لا يرضيك ٠٠٠ أنت بدأت حياتك شاعرا ثجاجا ازعجت شاعرنا شوقي ٠٠ فما الذى يمنع من أن تعود الى رياض

الشعراء ٠٠ ؟ ان ابراهيم الشاعر أخطر من ابراهيم الكاتب بمراحل طوال وتناؤك على لن ينجيك من قلمى ٠٠) ٠

★★★

ويصف الدكتور زكى مبارك أسلوب المازنى وادبه ومراحل تطور أسلوبه فيقول : (بدأ المازنى حياته النثرية بالطريقة الجاحظية وهى تقوم على أساس الازدواج ٠٠ وقد وفى المازنى لهذه الطريقة أصدق الوفاء فى أمد يزيد على عشر سنين وكان عهده فى رحاب هذه الطريقة أجمل عهوده الأدبية ٠٠ فقد كان نموذجا للكاتب الفنان وكان بناء الجملة على سنان قلمه غاية فى المتانة والجمال ثم جنى المازنى على نفسه بالكتابة اليومية) (١) ٠

(والمازنى الجديد فنان بأسلوب جديد وسيكون له مكان فى تاريخ الأدب العربى فسيقال له حتما أنه عاون على حماية اللغة الفصيحة من عوادى الجمود) ٠

ويقول زكى مبارك عن شخصية المازنى وادبه :

(هذا رجل يعيش بأعصابه وباحساساته ٠٠ وقد يكون لبلائه باحتراف القلم تأثير فى تقلباته النفسية والوجدانية ٠٠٠ وما ظنكم برجل يكتب كل يوم فيستنفد ما يملك من بواعث القرار والهدوء ٠٠٠ ؟ ٠

واهجم على الغرض الذى ارمى اليه فأقول أن الرجل جنى عليه قلمه ٠٠ وجنى عليه احساسه فلم يعرف قيمة الصبر على الانحياز الى احدى الجهات فى زمن لا يعيش فيه المفكرون الا بأسندة من العصبيات السياسية أو الاجتماعية ٠٠) ٠

★★★

وفى موضع آخر يقول عنه (٢) :

« والمازنى من أمجاد مصر الأدبية ٠٠٠ وصفحة واحدة من أصغر كتاب الفه المازنى أبقى على الزمن من جميع المناصب « والله » جل شأنه اقسم بالقلم ولم يقسم بالجاه ولا بالمال » ٠٠٠

---

(١) الرسالة ، زكى مبارك ، ابراهيم الكاتب ، سنة ١٩٤١ ٠

(٢) الرسالة ، زكى مبارك ، اغسطس سنة ١٩٤٣ ٠

(... اقترحت مرة على صفحات الرسالة ان تقرر الدولة معاشا للمازنى بحجة انه أدى للأدب خدمات لم يؤدها من تمتعوا بكرم الدولة باسم الأقدمية فى الوظائف) .

(وأنا فى هذه اللحظة أسحب ذلك الاقتراح ... فلن يجوع المازنى وفى يده قلم ... ولن يشيخ قلم المازنى ولو صار صاحبه فى ضمور طيف الخيال ....) .

ويذكر الدكتور زكى مبارك ان الرصافى « الشاعر العراقى » الكبير .. قال له وهو فى العراق أنه يشبه أدب المازنى بشراب التوت ...

٤

بين زكي مبارك وشوقي

« كان شوقي مفطورا على الشعر وكانت الحياة في عينيه شعرية الملامح ، وكان يستبيح من متع العيش كل ما حوت فراديس الشعراء ، فكانت حياته في بيته وبين أهله مطبوعة بطابع شعري اخاذ ، وكان الشعر يسود كل ما في حياته من نظام واضطراب » .

زكي مبارك

ودارت معركة بين زكى مبارك وأمير الشعراء احمد شوقى ٠٠٠٠٠ « كان شوقى مفتونا بشعره كل الفتون ٠٠ وكان لا يصدق أن فى الدنيا من أشعر منه وكان يعادى ويصادق على هذا الأساس ٠٠٠٠٠٠ » ٠

وقد توثقت اواصر الصداقة بين زكى مبارك وشوقى بعد عودة شوقى من المنفى بعد أن قضى بالأندلس خمس سنوات بعيدا عن أرض الوطن ٠

وظلت الصداقة بين الدكتور مبارك وشوقى على خير حال ثلاثة أعوام ٠٠٠ فلما كان صيف سنة ١٩٢٥ حدثت جفوة بينهما لماذا ٠٠٠ ؟

يروى زكى مبارك قصة خصومته وخلافه مع شوقى يقول (١) :

(كانت الصلة قوية بينى وبين شوقى سنة ١٩٢٥ ٠٠ وكان قد شرع فى طبع الشوقيات فشاء لطفه وكرمه أن يدعونى لكتابة المقدمة بعبارة مازلت أذكر نصها بالحرف (سيكتب الدكتور هيكل مقدمة تاريخية وستكتب أنت مقدمة أدبية ٠٠٠) ٠

وبعد أيام تلطف فأهدى الى ما طبع من الجزء الأول مصححا بخطه لأكتب فى تقديمه ما اريد ورجعت الى نفسى فتذكرت أن المقدمات يلتزم فيها الترفق وذلك ما يجمل بكاتب مشغول بالنقد الأدبى مع شاعر مازال فى الميدان واسرعت فكتبت اليه خطابا قلت فيه أنى لا أستطيع كتابة المقدمة التى ينتظرها امير الشعراء فانى أخشى ان اقول فيها كلاما بعيدا عن هذه المقدمة ٠٠ ان رأيت فى أشعاره المقبلة ما يوجب الابتعاد وهو بارك الله فى عمره لا يكف عن مساورة الشعر والخيال فى صباح او مساء ٠

---

(١) الرسالة ، زكى مبارك ، الشوقيات ، ديسمبر سنة ١٩٤١ ٠

وفى عصرية اليوم الذى كتبت فيه ذلك الخطاب قابلت الدكتور طه حسين وأخبرته بما وقع فغضب أشد الغضب وقال :

(ليتك استشرتنى قبل أن تصنع ما صنعت ٠٠٠٠ الا تعرف انك اضعت على نفسك فرصة من فرص التشريف ٠٠٠ ؟ لو طلب شوقى منى ما طلب منك وأنا خصمه لاستجبت بلا تردد ٠٠٠ فشوقى فى رأيى اعظم شاعر عرفته اللغة العربية بعد المتنبى) ٠

وبعد شهور طوال ظهر الجزء الأول من الشـــوقيات وبه مقدمة الدكتور هيكل باشا ونادى المنادى بوجوب الاحتفال بتكريم أمير الشعراء « **احمد شوقى** » احتفالا يشترك فيه من يستطيع من أدباء الأمة العربية وبرعاية « **سعد زغلول** » ٠٠٠٠

ثم يقام الحفل الحافل بدار الأوبرا فى التاســع والعشرين من ابريل ســنة ١٩٢٧ ويقول الشـعراء والخطبـاء فى شـوقى ما يقولون بأطناب واسهاب ٠٠٠ ويتلفت الدكتور هيكل كاتب مقدمة الشوقيات فيرى من الواجب اصـدار عدد خـاص من السياســة الأسبوعية لتكريم شوقى ويدعو للاشــتراك فى تحرير هــذا العدد الخاص أدباء كان فيهم كاتب هذا الحديث ٠٠٠ ويرى شوقى من حقه أن ينظر فى محتويات ذلك العدد فيشير بحذف مقالات كان منها مقــالى ٠٠ ألم استكبر عليه فارفض كتابة مقدمة الشوقيات ٠٠٠ ؟ ٠

(**كانت السياسة**) الأسبوعية فى تلك الأيام توجه التيار الأدبى فى مصر وفى سائر البلاد العربية وكان اصدار عدد خاص عن شاعر من مثل هذه المجلة يعتبر تضحية أدبية تفوق الوصف ٠٠٠٠٠٠ ولكن شوقى لم يرتح كل الارتياح الى ذلك العدد الخاص .. فقد ظهرت فيه عبارات تغض كثيرا أو قليلا من مقام أمير الشعراء ٠٠٠ غضب شوقى على ذلك العدد من السياسة الأسبوعية ٠٠٠ وكان شوقى اذا غضب ٠٠ غضب معه ألف مرتزق من أدعياء الأدب ٠٠ فمضى أولئك المرتزقة يقولون فى الدكتور هيكل ما تسمح بنشره الوريقـات المتسمة زورا بوســم الجرائد والمجلات ٠٠ فكتب الدكتور هيكل فى السياسة الاسبوعية مقاله المأثور (**اخلاق شاعر الأخلاق**) ٠

وهو مقال فصل فيه ما كان بينه وبين شوقى وتوعده توعدا اليما فقد نص على أن شوقى لن يظفر مرة ثانية بمثل ذلك الاحتفال ٠

ورأيت أن أرجع الى الدكتور طه حسين أستفتيه فابتسم وقال : كان مصيرك سيكون أفظع من مصير هيكل لو كتبت مقدمة الشوقيات « ثم ماذا » .. ؟ ثم ذهب شوقي الحقود ... وشوقي الذى قطع ما بينه وبين كرام الرجال لأسباب لا تستحق أن ينصب لها ميزان .

« وبقي شوقي الشاعر ... شوقي الذى رثاه المازني يوم مات بعد أن قال فيه ما قال ...

فسد ما بيني وبين شوقي بعد اعتذاري عن مقدمة الشوقيات فانقطعت عن لقائه بمكتبه في شارع جلال وانقطع هو أيضا فلم يعد يسأل عني ... وجاء طاغور أمير شعراء الهند .. فاقام له حفلة في داره ودعا اليها أساتذة الجامعة المصرية ولكنه تجاهل اسمي فلم يدعني الى استقبال ذلك الشاعر الصناع .. وسمع بذلك جماعة من الصحفيين فحرضوني على ايذاء شوقي بمقال أو مقالين وزعموا أن مال شوقي لا ينال بغير الهجاء .. وما أنا ومال شوقي أو غير شوقي .. ؟ هل منحنا الله نعمة القلم الصوال لنبتز الأموال ؟ ان شوقي الحقود حرمني من فرصة التمتع بصوت طاغور شوقي شاعر مصر وهو على جحوده أستاذ الأساتذة في ميدان القصيد .. فمن الواجب أن أحفظ عهده الى أن يموت .. وقد مات قبل أن يسمع كلمة نابية من قلمي أو لساني) .

★★★

وكان الدكتور زكي مبارك معجبا بشوقي وشعره غاية الاعجاب وقد كتب عنه وعن شعره العديد من المقالات النفيسة ... وقد رسم صورة بديعة لشوقي يقول فيها (١) :

« كان شوقي مفطورا على الشعر وكانت الحياة في عينيه شعرية الملامح وكان يستبيح من متع العيش كل ما حوت فراديس الشعراء فكانت حياته في بيته وبين اهله مطبوعة بطابع شعرى اخاذ وكان هيامه بقطع المسافات الطوال على قدميه أيام قوته دليلا على أن الرجل يقظ الشاعر وأنه مفتون بدرس مظاهر الوجود وكان الشعر يسود كل ما في حياته من نظام واضطراب وقد تصادقنا حينا وألفنا التلاقي في كل يوم حقبة من الزمان فكنت ألاحظ أن للرجل نواحي هو فيها أضبط من الساعة .. كما نعبر في لغة الحديث ونواحي يهمل في ضبطها وتحديدها

---

(١) البلاغ ، زكي مبارك النسيب في شعر شوقي ، مارس سنة ١٩٣١ .

أغرب الاهمال وهو فى نظامه واضطرابه شاعر يعرف كيف يتذوق مفاتن العقل والجنون ...

ويقول زكي مبارك عن النسيب في شعر شوقي : (وقد راجعت ما قال شوقي فى النسيب فكان أكثر ما شاقنى عنده نجواه لقلبه وقد ودع أحلام الشباب وكلمة الشباب لها فى شعر شوقي وفي حياته معان ساحرة لا يفهمها حق الفهم الا من عاشوا كما عاش أو رزقوا من رقة الحس ما يتوهمون به كيف كانت حياة مثله بين فتن المال والجمال والشباب ...

وشوقي رجل ألقى فى غيابات الماضي أطيب الأحلام والأوهام فهو يعيش اليوم تحت أثقال السنين ولكن كاهلة لا يزال قويا ولا يزال يقول هات ما عندك يا زمان ... ولا يزال فى ذلك الجسم قلب حساس يفيض بأقوى العواطف والمشاعر والأحاسيس ...

غير أن شوقي اذكى من ذلك فهو يعلم علم اليقين أنه لا يأسر الجمال بصباه كما كان يفعل فى أيامه الخوالى وانما ينقاد الجمال اليه لأن شهرته طبقت آفاق الأقطار العربية وطبعت اسمه فى صدور الناطقين بالضاد .

كل هذا جعل شوقي من أشعر الناس حين يتحدث عن هزيمته فى الحب وكان لا يعرف الهزائم فى ذلك الميدان ... فيا رحمة الله لقائد قد قضى عمره بين أكاليل النصر ثم كتب عليه أن يشهد فى آخر ايامه وقائع الاخفاق .. » .

★★★

ويلخص زكي مبارك موقفه من شوقي ، فيقول : (١)

« لم أسيء يوما الى شوقي الشاعر ، والحمد لله ، وان كنت بعت حظى من شوقي الصديق ، وقد عانيت فى سبيل اعجابى بشعره نكبات عديدة ، فان ناسا كانوا يودون لو هدموه ، وسلكوا الى هدمه شتى الشعاب ، وكان الرجل عظيم الشاعرية حقا وكان اصلب من أن تنال منه معاول الهادمين ، فعادوا يتمسحون بأعتاب الخلق والوطنية ، وكانت لهم فى ذلك جولات رسم خطواتها الشيطان ، والأخلاق الوطنية عكازان يتوكأ عليهما كل مغرض حقود .

---

(١) أبوللو / ديسمبر ١٩٣٢ ص ١٩٨ .

٥

بين زكى مبارك والرافعى

« ما رايك اذا وقف لك احد الصحفيين فى معركة فاصلة ورماك بحب التكلف والافتعال فى علم الانشاء والتاليف ؟

وما رايك اذا جازاك احد الصحفيين ظلما بظلم وقال انك تعيش فى غير زمانك ؟

زكى مبارك

فى أوائل سنة ۱۹۳۷ نشر الأســتاذ مصطفى صادق الرافعى سلسلة من المقالات فى مجلة (**الرسالة**) تحت عنوان « **صعاليك الصحافة** » حمل فيها حملة عنيفة على الصحافة ورجال الصحافة فتصـــدى له الدكتور زكى مبارك وامتشق قلمــه فكتب فى جريدة المصرى يرد عليــه ويهاجمه يقول : (١) .

(نأخذ فى حساب الأستاذ الرافعى الذى توهم أن الصحافة أصبحت فى أيدى الصعاليك مع أنه مدين للصحافة أثقل الدين ولولا الصحافة لظل قلمه يمشى مشية المقيد فى الوحل كما كان منذ سنين .....) .

أصدر الرافعى كتابا أسماه « **وحى القلم** » وطاف به على الجرائد والمجلات وكان ينتظر أن تقوم الدنيا وتقعد ولعله كان يرجو أن تزلزل الجبال .

فلما رأى الدنيا على حالها من الرزانة والسكون راح يهدد ويصخب ويتعقب ويتلوم ويبغى ويستطيل ولم يحسب للعواقب أى حساب ...

اكان ينتظر هذا الكاتب ان يترك الصحفيون ما يشغلهم من شئون المجتمع السياسية والاقتصـــادية ليفرغوا للكتابة فلا يكون لهم حديث ســـواه ؟ .

---

(١) المصرى ، زكى مبارك ، سنة ۱۹۳۷ .

ما رأيك اذا وقف لك أحد الصحفيين فى معركة ناصلة ورماك بحب التكلف والافتعال فى علم الانشاء والتاليف ؟

وما رأيك اذا جازاك أحد الصحفيين ظلما بظلم وقال انك تعيش فى غير زمانك ...... وأن أســـلوبك ليس الا صـــورة من العوج والألتواء .... ؟ .

★★★

٦

معركة مع أحمد زكي باشا

« ان زكي مبارك عاش في باريس ما عاش ، وظل مع ذلك فلاحا من سنتريس » .

احمد زكي باشا

دارت معركة عنيفة بين الدكتور مبارك وأحمد زكى باشا الملقب « بشيخ العروبة » سنة ١٩٣٢ وكان السبب يرجع الى كتاب أصدره الشيخ سليم البشرى وأعلن زكى مبارك أن الذى كتبه هو ابنه عبد العزيز البشرى باشراف والده وحدث اختلاف بينهما فى الراى بشأن بردة البوصيرى ... ولكن أحمد زكى ما لبث أن نقل المعركة الى ميدان آخر نعرض لأبيات من الشعر وقال :

أنت جدع وشاطر فعرفنى وعرف الناس باسم قائل هذه الأبيات ؟ .
ثم أورد عددا من أبيات الشعر فكتب زكى مبارك برد عليه قائلا :

(هل يليق بالعالم ان ينقل الجدل من ميدان الى ميدان ليفر من الجواب . ؟ ان هذا النوع من السؤال عن الشعر لا يتفق مع الذوق الحاضر وان كان يصلح لمطارحة المبتدئين فى مدرسة ثانوية ولو أستبحنا لانفسنا أن نسأله هذا السؤال لأعجزناه وأعجزنا معه ألوفا من القراء ...) .

فهاجم أحمد زكى (**مبارك**) وكتب تحت عنوان (**خم النوم – صح النوم**) يقول : (كلمتك الجارحة الى أستاذك الذى رباك وأحسن تأديبك ايام كنت متوجا بالعمامة البيضاء ... فيا رحمة الله على تلك العمامة وما كان تحتها من أدب ورقة ولطافة) . ثم أشار احمد زكى الى موقفه من استاذ له فى المدرسة التجهيزية كان دميما وكان يتحدث عن اعجاب حسان باريس به يقول :

(.... فما كان من التلميذ الخبيث أحمد زكى الا أن قال له ذات يوم : يا دكتور ماعندكش مرايه ... ؟ فانهال عليه بالسب والشتم) .

ثم قال احمد زكى موجها الكلام الى الدكتور مبارك فى عنف :

(فهل فى تلاميذ اليوم نخوة على تاديب استاذهم (ز ٠ م) ابن سنتريس بالمنوفية كما فعلنا نحن بالأمس ٠٠ ؟) ٠

وكتب زكى مبارك يرد عليه ٠٠ ويقول :

(كنا نظن ان الأدب البارع الذى يظهر فى مقالات شيخ العروبة فن جديد رمته به أيام الشيخوخة ولكن يظهر أن هذا الأدب كان من صفاته لعهد الطفولة فقد حدثنا حفظه الله انه استباح أن يقول لأستاذه فى المدرسة التجهيزية (معندكش مرايه ٠٠ ؟) هذا الرجل الذى يكتب بقلمه هذه التعابير هو نفســه الرجل الذى قضى وقتا طويلا يدعونى الى ادب القول وقد عملت بنصيحته وتأدبت معه فاستأسد وكشر عن أنيابه وكان فى مقدورى أن أعامله بمثل ما عامله به الأستاذ محمد مسعود ولكنى رفقت بشيخوخته وقدرت ماضيه فى خدمة اللغة العربية) ٠

ثم أراد الدكتور زكى مبارك أن يضفى على تلك المساجلة العنيفة طابع فكه لطيف فخلع عليهـا من روحه المرحة وخفة ظله لمسات فكهه فقال ان احمد زكى مغرم بالسجع فى عناوين كتبه وأورد ـ كما يقول ـ مؤلفاته الجديدة التى أخرجها للناس ٠٠٠

والحقيقة أن هذه المؤلفات جميعها مختلقة ماعدا كتاب (السفر الى المؤتمر) ولكن زكى مبارك كعادته تبدو فكاهته الحلوة من بين ثنايا كل ما يكتبه ثم اورد زكى مبارك مؤلفات احمد زكى الجديدة كما يقول :

١ ـ السفر الى المؤتمر ٠٠٠
٢ ـ القول الكاشف فى الفول الناشف ٠٠٠
٣ ـ التحفة البهية فى الكبدة المشوية ٠٠٠
٤ ـ النفحة الذكية فى المدائح النبوية ٠٠٠
٥ ـ الروض المشرق فى أخبار المشرق ٠٠٠
٦ ـ اتحاف الخلق بأخبار باب الخرق ٠٠٠
٧ ـ القول المبين فى مقال سيدى الأربعين ٠٠٠ الخ ٠

كانت هذه لمسة من لمسات خفة ظل زكى مبارك ومرحه الأصيل ولكن احمد زكى رد عليه بعنف وشدة فقال :

(ما بالك تجحد فضل أستاذيتى عليك وتعاود فحش القول وجفاء الطبع ‥ ؟ وبماذا تبيض وجهك بعد أن استغفرتنى فى دار مجلة المعرفة قبل ردك الأخير ‥ ؟

افانت حينما تواجهنى يتغلب عليك الأدب ويغلبك الحياء فاذا ما خلوت الى نفسك جمح بك القلم ... ؟) .

ثم يناقشه فيما أورد من كتب مختلفة نسبها اليه يقول :

(انه يزعم أننى صنفت كتابا فى الفول الناشف : برضك تموت فى هذا القول ولا يصدك عنه صدود ... وتنسب الى التحفة البهية فى الكبدة المشوية) ... يا كبدى عليك يا مبارك حينما كنت تجرى ليلا فى درب المش وراء (جابر) الذى يبيع الكبدة وانت لا تزال تحلم بها وتتصور أنها أكل الملوك .

ومن عباراته الساخرة العنيفة فى مساجلة الدكتور زكى مبارك فى بعض ما نسب اليه من خطأ يقول له :

(أيها الطفل الميمون نجل الدكتور زكى مبارك انت تكتب باسم ابيك فتارة تخطىء وتارات تصيب وأبوك ساكت على هذا التدريج والترويض ‥) .

★★★

فى سنة ١٩٤٢ بدأ الدكتور زكى مبارك بنشر سلسلة من المقالات تحت عنوان (بين آدم وحواء) فى مجلة الرسالة وذكر أن هذا الكتاب (بين آدم وحواء) اهداه اليه المرحوم أحمد زكى باشا بعد أن وقع الخلاف بينهما ثم انتهى الى الصلح ويقول أن هذا الكتاب غريب بما فيه من صور غريبة لمؤرخ مجهول يدعى (شيس ابن عربانوس) ويروى الدكتور زكى مبارك قصة خصومته مع أحمد زكى وقصة صلحه معه وقصة ذلك الكتاب الخيالى الذى قال أن أحمد زكى أهداه اليه بعد الصلح بينهما سنة ١٩٣٣ . يقول (١) :

(كانت وزارة المعارف قررت اقامة حفلة تأبين للشاعر أحمد شوقى بكلية التجارة فهالنى أن اسمع خطيبا يتنحنح بعنف مع أنى لم اكن اجتزت

---

(١) الرسالة ، زكى مبارك ، بين آدم وحواء ، يناير سنة ١٩٤٢ .

عتبة الكلية فسألت نفسى كيف يصل صوت التنحنح على الرغم من تلك الأبعاد الطوال .. وبعد لحظة فهمت أن الحفلة أقيم لها ميكروفون واقيم لذلك الميكروفون مسامع فى جميع الأركان ونظرت فاذا الخطيب أحمد زكى باشا ... فكيف غاب عنه وهو عالم علامة أن الميكروفان سينقل الى الجيران وجيران الجيران نحنحته القوراء . ؟ أما كان فى مقدوره أن يدير وجهه أو يدير الميكروفون قبل أن يقترب ذلك الصوت ... اضحكنى أن يقع شيخ العروبة فى ما وقع فيه فأخذت أترصد له غلطة أدبية أو تاريخية لأهجم عليه فى جريدة البلاغ ثم اتفق لحسن الحظ أن قال كلاما غير صحيح وهو يتكلم عن مدح الرسول فى نهج البردة وكنت يومئذ مشغولا بتأليف كتاب المدائح النبوية فوجدت عندى من المحصول الأدبى والتاريخى ما يكفى لافحامه بلا عناء ...

وما كادت تظهر كلمتى فيه حتى اندفع الرجل لمصاولتى على صفحات البلاغ بأسلوب ساحق ماحق وكان رحمه الله آية فى الكر والفر .. وكان لا يهجم على باحث الا تركه كالرفات بفضل اطلاعه الشامل وذكائه الوهاج .. وكانت حوادث فلسطين وصلت الى آلام وجراح فأرسل زكى باشا الى الحاج أمين الحسينى برقية مطولة كلفته أحد عشر جنيها وكان ينتظر أن يصل الى جواب رقيق .. ولكنه لم يتلق أى رد من الحاج أمين الحسينى .. فكتب اليه يسأل عن سر ذلك السكون فكان الجواب أن البرقية وصلت ولكنها لم تكن بامضاء زكى باشا . وانما بامضاء زكى مبارك ...

* * *

وأمتشق زكى باشا قلمه وانشا مقالا أخذ اربعة انهر من جريدة الأهرام وقال فى مقاله أن عامل التلغراف حرف الامضاء فان كان فى مصر فالى الليمان وان كان فى فلسطين فالى البحر الميت وأعلن زكى باشا أن التحريف مقصود وكانت حجته أن زكى باشا قد تحرف الى زكى الابراشى بسبب الشين ولكنها لا تحرف الى زكى مبارك ...

وامتشقت قلمى فكتبت ردا وجيزا نشرته الأهرام فى أول نهر من الصحيفة الأولى وكان الرد يتلخص فى أن زكى باشا هو نفسه الذى أمضى باسم زكى مبارك وحجتى أن الباشا مشغول بما نشر على صفحات البلاغ فأنا ملء قلبه ومن السهل أن ينسى اسمه ويذكر اسمى ورأى زكى باشا أن التعليل مقبول .. فذهب الى ادارة التلغراف وطلب أصل البرقية ثم ابتسم حين شاهد أنها باسم (**زكى مبارك**) وبخط (**الباشا**) الظريف ...

فلم يكن بد من أن يدرك زكى باشا أن الأقدار ارادت أن تطوقه بالخطا ليكف عنى أذاه فاتصل بى تليفونيا ليدعونى الى العشاء وامضاء عقد الصلح فأجبت الى القبول ٠٠ وقال لى شيخ العروبة :

الجائزة العظمى لمن كان فى مثل أدبك ان تهدى اليك النسخة الوحيدة من كتاب (**شيث ابن عربانوس**) ٠٠ ومضى الباشا لاحضار الهدية ثم عاد ومعه كتاب فى أكثر من خمسمائة صفحة بالخط الكوفى وهو مجلد على طراز المصاحف المحفوظة بدور العاديات ثم يقول : زكى مبارك (أقبلت على الكتاب بلهفة وشوق ثم لحظت أن منزلتى عظمت فى قلب زكى باشا عندما رآنى اقرأ الخط الكوفى بلا عناء ٠٠ فكيف تكون حاله لو نظر فرآنى اقرأ الخط السنسكريتى) ٠٠٠

ثم ذكر مبارك أنه قد عزم على تلخيصه ولكن قبل أن يبدأ فى ذلك يسجل أنه غير مطمئن الى أنه الف فى العصر الذى تلا الطوفان ويضيف الى ذلك أن المصادر التى تحت يده لم تتحدث عن شيث ابن عربانوس ٠٠ ولم نسمع أن اسمه ورد فى كتب المستشرقين ٠٠٠ فاين وجد زكى باشا ذلك الكتاب ؟

ويقول أنه كان فى النية أن يوجه اليه هذا السؤال لولا أن المنية عاجلت المرحوم أحمد زكى باشا لتطول الحيرة فى مصدر هذا السفر الغريب) ٠

ولكن ما حقيقة كتاب شيث بن عربانوس ٠٠ ؟

وما حديث ذلك المؤرخ المجهول ٠٠ ؟

أرى أن الدكتور زكى مبارك أراد أن يكتب قصة « **آدم وحواء** » فى الجنة بصراحة بلا قيود أو اغلال ولكنه خشى ملامة الفارغين من أهل الجمود وغضبة المتزمتين وعصبة أدعياء الأدب فذكر قصة خلافه وصلحه مع أحمد زكى باشا واهداؤه ذلك الكتاب بالخط الكوفى ٠٠ وفى الواقع انه كتاب خيالى موهوم أختلق زكى مبارك اسم ذلك المؤرخ شيث ابن عربانوس ٠

ولقد ثارت ضجة عنيفة حول مقالات بين آدم وحواء والتى استمرت تنشر فى الرسالة لفترة طويلة ٠ وأوقفت بأمر بعض كبار المسئولين يومئذ ٠

وقد أدار زكى مبارك حوارا بارعا بين آدم وحواء ورسم صورا عجيبة وفريدة فى تلك المقالات ...

وقد حازت هذه المقالات اعجاب عدد كبير من الأدباء والنقاد والمفكرين ...

وكان الدكتور زكى مبارك يفخر أن أحمد زكى باشا قال عنه :

« ان زكى مبارك عاش فى باريس ما عاش وظل مع ذلك فلاحا من سنتريس ..... » .

★★★

٧

بين زكى مبارك والبشرى

« لا اريد ان يكون الكاتب مصريا ، وانما اريد ان يكون انسانا مصريا ، انسانا تعينه الوشـــائج الانسانية ، ومصريا تعينه الأواصر المصرية ، وانتظر ان يكون الكاتب المنشود رجلا قديرا على تشريح العواطف والأحاسيس قبل أن يكون رجلا قديرا على ترقيق الألفاظ والتعابير .

فالكاتب الحق لا يخاطب العصر الحاضر وحده وانما يسكب رحيق قلمه فى اذن الزمان وقلب الوجـود » .

زكى مبارك

* ... دارت معركة عنيفة بين الدكتور زكى مبارك وعائلة الشيخ عبد العزيز البشـــرى وكان اندفاعه فى النقد قد عرضه للخطر وكادت تنشب معركة حقيقية تودى بحياته .

فقد هاجم الدكتور زكى مبارك الشيخ ســـليم البشـــرى شيخ الازهر وقال ان شـــرح نهج البردة المنســـوب اليه كتبه ابنه الشيخ عبد العزيز البشرى وان الشيخ الكبير راجعه وحرر فيه بعض الابواب .. فظن الشيخ عبد العزيز واخوته .. ان هذا الكلام فيه معنى اتهام والدهم بالتزوير حتى ان الشيخ عبد العزيز البشرى اتصـل بزكى مبارك تليفونيا وقال ان اخوته غاضبون لأبيهم وانهم مستعدون لأن يدبروا له اشياء شنيعة جدا وانهم قد يفكرون فى قتل الدكتور زكى مبارك على باب داره فرد زكى مبارك يقول متحديا :

« اننى لا أخافك ولا أخاف أخوتك ولو شئت لسقت فى حربكم الف نبوت من سنتريس ! » .

* * *

وفى سنة ١٩٤١ كتب الدكتور زكى مبارك مقالا عن كتاب المختار لعبد العزيز البشرى(١) وكانت خلاصـــة رايه فى ادب البشرى واسلوبه (انه رجل صخاب ضجاج يدق الأجراس الضخام حين يدخل الغابة للصيد .. هل ســـمعتم بالرحى التى تطحن بها القروية .. ؟ هو البشرى فى بعض نثره القعقاع اذ يندر أن تجد فى نثر هذا الرجل صفحة خلت من التكلف .. وهو كاتب يذكرك فى كل ســـطر بانه اديب يتصيد الاوابد من مجاهل القاموس واللسان والأساس) .

---

(١) الرسالة ، زكى مبارك ، سنة ١٩٤١ .

ثم يقول « عبد العزيز البشـــرى مزخرف مبهرج ويفضل الزخارف والبهارج وصـل الى اشـياء لأن الجمهور عندنا قد يكتفى من الكاتب باجادة التزيين والتلوين .

« كل هم هذا الرجل ان يقنعك فى كل حرف بان الكتابة شىء ضخم يروعك ويهولك وان لم يكن لذلك موجب توحيه الفكرة أو يفرضه البيان ، فلأى غرض يصنع بنفسه هذا الصنيع .. ؟ ومتى يعرف أن السـحر من اوصاف البيان .. ؟ والأصل فى السحر ان يقدم الاباطيل وهى فى مرأى العين حقائق لا اباطيل .

« كان البشرى يستطيع ان يكون كاتبا عظيما لأن لهذا الرجـل ذخيرة غنية من الفطرة والطبع ولو أنه استجاب لوحى روحه لأتى بالعجب العجاب ولكنه تكلف ما لا يطيق فأضيف الى المتحذلقين .. » .

وارى ان الدكتور زكى مبـارك لم يعد الحقيقة حين كتب هذه الآراء واى ناقد منصـف او اراد ان يقيم ادب البشـرى واسلوبه لما خرج عن هذه الآراء .. ولكننا نرى أحد النقاد المتعصبين للشيخ البشرى وهو الدكتور جمال الدين الرمادى الذى تعصـب له ولم يسـتطع ان يسـتقبل اى نقد صريح وصادق يوجه الى ادب الشيخ البشرى .

فكيف أستقبل الدكتور الرمادى .. هذا النقد النزيه الصريح ؟ استقبل الدكتور جمال الدين الرمادى نقد زكى مبارك بعنف وضيق فحمل عليه واشتط فى هجومه وتجنى وكان تعصبه للشيخ البشرى اقوى من نزاهته كأديب نزيه وناقد منصف حتى بلغت درجة عنفه وهجومه الحاد المتطرف الى اتهام الدكتور زكى مبـارك بالرياء والتلون قال الدكتور الرمادى بالحرف الواحد(١) :

« كانت آراء زكى مبارك تتطوح مرة ذات اليمين وأخـرى ذات اليسار وأنها كانت تختلف برودة وحرارة حسب الطقس وحسب اتجاه الريح وحسب مسرى الهواء .. » .

وهذا كلام يحتمل النقض من اسـاسه ويكذبه الواقع وتنكره الحقيقة .. وتاريخ زكى مبارك العظيم ملىء بالمواقف المشرقة النبيلة

---

(١) الرسالة ، الدكتور الرمادى (عبد العزيز البشرى) ، ١٩٦٣ « اعلام العرب » ، صفحة ٢١٧ .

التى تجعله يترفع عن النفاق والرياء فلم يؤجر قلمه للاستعمار .. ولم يخدم فى حـــزب من الاحـــزاب وكانت حياته مثالا للشـــرف والنزاهة والكبرياء .

ماذا يقول سيدنا الرمادى .. ؟

سيدنا الرمادى يزعم أن آراء الدكتور زكى كانت تتطوح ذات اليمين مرة وذات اليســـار مرة أخـرى ·· وأنهـا كانت تختلف برودة وحرارة حسب الطقس واستعمل التشبيهات البايفة فى شتم زكى مبارك ونعته باقبح التهم والنعوت .

ياسيدنا الرمادى : كيف تنسى وانت ناقد واديب ودكتور تاريخ هذا الرجل العظيم الشـــريف الذى جاهر بآرائه فى صـــراحة وصـــدق وجراة وصـــوب قلمه الى صدور المنافقين والمرائين ... ؟ وبأى حق تنعته بالتلون والرياء على الطريقة (الطقسية) ·· ؟ لماذا تستبيح الهجوم الظالم عليه وقد ذهب بلا معاد .. ؟ ألم يكفه انه عاش غريبا ومات غريبا .. ؟

اسمع أيها الناقد الشريف المنصف ···

هل تعلم أن الدكتور مبارك عاش ما عاش نظيف الروح .. نظيف القلم أبى النفس ... يكره النفاق والمداورة ... فما استطاعت حكومة مصرية أو غير مصرية أن تستأجر قلمه .. ؟

هل تعلم انه عاش طيلة حياته منافحا عن القومية العربية والتراث العربى وظل يهتف للحرية والاستقلال رغم كل الظروف والعوامل التى اعترضت طريقه ونكلت به ؟

هل تعلم أن وزير خارجية فرنسا عارض فى منح الدكتور زكى مبارك وســـام الاكاديمى سنة ١٩٣١ لانه هاجم فرنسا المستعمرة بعنف وقوة وشجاعة نادرة رغم انه كان يتلقى العلم فى باريس وقتئذ .. وبرغم ثقافته الفرنسية .. ؟

هل تعلم يا دكتور رمادى أن صراحته هى التى جنت عليه وجرت عليه صنوف المتاعب والمضايقات ·· ؟

اسمع ايها الناقد المنصف .. وانصت .

هل تعلم أن زكى مبارك كان الكاتب الوحيد الذى يخجل من ان يقول فى السـر ما يعجز عن قوله فى العلانية .

هل تعلم من هو الدكتور زكى مبارك يا دكتور رمادى ؟

ان كنت لا تعلم .. وان كنت فى ريب مما اقول .. فاسأل من يعرف حقيقة زكى مبارك وعظمته .. وما اكثر المنصفين .

وايـــاك ....

اياك ياسيدى الدكتور ان تسأل ناقد .. اى ناقد على الطريقة (الطقسية) .... ؟

★★★

واذا كان زكى مبارك قد وجه نقدا حـادا الى ادب عبد العزيز البشرى اثناء حياته ، فانه فى نفس الوقت لم ينس الانصاف والموضوعية فى نقده فقال عنه فى نفس المقال (١) :

« عبد العزيز البشرى كافح فى ميدان الكتابة كفاح المستميت ، فلنعرف له هذا الفضل ، ولنذكر أنه قضى ثلاثين سنة وهو معدود من ابطال القلم فى هذه البلاد . واننذكر ايضا أنه رجل ذواق الى ابعد الحدود فقد يندر ان يكون له مثيل فى الطرب لأطايب الدقائق الذوقيـة لعوام الناس ، أما فهم الشيخ البشرى للشعر فهو أعجوبة الأعاجيب » .

---

(١) الرسالة ، ٢٠ يناير ١٩٤١

٨

معركة مع احمد امين

« انتهيت من محاسبة احمد امين الباحث ، اما احمد امين الصديق فله فى قلبى اكرم منزلة وارفع مكان ، ولن يرانى الا حيث يجب فى حدود المنطق والعقل . فما أرضى أن يكون من الساخرين بالأدب العربى وماضى الأمة العربية » .

زكى مبارك

نشر الدكتور احمد امين سنة ١٩٢٩ سلسلة من المقالات فى مجلة الثقافة تحت عنوان (جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى) حمل فيها حملة عنيفة على الأدب الجاهلى وقيمته ووقف موقفا هجوميا عنيفا تأثر فيه ولا شك بآراء بعض المستشرقين ودعاة التغريب ولكن الدكتور زكى مبارك خريج السربون وقف فى وجه تلك النزعة بصلابة وامتشق قلمه وانشأ عدة مقالات فى مجلة الرسالة تحت عنوان (جناية احمد امين على الأدب العربى) فند فيها آراءه ودحضها ودافع دفاعا مجيدا عن الأدب العربى والثقافة العربية وفى تلك المقالات تبرز غيرة الدكتور زكى على تراثه وعروبته كعادته دائما طيلة حياته .

كتب الدكتور زكى مبارك يرد على احمد امين ويدحض آراءه ويفندها يقول(١) : (لصديقى الأستاذ احمد امين مؤلفات جيدة على اساس المنطق والعقل وهو من كبار الباحثين فى العصر الحديث ولكنه على ادبه وفضله لا يحسن الا حين يصطحب الروية ويطيل الطواف بالموضوع الواحد عاما او عامين وذلك سر قوته فيما ينشر من البحوث والتصانيف .

احمد امين باحث كبير بلا جدال ولكنه ليس بكاتب ولا اديب وان كان من اساتذة الأدب بالجامعة المصرية ولم يستطع احمد امين على كثرة ما كتب وصنف أن ينقل القارىء من ضلال الى هدى او من هدى الى ضلال وانما كانت مؤلفاته وبحوثه ضربا من التقرير الذى يخاطب الأذهان ويعجز عن مخاطبة العقول والقلوب .

وحياة احمد امين تؤيد ما اقول : فهو رجل لا يعرف الخلوة الى الفكر والقلم ولا يتسع وقته لدرس ما فى الوجود وما فى الاخلاق من

---

(١) الرسالة زكى مبارك . ١٢ يونية سنة ١٩٢٩ .

مشكلات ومعضلات .. وانما يقرا ويسمع ويعلق على ما يقرا ويسمع بدون ان يتغلغل الى اسرار المجتمع أو سرائر القلوب . الخطر كل الخطر ان ينصب هذا الرجل نفسه حاكما بأمره فى مصير الآداب العربية وهو لم يستطع الى اليوم أن يقيم الدليل على انه يتذوق المعانى والأساليب والخطر كل الخطر ان يتوهم احمد امين انه قادر على زعزعة ما اقامته الأيام من الحقائق الأدبية .. الحقائق التى ساد بها العرب فى ازمان طوال وكان لها سلطان مهيب فى اقطار الشرق واقطار الغرب .

ولكن ما الذى نقل ذلك الرجل الفاضل من حال الى احوال وحوله من الروية الى الارتجال ؟ لقد أصبح الرجل صحفيا وكان استاذا ولكنه لم يراع أدب الصحافة لأن الصحافة تقف عند المشاهدات وهو يهيم بأودية الفروض .. ابتدأ الرجل مقالاته فى مجلة الثقافة بتلخيص بعض الكتب الأدبية فكان من الصحفيين الأدباء ثم رأيناه يتحول نجاة فيلخص الأدب العربى فى جميع عصوره تلخيصا يقوم على اساس الخطأ والاعتساف ويعوزه تحرير الحجة وتصحيح الدليل فهل يظن انه سينجو من عواقب ما يصنع ؟ هل يتوهم ان التجنى على الأدب العربى سيمر بلا اعتراض ولا تعقب ؟ فما رايه اذا اقنعناه بأن للأدب العربى انصارا يغارون عليه اشد الغيرة ويقفون لخصومه بالمرصاد .. ؟

٢ — وكتب زكى مبارك يفند آراء احمد امين التى يقول فيها ان الأدب العربى أدب معدة لا ادب روح يقول(١) :

(انا أؤمن بأن الأدب العربى ادب اصيل واعتقد أن من الواجب ان ندعو جميع ابناء العروبة الى الاعتزاز بذلك الأدب الأصيل لأنه يستحق ذلك لقيمته الذاتية ولأن الايمان بأصالته يزيد فى قوتنا المعنوية ويرفع انفسنا حين ننظر فنرى ان اسلافنا كانوا من المبتكرين فى عالم الفكر والبيان .

وقد درج الاستاذ احمد امين فى الأيام الأخيرة على الغض من قيمة الأدب العربى وكان من السهل أن نتركه يقول ما يشاء لو كان من عامة الأدباء ولكنه اليوم رجل مسئول لأنه من اساتذة الأدب بالجامعة المصرية لأغلاطه سناد من تلك الاستاذية فهو يقدر على زعزعة الثقة الأدبية فى انفس طلبة الجامعة حين يريد . فان بدا لهذا الصديق ان

---

(١) الرسالة ، زكى مبارك ١٩ يونية ١٩٣٩ ، « جناية احمد امين على الأدب العربى »

بغضب من هجومنا عليه فأمامه طريق الخلاص وهو الانسحاب من ميدان الدراسات الأدبية الى ان يعرف ان الأدب لا يؤرخ على طريقة الارتجال .

ولعل هذا الصديق يرجع الى نفسه فى بعض لحظات الصفاء فيذكر انه لم يخلق ليكون اديبا ، وانه لم يفكر فى دراسة الآداب دراسة جدية الا بعد أن جاوز الأربعين ولو رجع هذا الصديق الى نفسه لعرف انه لا يجيد الا حين يشغل وقته بتلخيص المذاهب الفقهية والكلامية ولو شئت لكررت ما قلت من ان موقفه فى جميع ابحاثه موقف المقرر ولم يستطع مرة أن يكون من المبتكرين فى الدراسات الفقهية والكلامية واذا كان هذا حاله فى الفقه والتوحيد فكيف يكون حاله فى الأدب ؟ والأدب يرتكز على الحاسة الفنية وهى حاسة لم توهب لهذا الرجل قبل اليوم ولم توهب له بعد اليوم لأنها من الهبات التى لا تنال بالدرس والتحصيل ..

• أحمد أمين ليس بكاتب ولا أديب وان سود الملايين من الصفحات ابهدم ماضينا الأدبى بمحاولة رجل محروم من الذوق الأدبى ؟

• هذا الرجل ينظر الى الأدب والى الوجود نظرة عامية فهو يقسم الأدب الى قسمين : ادب معدة وادب روح والسخرية من المعدة لا تقع الا من رجل يفكر كما يفكر الأطفال .. فالمعدة التى يحتقرها هذا الرجل العامى هى سر الوجود وعن قوة المعدة تنشأ قوة الروح .

ان المباعدة بين المعدة والروح عقيدة هندية الأصل وتلك المباعدة هى التى قضت بأن يعيش الهنود فقراء ولو احترم الهندى معدته كما احترم الانجليزى معدته لما استطاع الانجليز أن يكونوا سادة الهنود ؟

انا اعرف أن احمد امين يتخلق بأخلاق الأسماك . وآية ذلك انه لم يغضب الجمهور مرة واحدة . وهل اتفق للسمك ان يقاوم التيار مرة واحدة ؟

وهذه العامية فى التفكير هى التى فرضت على احمد امين رضى الله عنه ان يرى الغزل الفاجر ادب معدة ، على حين يرى وصف الطبيعة ادب روح . وهذا كلام ضعيف ، فالغزل القوى هو من شواهد الحيوية الدافقة فى الرجال أما وصف الطبيعة فهو احساس دقيق يأنس اليه من حرموا الأنس بالجمال الحساس الذى يملك التعبير عن العواطف والشهوات . لقد فكرت كثيرا قبل ان اقدم على هذه الحملة الادبية — وصح عندى بعد الروية أن الغض من قيمة الأدب العربى هو

عدوان على كرامة الأمة العربية فانا استهدف لعداوة هذا الرجل وعداوة اصدقائه فى سبيل المبدا والعقيدة والهجوم على هذ الرجل قد ينفعه اجزل النفع فينقله من حال الى احوال ويحبب اليه التروى والتثبت ويصرفه عن التحامل البغيض على الأدب العربى انما يصل اليه الخطأ من طريقين : الأول عدم تمكنه من تاريخ الأدب العربى والثانى عدم تعمقه فى درس السرائر النفسية والوجدانية .

واحدد الغرض من هذه الجملة فاقول : تورط احمد امين فى احكام جائرة وهو يلخص تاريخ الأدب بطريقة صحفية .

٣ — ويهاجم زكى مبارك راى احمد امين الذى يقول ان المديح والهجاء هما اظهر فنون الأدب العربى وبذلك يكون الأدب العربى ادب معدة لا ادب روح .

يرد الدكتور زكى على هذا الراى فيقول(١) :

« ان هذا الرجل يحكم على الأدب العربى احكاما تشهد بأن طريقته فى فهم الأدب والحياة طريقة عامية فكيف يكون حاله اذا صححنا بعض ما وقع فيه من اغلاط .. ايرجع الى الحق ؟ اوجه الينا كلمة ثناء ؟ .. هنا تعرف قمة الاخلاق فى نفس الرجل الذى الف أول ما الف فى الاخلاق واقسم انى أعجم على هذا الرجل وأنا كاره لما اصنع ، فأحمد امين رجل محترم وقد وصل بكفاحه الى منزلة عالية فى الحياة الأدبية وأنا قد ضيعت جميع اصدقائى بفضل جرائر النقد الأدبى وكنت احب ان اداوى ما جرح قلمى لأنجو من الدسائس التى تعترضنى فى جميع الميادين .. ولكن كيف اسامح رجلا يحاول ان يلطخ ماضينا الأدبى بالسواد ؟

يرى هذا الرجل ان المديح والهجاء هما اظهر الفنون فى الأدب العربى وبذلك يكون الأدب العربى فى جميع احواله ادب معدة لا ادب روح .. ولو كان هذا الرجل يدقق لعرف ان المديح والهجاء هما السجل الصحيح الأخلاق العربية فمن المديح نعرف كيف كان العرب يمثلون المناقب ومن الهجاء نعرف كيف كانوا يتصورون المثالب ومن المحاسن والعيوب يعرف الباحث صور المجتمع فى الحياة العربية والاسلامية .

ولو ضاعت قصائد المديح والهجاء لضاع بضياعها اعظم ثروة يستعين بها علماء النفس لفهم تطورات الأفكار والأذواق فيما سلف من عهود التاريخ .

---

(١) الرسالة ، زكي مبارك ، ٢٦ يونية ١٩٣٩ .

٤ ــ وفى مقال آخر كتب زكى مبارك يساجل احمد امين يقول(١) :

(لقد كان ناس يتوهمون اننا حاربنا الدكتور طه حسين لاغراض شخصية وكان الدكتور طه يلوذ بهذا التوهم فلم ينبر للرد علينا غير ثلاث مرات او اربع مرات باسلوب واضح صريح ثم شاء له الحذر والاحتراس ان يوهم قراءه وسامعيه باننا نحاربه لغرض خاص ثم دارت الأيام واعترف الدكتور طه علانية امام جمهور من أقطاب الرجال بأن زكى مبارك (من اصحاب العقائد فى حياته الادبية ويجب ان ينظر المنصف الى محاولاته فى النقد الأدبى بعين الرفق) .. فكيف جاز للأستاذ احمد امين ان يهرب من الرد علينا بحجة اننا نشتمه ونؤذيه بغير سبب معقول .. وكيف جاز له ان يظن اننى تامرت مع صاحب الرسالة عليه مع ان مقالاتى فى الرسالة قد تنتهى بخصومة بينى وبين الزيات لأن الزيات قد حذف من مقالاتى فقرات كثيرة رعاية اصديقه العزيز احمد امين .

اترون الحق ايها القراء .. ؟

« الحق انى فى غربة موحشة بين اخوان هذا الزمان فالأستاذ احمد امين كان ينتظر ان امتشق قلمى لتزكية احكامه الخواطىء على الأدب العربى والأستاذ الزيات كان ينتظر ان ارد على احمد امين باسلوب رقيق شفاف يحاكى نسائم الأصائل والعشيات على ضفاف النيل ..

« فكيف غاب عن هذين الصديقين ان الأدب العربى وصل الى دمى وروحى ، وانى رجل له غضبات .

ان الأدب العربى هو الصورة الناطقة من ماضى الأمة العربية وهو فى الواقع أدب اصيل فكيف يجوز أن نسامح مع من يفترون عليه ولو كانوا من كرام الأصدقاء ؟ الله يشهد انى متوجع لما صنعت بالأستاذ احمد امين وهو رجل له ماضى فى خدمة الدراسات الاسلامية وله مواقف فى مؤازرتى سأذكرها وان طال الزمان ولكنه فى الاعوام الأخيرة أصيب بمرض عضال هو السخرية من ماضى الأمة العربية واغرم بضرب من الحذلقة لا يقره عليه غير الأصحاب المتطفلين الذين لا يهمهم غير الاقتراب من روحه اللطيف . احمد امين رجل فاضل وان تردى فى هاوية العماية والجهل حين حكم بأن ادباء العرب كانوا اصحاب معدات لا اصحاب ارواح .

« يقول احمد امين ان الادب يخدم النقد اكثر مما يخدم بالتقريظ وهذا حق ولكن هل يدرك المراد من النقد ؟ .. والنقد هو فى الأصل تمييز

---

(١) الرسالة ، ١٧ اغسطس ١٩٣٩ .

الزائف من الصحيح فيدخل فيه اللوم ويدخل فيه الثناء .. ولكن احمد امين يتوهم بان النقد مقصـــور على الثناء ويرى الكلمة الطيبة بابا من التقريظ وهو عنده معيب ونحن نقول بلا تردد ان الادب العـــربى ادب اصـــيل والزائف منه لا يقام له وزن بجانب الادب الصحيح .. فكيف انحرف بصـــره عن المحاســـن ولم يشـــهد الا العيوب ؟ .. وهل فى الأدب حســـن وقبح .. الأدب جده جد وهزله جد ولا يعاب عليه الا ما غاب عليه التكلف والافتعال لو رزقنى الله الشـــجاعة لقلت ان هذا الرجل يتجنى على الأدب العربى لأنه لم يعرفه معرفة صحيحة ولو تد عرفه حق معرفته لادرك انه خليق بأن تبذل فى سبيله نفائس الأعمار من احرار الرجال .

، يعز على ان اراه يحبط اعماله بمقالات خطيرة لم تكن ثمرة لسهر الليل واقذاء العيون تحت اضـــواء المصـــابيح وانما كانت ثمرة لنزوة وقتية اراد بها ان يخلق حركة فى بعض المجلات ، والمجد كالرزق بعضه حرام وبعضه حلال ..

وامتدت المعركة الأدبية من طرف واحد فاستمر زكى مبارك يرد على آراء احمد امين فى مجلة الرســـالة لفترة طويلة حتى امتدت المعركة من مايو الى نوفمبر وفى نهاية تلك السلسلة من المقالات القيمة كتب الدكتور زكى مبارك مقالا اختتم به تلك السلسلة من المقالات يقول فيه(١)

(هل استطيع ان أحدث القارىء مرة عن بعض مكاره النقد الادبى .. ليتنى اعرف من اغرونى بسلوك هذا الطريق المحفوف بالمخاوف والمعاطب والحتوف .

، كنت تبت ونجانى الله من مهلكات هذا الطريق الوعر الشائك فكيف رجعت اليه بعد أن عرفت وجه الخلاص ؟

، كنت يومئذ مدرسا بكلية الآداب واخرج الأستاذ احمد امين الجزء الثالث من ضحى الاسلام وقد سرق من ابراهيم مصطفى مسالة متصلة بتاريخ النحو وسرق منى مسالة متصلة بتاريخ التشريع الاسلامى ، فصاح ابراهيم :

ان هذا اخى له تسع وتســـعون نعجة ولى نعجة واحدة فكيف يســـرقها منى انه لطماع وجلســـت أنا وابراهيم نتشـــاكى فى غرفة اساتذة اللغة العربية وانتقلنا من التشاكى الى التباكى فهتفت :

---

(١) الرسالة ، ١٣ نوفمبر ١٩٣٩ .

ـ سأنتقم لى ولك يا ابراهيم ..

ومنذ بضعة أشهر نشر الأستاذ أحمد أمين مقالته الأولى فيما سماه جناية الأدب الجاهلى على الأدب العربى فلم يعجبنى لأنى رأيتها من الحديث المعاد ثم لقينى مصادفة فى المترو بعد ظهور مقالته الثانية فسألنى عما أراه من الأفكار التى أودعها مقالتيه فقلت له ـ لم يعجبنى غير نقد الشاهد الذى أوردته فى كلام ابن قتيبة أما سائر أفكارك فتحتاج الى تحقيق فقال ـ أنا دعوت القراء الى مناقشة تلك الأفكار .. فهل كان يدعونى الى أن أساجله الحديث .. ؟

« كانت الصداقة بينى وبين الأستاذ أحمد أمين قد بلغت أقصى حدود المتانة والصدق وما كان ينتظر أن يرى منى غير ما يحب وكنت والله خليقا بالتجاوز عن سيئاته لو لم يسرف فى الاساءة الى ماضى اللغة العربية فى وقت يحرص فيه العرب على تفهيم أبناءهم ان أجدادهم كانوا من أصحاب المنازل الرفيعة فى العلوم والآداب والفنون وانهم كانوا فى ماضيهم من أقطاب الزمان وكذلك وقعت الواقعة وكل ما عرفه القراء من تمزيق الأوهام التى أعتز بها ذلك الصديق .

« اهتم الأستاذ أحمد أمين بالنص على أن الشعر العربى كان فى أغلب أحواله أدب معدة لا أدب روح وحجته فى ذلك أن التكسب بالشعر كان عادة غالبة على أكثر الشعراء وقد طنطن بهذه المسألة وأخذ يعيدها فى كل مكان وهذا الكلام وارد فى البدائع(١) .

« عاب أحمد أمين على العرب أن يلتزموا افتتاح القصائد بالتشبيب وان يتصلوا بهذه المادة من جيل الى جيل فى حين أن الشاعر قد لا يكون مشبوب العاطفة فى كل حين وهذا الكلام مسروق من مقال أرسلته من باريس سنة ١٩٣١ .

« اهتم الأستاذ أحمد أمين بتوكيد القول بأن نزعة القرآن روحية لا حسية فهل يعلم أن هذا الكلام مسروق من قول صاحب التصوف الاسلامى ؟(٢) .

« ان الفخر بغيض ممقوت وقد عابه على الأصدقاء قبل الأعداء ولكن ماذا أصنع وأنا أشهد آرائى تنتهب بلا تحرز ولا ترفق وبها

(١) البدائع الجزء الأول ، ٩٩ .

(٢) التصوف الاسلامى ، جـ ٢ ، ٧ .

يرد على خصومى حين يشتجر القتال وكأنها مما ابتكرت أفكارهم الثواقب والسنتهم النواطق ؟ .

« يقول أحمد أمين وطه حسين ان الأدب يجب ان يرفع نفسية الأمة ويدلها على مواطن الضعف والقوة لتواجه الحياة عن هدى وبصيرة فهل أستطيع أن اقول ان هذه الآراء منهوبة من قول صاحب رسالة اللغة والدين والتقاليد ؟(١) .

« اما بعد فقد انهيت القول فى محاسبة الأستاذ احمد أمين بعد ان ارقت جفونه خمسة اشهر كانت عنده كألف سنة مما تعدون .

« انتهيت من حاسبة أحمد أمين الباحث أما أحمد أمين الصديق فله فى قلبى أكرم منزلة وارفع مكان ولن يرانى الا حيث يحب فى حدود المنطق والعقل فما أرضى أن يكون من الساخرين بالأدب العربى وماضى الأمة العربية . وسأبداه بالتحية حين ثقفته فلا يروعنى وجها آراه أهلا للكرامة والحب ، وسلام عليه من الصديق الذى لا يغدر ولا يخون » .

***

وقد اظهرت تلك المساجلة العنيفة التى امتدت لفترة طويلة مدى عمق زكى مبارك فى البحث والدرس والتحليل وقوة منطقه واشتملت على آراء قيمة وجديدة فى النقد والأدب وكانت من جانب واحد فقد تجاهلها احمد أمين ولاذ بالصمت ولكن زكى مبارك فى تلك المعركة كان عفيف النفس صافى القلب رغم قسوة قلمه وعنف هجومه .

---

(١) اللغة والدين والتقاليد ، ٤٦ ، ٤٧

٩

معركة مع أحمد زكى أبو شادى

ساحاسب الدكتور ابو شادى على ما قاله بأقسى ما يكون من العنف ولكن على شرط يتيح له الدفاع عن نفسه فى حدود المنطق .

زكى مبارك

دارت مساجلة عنيفة سنة ١٩٣٦ بين الدكتور زكى مبارك والدكتور احمد زكى ابو شادى ويرجع سببها الى مقال كتبه الدكتور ابو شادى صرح فيه بآراء غريبة ودعا دعوات تغريبية ومن ضمن ما دعا اليه بعث فرعونية مصر وحديثه عن اصلها المسيحى السابق للاسلام ومباجمة الأزهر وعلماء الأزهر باسم مهاجمة الكنائس والمساجد معا ومهاجمة الاسلام باسم مهاجمة الأديان جميعها وقال عن فرويد انه الرسول الجديد لأنه نادى بالراى الذى يقول بأن الجنس هو الدافع الأول للحياة .

ورغم صداقة زكى مبارك للدكتور احمد زكى ابو شادى الا انه وقف موقفا صلبا حاسما من تلك الآراء الهدامة فامتشق قلمه وكتب يرد عليه ويهاجم افكاره يقول(١) :

(قرات مقال الدكتور ابو شادى عن (**فرويد**) فلم يرحنى وقرات له مباحث عن الدولة والدين فلم ترضنى وما احب للدكتور ابو شادى ان يتورط فى مسائل تفسح المجال امام الدساسين وما احب له ان يفتح اعيننا على مأساة جديدة فى عالم الاخلاق سأحاسب الدكتور ابو شادى على ما قاله بأقسى ما يكون من العنف ولكن على شرط يتيح له الدفاع عن نفسه فى حدود المنطق لقد عرفت وعرف الجمهور ان فريقا من خصومك قد شكوك الى النيابة العامة وقال بعض المطلعين ان مشيخة الأزهر اهتمت بدرس ما نشرته مجلتك انت الذى قلت فى مجلتك **(ان جميع ابناء مصر اقباط صميمون أغلبيتهم أسلمت بحكم** الفتح الحربى ؟ ..) انت الذى قلت ذلك ؟

ان كنت قلته فاين الدليل ؟ .. اين دراساتك التاريخية ؟ اين اطلاعك على تفاصيل ما ظفرت به مصر بفضل الاسلام ؟ .. اين ما روى

---

(١) البلاغ ، زكى مبارك ٢٣ اغسطس ١٩٣٦ .

التاريخ حين حدثنا ان والى مصر كتب الى عمر بن عبد العزيز ان حالة مصر فى خطر لأن الاقباط سارعوا الى الاسلام فقال (ان رسول الله بعث هاديا ولم يبعث جابيا) ؟ . . لنفرض جدلا ان اكثر الاقباط اسلموا بحكم الفتح العربى . . فهل من الذوق أن تقول ذلك وانت رجل مسلم اسمه احمد ؟ أن هذه سقطة ذوقية يجب أن تستغفر منها الذوق ان لم تستغفر الحق ؟ . . ومن موجبات الأسف أن هذه السقطة الذوقية تردى فيها من قبلك رجل مسلم اسمه طه حسين فى مقال كتبه فى جريدة كوكب الشرق ولكنه حوسب على ذلك حسابا عسيرا .

انت الذى قلت فى مجلتك بوجوب هدم الأزهر وهدم الكنيسة ليحيا المصريون حياة مدنية ؟ انت قلت ذلك وقد نقل ما كتبته فى مجلتك الى المجلة الجديدة (مجلة سلامه موسى هداه الله) وسلامه يسره ان ينشر فى مجلته ما خططته بقلمك فى مجلتك وليس عنده ما يمنع من هدم الأزهر وهدم الكنيسة تأسيا بقول الشاعر :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

ولكن اتعرف ما يكون لو هدمت الكنيسة وهدم الأزهر فى يوم واحد ؟

« اتعرف النتيجة ايها المسلم الذى اسمه احمد بن محمد والذى يرتفع نسبه الى الحسين ؟ تكون النتيجة أن يهدم الأزهر ثم لا يبنى ابدا لا قدر الله ولا سمح أما الكنيسة فتهدم ثم تبنى على قواعد أمتن وارسخ ؟

من اين جاءكم هذا التسامح يا ابناء اليوم ؟ من اين جاءتكم هذه الغفلة يا شعراء الجيل ؟ انت تشير بهدم الأزهر يا ابا شادى ؟ ولم ذلك ؟ اتستكثر ان يقوم اولئك المشايخ بنشر الثقافة الاسلامية والثقافة العربية ويرفعوا راس العالمين ؟ أمن القليل فى مسجد مصر ان يذكر اسمها فى كل لحظة بين اهل الشرق والغرب بفضل الأزهر الشريف ؟ سيطول بلاؤك يا ابا شادى حين تذهب الثقافة الأزهرية والى من يستند الأدب الحق حين ينقرض هذا النوع من التثقيف ؟

والأزهر مدرسة ومن مجد الاسلام انه يرى الدرس افضل من العبادة لأن الاسلام منذ نشأ يحمل طابع المدنية ويجعل المساجد معاهد الدرس والتثقيف .

وليس فى الدنيا كلها امة متدينة دعت الى العلم كما دعت اليه الأمة الاسلامية والمسلمون هم وحدهم الذين لا يفرقون بين المدنية والدين .

وهاجم زكى مبارك الدكتور ابو شادى لقوله عن فرويد انه الرسول الجديد وايمانه بقول فرويد ان الجنس هو الدافع الأول للحياة فكتب يقول :

(ان الجزء الأعظم من فلسفة فرويد تنتهى الى غاية واحدة هى ان الناس جميعا متأثرون بالغريزة الجنسية فى جميع المعاملات اما الأنبياء فلهم ميادين اخرى يفهمون أن الناس لا يعيشون للجسد وبالجسد الا وهم حيوانات .

ليست النيابة العامة التى تملك تقويمك وانما يملك تقويمك من يفهم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ..) .

***

هذه معركة زكى مبارك مع الدكتور احمد زكى ابو شادى الذى حمل لواء تلك الدعوة مخدوعا ثم تحول بعد ذلك الى النهج القويم وعاد فتمسك بدينه ولغته وتراثه وقوميته الأصيلة وشكر للدكتور زكى مبارك وقفته الصلبة الراسخة ضد أفكاره الهدامة وشططه فى ذلك الحين رغم صداقتهما القوية لسنوات طويلة .

١٠

بين زكى مبارك وسلامة موسى

أنا احرص على اللغة العربية الاسلامية خدمة لوطنى وقد بينت لسلامة موسى وجه الخطا فيما ذهب اليه من الدعوة الى الاقلال من العناية بالأدب العربى ، فاعمالنا نحن فى درس أسرار اللغة العربية هى الأساس لزعامة مصر فى الشرق ومؤلفاتنا فى الأدب هى المظهر لمجد مصر ٠

زكى مبارك

امتدت المعارك والمساجلات بين الدكتور زكى مبارك وسلامة موسى لفترة طويلة ووقف زكى مبارك موقفا صلبا حاسما من آراء سلامة موسى التغريبية ودعواته الشعوبية والاقليمية ومناداته بالعامية وانكاره لقيمة الأدب القديم كلية ٠

ومن تلك المعارك ٠٠ المعركة حول غاية الأدب ، فسلامة موسى يرى ان غاية الأدب هى توجيه الحياة الاجتماعية وان الأدب الحديث انفع من الأدب القديم بينما يرى الدكتور زكى مبارك ان الادب وثيقة تسجل منها مظاهر الحياة الاجتماعية وقد تصير دستورا تخضع له هذه الحياة ٠

كتب زكى مبارك يرد على سلامة موسى ويدحض آرائه يقول(١) :

(كنت بينت للخصم الشريف سلامة موسى وجه الخطأ فيما ذهب اليه من الدعوة الى الاقلال من العناية بالأدب العربى وكانت حجتى انه يعنى بالأدب الفرعونى مع انه موغل فى القدم وان الأستاذ عبد القادر حمزة يبذل جهودا عنيفة فى شرح الاساطير الفرعونية ولم يقل أحد انه يضيع وقته فيما لا يفيد ٠

فكيف يلام رجل مثلى اذا قصر عمره على درس الأدب العربى مع انه أدب حى لا يزال يسيطر على أذواق الناس فى المشرق والمغرب وهو فوق ذلك يفسر غوامض النفس العربية التى تلقت الاسلام ونشرته فى العالمين ٠

وأعود فاقرر ان لدراسة الأدب العربى غايات أخرى غير تلك الغايات الدينية وأبدأ فانقض حجة الأستاذ سلامة موسى اذ يرى ان غاية

---

(١) زكى مبارك ، الأسمار والاحاديث ، ١٩٣٩ ٠

الأدب هى توجيه الحياة الاجتماعية وأن الادب الحديث انفع دائما من الأدب القديم وعندى ان الأدب كما يكون ضربا من الاصلاح يكون نوعا من الوصف وهو وثيقة تسجل فيها مظاهر الحياة الاجتماعية ـ وقد يصير دستورا تخضع له الحياة الاجتماعية فان كنت فى ريب من ذلك فراجع كتب الأدب فى القديم والحديث تراها سجلات دونت فيها ازمات القلوب والنفوس والعقول والكتاب الاجتماعيون يعيشون فى عالم الواقع كما يعيش رجال القوانين ولذلك تراهم يهتمون بشئون لا يلتفت اليها أحد من الشعراء والأستاذ سلامة موسى كاتب اجتماعى وليس بأديب واللغة عنده ليست الا أداة تفاهم وكل تأنق فى العبارة يبدو لعينيه وكانه لغو واسراف والأدب القديم لا يمكن أن يحتل رأسا مثل رأس الأستاذ سلامة موسى أما الأديب ـ وارحمتاه للاديب ـ فهو انسان لا يعرف غير عالم المعانى وليس للدنيا فى نفسه حدود ولا تواريخ فهو يلتمس الحكمة حيث وقعت الحكمة الجميلة التى تحمل طابع الحق والخير والجمال ٠٠ الذى يهمنى ان أقرر ان الأديب لا يشوقه غير المعانى وهو من أجل ذلك لا يتقيد بالحدود التاريخية ولا الجغرافية وهو لا يعنى بالمشاكل الا من الوجهة الانسانية اما الاوضاع الاجتماعية فموقفه منها موقف الوصاف الذى يشرح المحاسن والعيوب وهذا يمنع ان يكون الأديب من أهل الكفاح وهو حين يكافح يصبح قوة خطرة فى الحياة الاجتماعية لأنه يحلق دائما فى الأجواء العالية ولا يقنع بالقليل ٠

قد يكون سلامة موسى فى دينه أصدق منى فى دينى والله أعلم بالسرائر ولكن من المؤكد أنى أصدق منه فى الوطنية فأنا أحرص على اللغة العربية والاسلام خدمة لوطنى وأنا أغض النظر عن هفوات كبيرة لرجال الدين لأنهم على أى حال من الشواهد على أن وطنى له سلطة روحية وقد تطوع المسلمون فى مصر لمعاونة الأحباش أيام محنتهم بعدوان الطليان بغرض وطنى هو الشعور بأن الكنيسة القبطية لها سلطات روحية على عقائد الاحباش فهل يغار الأستاذ سلامة موسى على الأزهر الشريف كما أغار على الكنيسة القبطية ؟ وهل من الكثير أن يكون منا عشرة أو عشرون أو ثلاثون يقضون أعمارهم فى دراسة ماضى اللغة العربية وهى اللغة القومية فى مصر منذ ثلاثة عشر قرنا ؟ وهل تعاب فرنسا وانجلترا وايطاليا بأن فيها مئات من الباحثين لا يهتمون بغير درس الذخائر من الأدب القديم عند اليونان والرومان ٠٠ ؟ وفى العرب نصارى ويهود ومسلمون لأن العروبة هى مصدر هذه الديانات الثلاثة ولو كان سلامة موسى من ادباء المآرب المادية لعذرناه وقلنا أنه رجل ينتفع من مؤازرة خصوم العروبة والاسلام ولكن سلامة موسى رجل عفيف القلب والجيب ولن يترك لاطفاله

غير ما ورث عن أبويه الكريمين فكيف يستبيح لنفسه ان يسىء الى سمعة مصر العربية الاسلامية بلا جزاء ٠٠ ؟

ان اهتمام الأستاذ سلامة موسى بالكلام عن الحرمان وتفاوت الطبقات فتات أخذه من موائد الأجانب الذين كتبوا فى الاشتراكية فليس فيه أصالة فكرية أما أعمالنا نحن فى درس أسرار اللغة العربية فهى الأساس لزعامة مصر فى الشرق فمؤلفاتنا فى الأدب هى المظهر لمجد مصر ٠

ان تجنى سلامة موسى على مؤرخى الأدب العربى بغير حق دليل على انه جاهل وجهول وجهالة ومجهال ٠٠٠ أنه يعادى لغة العرب لسبب بسيط : انها لغة القرآن المجيد ٠٠) ٠

* * *

وقد امتدت المساجلات بينهما لفترة طويلة على فترات اذ وقف الدكتور زكى موقف المنافح عن لغته وتراثه أمام آراء سلامة موسى التغريبية ودعواته الهدامة المتطرفة وهكذا عاش مبارك حتى النهاية عربيا أصيلا ووطنيا مخلصا صادقا رغم كل الظروف ورغم كل العوامل التى صادفته واعترضت طريقه ٠

١١

مع محمد فريد وجدى

وبعد تأمــلات طويلــة اهتديــت الى أن للنثر العربى أصولا غير الأصـــول الفارسية · وتلك الأصول هى النثر عند الجاهليين ، وبذلك يكون النثر الأموى نثرا متطورا عن النثر الجاهلى ولم ينقل نقلا من نمــاذج النثر الفارسى ، ثم بحثت عن الشواهد فرأيت القرآن أفصح شاهد وأصدق دليل ·

زكى مبارك

عندما أصدر زكى مبارك كتابه النفيس (النثر الفنى فى القرن الرابع الهجرى) سنة ١٩٣٤ ثارت ضجة عنيفة حوله ودارت عدة معارك أدبية ساخنة حول بعض الآراء فى هذا السفر القيم الضخم ومن النقاد الذين تناولوا ذلك محمد فريد وجدى سنة ١٩٣١ قبل نشر هذه الرسالة التى نال بها درجة الدكتوراه من جامعة السربون ·

وقد اثارت آراء زكى مبارك ضجة عنيفة ومن أبرز آرائه عن النثر الفنى ·

١ ـ ان العرب كانوا على قدر من الحضارة والعلم فلما جاء الاسلام ودفعهم الى الأمام اندفعوا ·

٢ ـ النثر الفنى كان موجودا عند العرب قبل الاسلام ·

٣ ـ ان العرب الجاهليين كانوا قد دخلوا فى تطور نحو ثلاثة قرون قبل البعثة المحمدية ·

٤ ـ القرآن شاهد من شواهد الشعر الجاهلى ·

وكتب محمد فريد وجدى يناقشه ويبدى رأيه فى تلك المسالة يقول(١) :

١ ـ ان استدلال الدكتور زكى مبارك على وجود ذلك النثر الفنى عند العرب بالقرآن لا يزال نراه معلولا ولا يصح الاصرار عليه فانه ان كان

(١) البلاغ ، ٨ اكتوبر سنة ١٩٣١ ·

القرآن وحيا سماويا أو فيضا وجدانيا من أية طريق روحانية فلا يجوز الاستدلال به أيضا فى هذا الموطن لأن هذا الكتاب اعتبرته أمة بأسرها كتابا الهيا معجزا للانس والجن مجتمعين ولا شىء يعتبر الهيا ومعجزا الى هذا الحد اذا كان فوق قدرة الذين يدينون بهذه العقيدة على الأقل ·· كيف يفترض أن يكون لفئات الناس من الأميين نثر فنى وهو نقيض الكتابة والتميز اليس لو كان لهم شىء من ذلك لكان كتابا يعتبرونه أساسا لديانتهم يقدسونه ويحتفظون به ككل أمة متدينة فى الأرض ان الأمة التى ليس لها كتاب مقدس لا يعقل أن يكون لها شىء مكتوب على الأقل واذا عدم المكتوب فقد عدم النثر الفنى ولا يجوز السؤال عنه ولا البحث فيه ·

٢ ـ انى لمعجب بتمسكه بالأسلوب العلمى الدقيق وبمهارته فى نقل المباحث الأدبية من مجال الظنون والاوهام الى مجال النظر المباشر المجرد عن الملابسات الدينية والتقاليد ولسنا ننكر ان سلوك هذه الجادة على وضوحها واستقامتها لا تخلو من الخصال التى تستدرج الباحثين الى مالا يتفق والأسلوب الذى يحرصون على تطبيقه فيضربون فى متاهاتها بمعزل عن الأعمال العلمية ويكون مثلهم فى تصرفهم فى تطبيق الأسلوب كمثل خصومهم الذين يتخبطون فى بحوثهم بغير دليل انى أوافق الدكتور زكى مبارك على أن حقيقة الحياة الأدبية عند العرب الجاهلية لايصح أن تؤخذ عن الذين كتبوا فيها من المؤلفين الذين تأثروا بالروح الدينية ونحوا فى وضعها نحوا يتفق وروايات رجال ليس مرماهم تقرير الحقائق ولكن الاغراب والزلفى من الحاكمين ··(١) ·

٣ ـ رأى زكى مبارك أن العرب الجاهليين كانوا قد دخلوا فى تطور نحو ثلاثة قرون قبل البعثة عارضناه فيه وأثبتنا له أن ثلاثة قرون تمضى فى التطور لا تثمر لذويه توحيد كلمتهم وتعيين غايتهم ولا تبعث فيهم داعيا يهيب بهم الى الأخذ بالأسباب وهو شرط لا محيص من وجوده · ان مثل هذا التطور المجرد من جميع مميزاته المعروفة لا يصح القول به فى عرف علم الاجتماع فان من شرط الافتراضات العلمية ان تكون مرجحات وأعلام والا لفظت الى عالم الأوهام ··(٢) ·

هذه جملة أراء فريد وجدى عن النثر الفنى ·

وكتب الدكتور زكى مبارك يرد عليه يقول (٣) ·

---

(١) البلاغ ، ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣١ ·
(٢) البلاغ ، ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣١ ·
(٣) البلاغ ، زكى مبارك ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣١ ·

القرآن وحيا سماويا أو فيضا وجدانيا من أية طريق روحانية فلا يجوز الاستدلال به أيضا فى هذا الموطن لأن هذا الكتاب اعتبرته أمة بأسرها كتابا الهيا معجزا للانس والجن مجتمعين ولا شىء يعتبر الهيا ومعجزا الى هذا الحد اذا كان فوق قدرة الذين يدينون بهذه العقيدة على الأقل .. كيف يفترض أن يكون لفئات الناس من الأميين نثر فنى وهو نقيض الكتابة والتميز أليس او كان لهم شىء من ذلك لكان كتابا يعتبرونه أساسا لديانتهم يقدسونه ويحتفظون به ككل أمة متدينة فى الأرض ان الأمة التى ليس لها كتاب مقدس لا يعقل أن يكون لها شىء مكتوب على الأقل واذا عدم المكتوب فقد عدم النثر الفنى ولا يجوز السؤال عنه ولا البحث فيه .

٢ ـ انى لمعجب بتمسكه بالأسلوب العلمى الدقيق وبمهارته فى نقل المباحث الأدبية من مجال الظنون والاوهام الى مجال النظر المباشر المجرد عن الملابسات الدينية والتقاليد ولسنا ننكر ان سلوك هذه الجادة على وضوحها واستقامتها لا تخلو من الخصال التى تستدرج الباحثين الى مالا يتفق والأسلوب الذى يحرصون على تطبيقه فيضربون فى متاهاتها بمعزل عن الأعمال العلمية ويكون مثلهم فى تصرفهم فى تطبيق الأسلوب كمثل خصومهم الذين يتخبطون فى بحوثهم بغير دليل انى أوافق الدكتور زكى مبارك على أن حقيقة الحياة الأدبية عند العرب الجاهلية لايصح أن تؤخذ عن الذين كتبوا فيها من المؤلفين الذين تأثروا بالروح الدينية ونحوا فى وضعها نحوا يتفق وروايات رجال ليس مرماهم تقرير الحقائق ولكن الاغراب والزلفى من الحاكمين ..(١) .

٣ ـ رأى زكى مبارك أن العرب الجاهليين كانوا قد دخلوا فى تطور نحو ثلاثة قرون قبل البعثة عارضناه فيه وأثبتنا له أن ثلاثة قرون تمضى فى التطور لا تثمر لذويه توحيد كلمتهم وتعيين غايتهم ولا تبعث فيهم داعيا يهيب بهم الى الأخذ بالأسباب وهو شرط لا محيص من وجوده . ان مثل هذا التطور المجرد من جميع مميزاته المعروفة لا يصح القول به فى عرف علم الاجتماع فان من شرط الافتراضات العلمية ان تكون مرجحات وأعلام والا لفظت الى عالم الأوهام ..(٢) .

هذه جملة أراء فريد وجدى عن النثر الفنى .

وكتب الدكتور زكى مبارك يرد عليه يقول (٣) .

---

(١) البلاغ ، ٢٠ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

(٢) البلاغ ، ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٣١ .

(٣) البلاغ ، زكى مبارك ، ٢٩ سبتمبر سنة ١٩٣١ .

(يرجع أصل الخلاف الى رغبتى فى نقض ما أصر عليه فريق من المستشرقين وشايعهم عليه الدكتور طه حسين من أن النثر الفنى عند العرب لم يعرف الا فى أواخر العصر الأموى حين أتصل العرب بالفرس واليونان فهو فن اكتسبه العرب بعد الاسلام وفى رأى المسيو مرسيه ان العرب يدينون فى نثرهم الى الفرس وكان ذلك رأى الدكتور طه حسين ثم عاد فقرر ان العرب يدينون فى نثرهم الى اليونان وحجة هؤلاء الباحثين ان العرب قبل الاسلام لم يكن لهم وجود أدبى ولا عقلى وأنه يمكن فقط الاعتراف بانه كان عندهم شعر لأن الشعر فن ساذج يوجد عند الأمم الهمجية ولا كذلك النثر فانه لغة العقل والعرب فى رأيهم كانوا قبل الاسلام يعيشون عيشة أولية لايعرفون فيها كيف تكون طرائق البيان تلك حجتهم وذلك أصل الخلاف ·

أما أنا فقد تطلعت الى تحقيق هذه المسألة منذ سنوات فقد نشر الدكتور طه حسين فى مجلة المقتطف سنة ١٩٢٦ مقالا عن النثر فى الخمسين سنة الماضية فقد تكلم عن بداية النثر الفنى وتكلم عن ابن المقفع وكيف كان يلحن ويحرف الكلم عن مواضعه لأنه فى ظنه كان أول الناثرين ولا يخلو مبتدىء من تعثر واضطراب فلما ذهبت الى باريس سنة ١٩٢٧ وجدت المستشرقين يبدئون ويعيدون فى هذه المسألة وعرفت ان المسيو مرسيه هو صاحب الرأى القائل بأن العرب اخذوا مناهج النثر عن الفرس لأن أول ناثر عند العرب هو ابن المقفع وكان فارسى الأصل وبعد تأملات طويلة اهتديت الى ان للنثر العربى أصولا غير الأصول الفارسية وتلك الأصول هى النثر عند الجاهليين · وبذلك يكون النثر الأموى نثرا متطورا عن النثر الجاهلى ولم ينقل نقلا من نماذج النثر الفارسى ثم بحثت عن الشواهد فرأيت القرآن أفصح شاهد وأصدق دليل ولما اطمئننت الى نظريتى اعلنتها للدكتور طه حسين سنة ١٩٢٨ على انها محاولة فراعه ذلك ورأى ان نظريته أو نظرية المسيو مرسيه أصبحت فى مهب الأعاصير ثم قال فى انفعال (انت عاوز تكفر ··) هنالك ابتسمت وقلت (لا بأس من ان يكفر زكى مبارك بسبب نظريته عن النثر الجاهلى فقد كفر أستاذ له من قبل بسبب نظريته عن الشعر الجاهلى وتلك ظاهرة طبيعية فان الشعر اقدم من النثر كما ان الأستاذ أقدم من التلميذ والكفر درجات بعضها مركب وبعضها بسيط) · وكان بيننا محادثات طويلة حول هذا الموضوع ستنشر بعد حين وان كان الدكتور طه غير رأيه قليلا لأن تلميذه أثر فيه تاثيرا غير قليل وهذا كلام يشرف الأستاذ اضعاف ما يشرف التلميذ ثم رجعت الى المسيو مرسيه فقارعته فى باريس مقارعة عنيفة انتهت باصراره على حذف الفصول التى كتبتها عن نظرية النثر الجاهلى فى الرسالة التى قدمتها الى السربون وانتهت من جانبى الى الاصرار على بقاء تلك الفصول

١٢

بين زكى مبارك ولطفى جمعه

« ومضت أيام واسابيع وكلية الآداب مشغولة بالبحث عمن يناظرنى فى موضوع « هل يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية ؟ » ثم علمت أن الأساتذة لم يرقهم أن يناظروا « المشاغب الأكبر » ، وهل من العقل أن يتقدم الأساتذة لمناظرتى وقد شاع وذاع انى اكبر المشــاغبين هى تهمة ظالمة ولكنها حقت على ، وســاقضى بقية العمــر فى الدفاع عن نفسى ولكن بلا نفع ولا غناء » .

زكى مبارك

دارت عدة مساجلات بين محمد لطفى جمعه والدكتور زكى مبارك على فترات متباعدة ومن تلك المساجلات والمعارك معركته معه حول كتاب النثر الفنى لزكى مبارك فقد كتب لطفى جمعه يعارض بعض آراء مبارك فى نشأة النثر الفنى كتب يقول : (١)

(الا فليعلم الدكتور زكى مبارك أن العرب فى جاهليتهم كانوا اميين الى درجة ذات فصول فلم يحفظوا عن طريق الكتابة شيئا يستحق الذكر ويبتعد عن الحقيقة بعدا شديدا كل من يقول أن الاسلام كان ناجا لنهضة علمية وأدبية واسلامية واخلاقية واجتماعية فقد اثبتنا من التاريخ والعلم أن العرب قبل الاسلام لم يكونوا على شىء من مؤهلات المدنية والنهضة بل كانوا على العكس فى حضيض من العصبية الحمقاء والمطامع الاشعبية وحب الانتقام والتفريق بين القبائل والاستهزاء بروابط الالفة القومية ..) .

هذا هو رأى محمد لطفى جمعه فى نشأة النثر الفنى .

وكتب الدكتور زكى مبارك يرد عليه يقول (٢) :

١ ــ قد جدت الحرب بكم فجدوا ..

أردت أن أسوق الى الأستاذ الوانا مما جرى به قلمه من التهكم والسخرية والاستخفاف ولكنى بعد لحظات تذكرت أن هذا كاتب سبقنى الى خدمة اللغة العربية بأكثر من عشرين عاما وليس من البر ولا المروءة أن نتعالم على رجال كانوا أساتذة يوم كنا طلابا وتذكرت بعد ذلك أن

(١) البلاغ ، ٦ سبتمبر ١٩٣١ .
(٢) البلاغ ، ٤ سبتمبر ١٩٣١ .

لى قراء كراما يراقبونى مراقبة شديدة ويحاسبونى على صغار الهفوات .

٢ ـ ان كنت ريحا فقد لاقيت اعصارا ... (١) .

اننا لا نستبيح لأنفسنا تحويل الخصومات العقلية الى خصومات شخصية ولكن الأستاذ لطفى جمعه عاد فملأ مقاله بعبارات يعرف هو كيف صيغت وكيف بنيت على روح القدر وانا عائد اليه وماض فى مقارعته ليعلم أننى أصلب عودا من أولئك الرجال الذين استلانهم فصال فى نقدهم وجال والف على حسابهم الأسفار الطوال (يقصد هجوم لطفى جمعه على طه حسين فى الشعر الجاهلى) ولقد استطاع الأستاذ ان يباهى بانه شغل بهذه الموضوعات قبل اليوم وله فيها ابحاث ودراسات فانى سأريه أن الأدب أصعب مرتقى واعز منالا من أن يمتلك ناصيته من يقرؤنه فى أوقات الفراغ ولست بهذا اغض من قيمة الأستاذ فهو رجل قانون ويعرف كما اعرف ان الأدب يقتل من يفرغ له قتلا ذريعا ولا يبقى له من الوقت ومن البال ما يتفوق به فى القانون أو غير القانون وقد تكون حرفة المحاماة قد علمت الأستاذ كيف ينقل مذاهب مهنته الى الدراسات الأدبية التى يحاول أصحابها ان يصبغوها بالصبغة العلمية ويبعدها عن مداورات المحامين الذين يصورون الباطل بصورة الحق حين يشاءون ..) .

هذه هى معركته معه حول النثر الفنى .

وفى سنة ١٩٤٠ وقعت بينهما مناظرة بمدرج كلية الآداب بالجامعة المصرية وكان موضوعها (هل يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية وايد هذا الرأى الدكتور زكى مبارك وعارضه لطفى جمعه ورسم زكى مبارك صورة لتلك المناظرة العنيفة فيقول(٢) :

(سألنى فريق من اعضاء كلية الآداب ان اشترك فى مناظرات هذا الموسم وعرضوا على طوائف من الموضوعات لم يرقنى منها غير موضوع (**هل يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الأخلاقية**) ولكنى اقترحت ان يعدل فتوضع كلمة (**الفوضى الاجتماعية**) مكان (**الفوضى الأخلاقية**) ومضت ايام واسابيع والاتحاد مشغول بالبحث عمن يناظرنى من اساتذة كلية الآداب ثم علمت ان الاساتذة لم يرقهم ان يناظروا (**المشاغب**

(١) البلاغ ، ١١ سبتمبر ١٩٣١ .

(٢) الرسالة ، زكى مبارك ، ٢٥ اغسطس ١٩٤٠ .

الأكبر) على حد تعبير الدكتور هيكل باشا وهل من العقل أن يتقدم أحد الأساتذة لمناظرتى وقد شاع وذاع انى اكبر المشاغبين ؟ .

• هى تهمة ظالمة ولكنها حقت على وسأقضى بقية العمر فى الدفاع عن نفسى ولكن بلا نفع ولا عناء لأن الناس عندنا يؤذيهم أن يصححوا رايهم فى رجل ظلموه بلا بينة ولا برهان واخيرا ظفر اتحاد الكلية برجل يناظرنى .. ولكن اى رجل ؟ .. كاتب مشهور كانت لى معه وقائع فى الجرائد والمجلات .. فقلت فى نفسى هى مكرمة من مكرمات الاستـــاذ لطفى جمعه فقد هداه القلب الطيب الى اننى رجل ينهاه الادب والذوق عن الاستخفاف باقدار الزملاء » .

• ويميل الأستاذ لطفى جمعة على اذنى وهو يقول : (اهنئك على ان عرضت سمعتك للأراجيف فى سبيل الحق فابتسم وانتظر ان يصـــنع ما صنعت ليظفر بتهنئتى) » .

وينهض الخصم الشريف فيسلك فى تحقيرى جميع المسالك ويرى اننى فوضى اثيم وينهى الجمهور عن الانخداع بآرائى ويعلن عجبه من ان يكون لى كتاب اسمه التصوف الاسلامى فى مجلدين كبيرين مع انى من انصار الفوضى الاجتماعية ويقضى فى تحامله ساعة وبعض ســـاعة وانا ساهم مطرق اكاد اذوب من الخجل والحياء واعود الى نفسى فأندم على تعريض سمعتى لهذا الضيم البغيض واعرف أنى اخطأت فى قبـــول المناظرة مع الخصم الشريف واعاهد الله على اعتزال الناس الى يـــوم الممات .. وما الذى يغرينى بصحبة بنى آدم ولم الق منهم غير شـــجا الحاوق وقذى العيون ؟ .. ولقد اقمت دارى على حدود الصحراء لآنس بظلمات الليل ولانسى اننى موصول الأواصر بهذا الخلق ولاناجى موات البادية حين اشاء .

• لطفى جمعة الرجل الفاضل الذى اثنيت عليه فى خطبتى يقضى فى شتمى ساعة وبعض ساعة تلك احدى الأعاجيب ان كان الفـــكر فى زماننا من الأعاجيب . أين انا من دهرى وزمانى ؟ أمثلى يشتم جهرة فى كلية الآداب وقد حملت على كاهلى احجار الأساس ؟ .. هو ذلك وعلى نفسى انا الجانى فقد عرضت سمعتى للجدل الذى يسمونه مناظرات وينتهى الأستاذ لطفى جمعة بعد أن مزق آرائى كل ممزق وبعد أن شفى صدره منى وقد كانت بينى وبينه ترات وضغائن وحقود .

ويعلن رئيس المناظرة أن ليس لى غير خمس دقائق .. وما الذى أستطيع أن أصنع فى خمس دقائق وقد جرحت أشنع تجريح ؟

ما الذى أستطيع أن أصنع وقد سمعت ما أكره فى معهد يؤذينى أن اذكر فيه بغير الجميل ؟ فى خمس دقائق يعرف الأستاذ لطفى جمعه أن لحمى مر المذاق ويؤمن وهو كاره بأن التطاول على رجل مثلى لا يمر بلا جزاء ويعرف من قاطعونى أن شأنى أعظم مما يظنون ؟ فى خمس دقائق تحول السامعون من حال الى أحوال فصاروا جميعا من أنصارى فى خمس دقائق شهدت أحجار كلية الآداب بأن المنطق اعظم من التنكيت فى خمس دقائق عرف غريمى أن سهر الليل فى الاستعداد للحرب أمر يوجبه العقل الصحيح) .

هذه هى قصة مناظرة الدكتور زكى مبارك مع لطفى جمعه سنة ١٩٤٠ حول موضوع (يزدهر الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية) الذى أيده زكى مبارك ..

* * *

اختار الدكتور زكى مبارك الجانب الشائك من موضوع تلك المناظرة فأيد الرأى الذى يقول بأن الأدب يزدهر فى عصور الفوضى الاجتماعية فما هى الحجج التى أوردها ليؤيد هذا الرأى الجرىء !؟ ...

يرى الدكتور زكى أن الفوضى الاجتماعية ترج الاذهان رجا عنيفا وتفتح أمام الأذواق أبوابا ومذاهب وتقهر العقول على التفكير فى مصاير الانسانية عند اضطراب المجتمع ويقول ان الفوضى هى التى مهدت السبيل الى ظهور الحكمة على السنة الحكماء .

ويقول زكى مبارك عن سبب ازدهار الأدب فى عصور الفوضى الاجتماعية (الأدب يأخذ وقوده من قلق الأفئدة والأرواح والعقول ولا يقع ذلك القلق الا عند اضطراب المجتمع فليت شعرى كيف يجد خصمى حجته وهو ينتظر ازدهار المجتمع فى رحاب المجتمع الهادىء الرزين ؟ ..

الأدب من صور الحياة والحياة تقلب وتفزع وصراع وهل يعرف السلام المطلب غير الأموات ؟ ..

٢ ــ أرجوكم للمرة الثانية أو الثالثة أن تذكروا أني لست من أنصار الفوضى الاجتماعية وانما انا مؤرخ لظاهرة من الظواهر الأدبية

والفلسفية والمؤرخ غير مسئول عن حوادث التاريخ وكم تمنيت السلامة من مكاره الفوضى التى تثور فى صدرى والتى قضت بأن يكون ميدان قتال بين الملائكة والشياطين فى صدرى أتون يأخذ وقوده من الأحلام والأوهام والحقائق والاباطيل ثم يقول فى كل لحظة : هل من مزيد ؟ وهذا الأتون يفرض على أحيانا أن ألقم فمه الشره الأكول بأكداس من الآراء تشبه الحطب المعطوب ليسكت عنى لحظة أو لحظتين كما يقدم الأعرابى لناره الموقدة أكداسا من العظام والتراب .. ويشهد الله أنى أكره أشد الكره بعض ما يصدر عن قلمى ولكن ماذا أصنع وفى صدرى نار تأكل الحجر والطوب حين يعييها أن تجد الوقود الصالح من جذوع الشجر والنخيل ؟ ..

٣ ـ انا أكره الفوضى لأنها كدرت حياتى ولأنها جعلت صدرى ميدانا لاصطراع الهدى والضلال ومع ذلك أجد العزاء حين أشاء .

فبفضل الفوضى فى تقسيم الحظوظ نشأت مذاهب أدبية وفلسفية واقتصادية صنعت ما صنعت فى توجيه الأذهان والعقول بالشرق والغرب حياة الشواطىء افك وسفاهة وضلال ولكن الأدب يستفيد من كل شىء لأن مهمة الأدب هى الوصف والشرح والتعليل وحياة الشواطىء تمده بوقود رائع جزيل .

حياة الشواطىء كلها مآثم ، ولولا الخوف من بغى الحاسدين والحاقدين لقلت أن المآثم لا تخلو من بريق يزلزل القلوب والأذواق والعقول ، ومن هذه الزلزلة تكون الرجفة التى تثير شياطين الشعر والخيال .

عمر بن أبى ربيعة فاجر بحسب الاصطلاح وهيامه بزائرات مكة هيام اثيم ولكن أشعار ذلك الفاجر صارت من ذخائر الأدب العربى .

الأدب حظنا جماعة المكتوين بالدنيا والناس وليس لسوانا غير الاحلام أحلام الناعمين بهداة الليل . عنا يصدر قلق الفكر وازعاج البال وعنا مصدر يقظة الرأى والعقل فما بال قوم يتوهمون انهم قادرون على مساوره الشعر والخيال وهم يشاركون الأموات فى الهدوء والاطمئنان ؟ عنا يصدر الاحساس بالدنيا والوجود لاننا اشقياء بالدنيا والوجود فما بال قوم يتوهمون القدرة على اقتحام جحيم الأدب وهم بفضل نعيم النظام سعداء ؟ ..

عنا يصدر الأدب الصحيح لأننا أصحاء وهل يحس وخز الألم غير من يملك عناصر العافية ؟

النظام قرار والاضطراب حركة والحركة ادل على الحياة من السكون جعلني الله وإياكم من الأحياء ! ..

أنا أبغض الفوضى أشد البغض وأرجو الله في كل وقت أن يحفظ على نعمة السلامة من مكايد الشياطين ولكن مؤرخ الأدب والمؤرخ لا يصدق الا أن تناسى منافعه الذاتية ونظر فى الحوادث بلا غرض والنزاهة عن الغرض هى التى تقتضى هذا الموقف الشائك فأسجل على نفسى القول بأن الأدب لا يزدهر الا فى عصور الفوضى الاجتماعية وهو قول يعرضنى لقوارص الاغتياب والتجريح ! ..

• لو سلم المجتمع من الاضطراب لأغلقت المحاكم أبوابها ، ولم يبق أمام الأستاذ محمد لطفى جمعه المحامى الا الفرار الى الريف ليأخذ قوته مما تخرج الأرض بجهاد الفأس والمحراث » !

- ١٣ -

بين زكي مبارك والزيات

« وللزيات أن ينسى أنى عرفته أو عرفنى ، فأنا نفسى تناسيت فنسيت ، ولم يعد بينى وبين الرسالة من صلة غير ما ينشر فيها من الأبحاث الجياد ، كان رأيى أن معاونة الرسالة فريضة على كل مصرى لأنها صوت مصر فى الشرق » .

« ليكن اليوم آخر عهدى بك وبالرسالة وبالأدباء .. ان أكتب شيئاً لك ، ولن أذكر بعد اليوم أدباءنا بخير ولا بشر » .

زكي مبارك

كانت مجلة الرسالة الرسالة التى اسسها احمد حسن الزيات وعلى مدى عشرين عاما (١٩٣٣ — ١٩٥٣) هى المجلة الأدبية الأولى فى الشرق وقد كتب على صفحاتها نخبة متميزة من كبار الأدباء والمفكرين العرب ومن ابرزهم الدكتور زكى مبارك .

وكانت الفترة التى كتب فيها الدكتور زكى مبارك فى الرسالة (١٩٣٨ — ١٩٤٤) من أخصب فترات حياته الأدبية واكثرها انتاجا أدبيا .

وكان زكى مبارك يرى أن الحقبة التى اشترك فيها فى تحرير مجلة الرسالة انتهبت طاقته الشعرية فحولتها الى صور نثرية ويعترف بأن قلمه تجلى فى مجلة الرسالة الى الطف حدود التجلى خاصة فى الفترة التى هرب فيها الزيات ومعه الشيخ محمود الزناتى الى المنصورة بعد ازدياد الغارات الجوية على القاهرة والاسكندرية سنة ١٩٤٠ أثناء الحرب العالمية الثانية فبقى زكى مبارك وحده يشرف على تحرير « الرسالة » بدون مكافاة لأنه اعتبر هذا العمل عمل وطنى ورسالة نبيلة ، فعوض غياب الزيات بكتابة ثلاث مقالات فى كل عدد : مقال باسمه ومقال باسم « كاتب كبير » ومقال باسم « الكاتب المجهول » وقصيدة باسم « الشاعر المجهول » .

***

وكان مبارك يكن تقديرا للزيات ولأدبه وقد صور رأيه فيه بقوله(١) :

« والحق انه رجل ممتحن بنفسه وبالدنيا وبالناس ، فأدبه الذى ينشره اليوم قد يكون صدى لتجاربه منذ أكثر من ثلاثين سنة ، والكاتب لا يعرف أين هو من حاضره وماضيه لأنه مشدود الى قافلة الوجود » .

ويقول عن أدبه (والمزية الأصيلة للزيات انه يخلو بنفسه وان كان محفوفا بالرفاق فى لحظة صفاء ولن انسى ابدا اننا كنا نقضى سهرات كوامل ونحن فى أودية بعيدة ، وان كنا فى مكان واحد ، فلم اكن منه ولم يكن منى لأن عالم الفكر غير عالم الشهود ، ولأن الاقامة فى ظرف المكان لا تمنع القلب المتحرك من التجول فى آفاق العقول والقلوب والأحاسيس) .

***

---

(١) الرسالة ، نوفمبر ١٩٤٠ .

وفى سنة ١٩٣٩ نشر الدكتور زكى مبارك مقالا فى الرسالة عن النواحى الانسانية فى الرسول « ... ومما جاء فى هذا المقال (١) :

« احبك ايها الرسول ... أحبك لانك كنت انسانا لـه ذوق واحساس ولم تكن كما يصورك الجاهلون الذين راوا عظمتك فى ان تكون حاكيا لوحى السماء .. وما انكر وحى السماء .. ولكنى اؤمن بأن فى السريرة الانسانية ذخائر من الصدق والروحانية وانت اول نبى أعز السريرة الانسانية » .

« احبك لانك اعلنت حبك لطيبات الحياة واحتقرت الرهبنة والانزواء فى المعابد والصوامع .. احبك لانك انتقلت من المعلوم الى المجهول ... احبك لانك اعززت الشخصية الانسانية يوم اعترفت بأنها صالحة للخطأ والصواب ولكن ما رايك فيمن يقاومون الحرية الفكرية باسم الغيرة على دينك ... ؟ وما رأيك فيمن لا يرضيهم أن تكون انسانا يتذوق اطايب الحياة ويلهو أحيانا بالمزاح المقبول ... ؟ ما رايك فيمن يحاربون الفنون والآداب باسم الدين .. ؟ ما رايك فيمن يخرجون من فردوس العقيدة الصحيحة كل من يتسم بسمة الحب لأطايب الحياة .. ؟ انت حاربت الزهد وحاربت العبوس .. وحاربت اليأس ولكن بعض الناس يرون الايمان لا يكمل الا عند من يغرقون فى لجج المسكنة والكآبة والقنوط .. كنت انسانا ايها الرسول قبل أن تكون نبيا .... » .

هذه بعض النواحى الانسانية فى الرسول كما يراها الدكتور زكى مبارك فكيف استقبل جماعة المرائين باسم الدين .. هذا المقال .. ؟

استقبلت تلك العصبة كالعادة هذا المقال بالصخب والضجيج .

وهاجم الذين يأكلون السحت باسم الدين والأخلاق الدكتور زكى مبارك واتهموه بالالحاد والزندقة .. فلما استدار العام طلب الزيات من الدكتور زكى مبارك مقالا لعدد الهجرة من الرسالة وقال له « لا تكفر كما كفرت فى مقال السنة الماضية » وكتب زكى مبارك يعاتب الزيات والمرارة فى أعماقه يقول (٢) :

« سبحان الله ... وانا كفرت فى السنة الماضية يا زيات .... ؟ هل تصدق أن فى خصومى من يدرك من عظمة الرسول ما ادرك ... ؟ ان بينى وبين الرسول صلة وثيقة هى البلاء بالدنيا والناس ...

(١) الرسالة ، زكى مبارك ، « النواحى الانسانية فى الرسول » مارس ١٩٣٩ .
(٢) زكى مبارك ، الرسالة ١٩٤٠ .

فكيف يتوهم قوم أنهم يغارون عليه أكثر مما أغار عليه وهم لا يتقدمون لنصرته الا مدفوعين بالثمن الذى أعرف وتعرف .. ؟ » .

***

وقد تعرضت الصداقة بين زكى مبارك والزيات الى مكاره كثيرة (ما بينى وبين الأستاذ الزيات من الوداد قد تعرض لمكاره كثيرة فقد كان لنا فى كل يوم عتاب جديد .. وكان حين يتعب منى يقول :

كيف أستطيع أن أصلح ما بينك وبين الناس .. ولا استطيع أن أصلح ما بينك وبينى .. ؟

وقد حدثت جفوة بينهما عندما دعا زكى مبارك الى الصفاء بين الادباء وبين توفيق الحكيم الذى هاجم الزيات بحجة أنه حاد عن رسالته فى الرسالة ... يقول الزيات موجها خطابه الى توفيق الحكيم :

« يقول انى حدت قليلا عن رسالتى فى الرسالة وقليلا هنا معناها زكى مبارك ... وزكى مبارك يا توفيق لون من ألوان الأدب المعاصر لابد منه ولا حيلة فيه ... هو الملاكم الأدبى فى ثقافتنا الحديثة اما عنفه وشماسه فهما الصبغ المميز للونه .. ولو شئت أن تجرد هذا الملاكم المبارك من عنف الهجوم وخشونة المراس لما بقى منه غير توفيق الحكيم واسلوب الحكيم وحمار الحكيم .. على انه هو نفسه أول الشاهدين على أن صفارتى قد بحت من طول ما اهابت به وهو فى قفازه السنتريسى يهدر فى المجال بين الجبال مغضيا بعض الأغضاء عن قواعد الملاكمة .

وزكى مبارك بعد هذا سليم الصدر صريح القلب .. رياضى الروح لا يتحرج أن يطلب الى صديقه فى مقال هذا العدد أن ينصره ظالما أو مظلوما فى حدود تفسيره الخاص » .

وشعر زكى مبارك بمرارة العلقم فى حلقه فكتب يعلن مقاطعته للرسالة يقول موجها كلامه الى الزيات : (١)

(صديقى الزيات حتى أنت قد خاب املى فيك .. اننى الذى دعا الى الصفاء بين الأدباء كما رأيت وبذلت فى ذلك ما بذلت ورددت الحقوق الى أصحابها وأديت الواجبات على تمامها وازلت عن النفس أسباب الكدر وطهرت القلم من أدران الشر .

---

(١) الرسالة ، الزيات يونية ١٩٤٢ .

ليكن اليوم آخر عهدى بك وبالرسالة وبالأدباء .. لن اكتب شيئا لك .. وان اذكر بعد اليوم أدباءنا بخير ولا بشر وسأصمت عن اشخاصهم صمت القبر لأنصرف الى الانتاج وحده من حيث هو انتاج ماضيا فى اصدار كتبى لترائى الاوفياء .. فلا حلم فى صفاء ولا امل فى مودة بين ادباء ..

***

ولكن السبب الرئيسى والمباشر لترك الدكتور مبارك للرسالة هو سماح الأستاذ الزيات لعدد من أدعياء الأدب وصعاليك الصحافة من جماعة المرائين .. من اهل الجمود .. امثال محمد أحمد الغمراوى والسباعى بيومى ومحمود قراعة وبدأ تلك الحملة الغمراوى حين قام بنشر سلسلة من المقالات سنة ١٩٤٤ يثبت فيها الحاد زكى مبارك لعبارات لم يفهمها حين قرأ كتاب مبارك (النثر الفنى) وقد اتسمت كتابات هذا الرجعى بالتحامل والتجنى والحقد على الدكتور زكى مبارك .. وقد كتب تلك المقالات لأحداث الضجيج والدوى كسبا للشهرة واظهار نفسه فى صورة الذى يدافع عن الدين حتى ولو اتهم زكى مبارك بأنه زنديق وكافر وملحد وعدو للقرآن وللاسلام .. وقد استخدم فى مقارعة زكى مبارك أساليب غير نزيهة وإثار حوله الأراجيف والأباطيل حتى ان أبناء الدكتور زكى تعجبوا من سماح الأستاذ الزيات لهذا الكاتب المجهول ليزعم ان مبارك يحارب القرآن ويحارب الدين ... وهم يرون والدهم مثالا للتقوى والصلاح .. ويرونه يدعوهم فى كل يوم الى المحافظة على الصلوات ..

وكانت مقالات هذا الدعى المفعمة بالتجنى والحقد والتحامل سببا قويا فى ترك زكى مبارك للرسالة فى نهاية سنة ١٩٤٤ وشعر زكى مبارك بالمرارة فى أعماقه فكتب يعلن مقاطعته للرسالة ويعاتب الزيات والمرارة تقطر من كلماته يقول زكى مبارك (١) .

« وللأستاذ الزيات ان ينسى انى عرفته او عرفنى فانا نفسى تناسيت فنسيت .. ولم يعد بينى وبين الرسالة من صلة غير ما ينشر فيها من الابحاث الجياد كان رأيى أن معاونة الرسالة فريضة على كل مصرى لانها صوت مصر فى الشرق ولم يقع ما يغير هذا الرأى ..

---

(١) الرسالة : زكى مبارك ١٩ يونية ١٩٤٤ .

فالرسالة باقية باذن الله .. وسأعاونها ما حييت .. وساتذكر فى كل وقت انها كانت لقلمى اجمل ميدان وارحب ميدان .. والله عز شانه هو الذى اراد ان يقع ما وقع فما كان يخطر فى بالى ان لقراء الرسالة نحـــو كتابها عواطف تصل الى حد العشق ولا كنت اتوهم اننى سأتلقى فى كل يوم خطابات من قرائى فى مصر والشام والعراق .. كلها اسف على ما قيل من انى خاصمت الرسالة .. وخاصمت الأستاذ الزيات ... ثم يقول « والأستاذ الزيات يعرف كيف جنى قلمى على حياتى .. وكيف خلق لى الوفا من الأعداء وكيف قضى بأن اعيش فى وطنى عيش الغريب .. ؟ » .
وهل ينسى حزنه لحزنى يوم نجح بعض الحاقدين فى محاربة الحوار الذى أدرته على لسان آدم ولسان حواء .. ؟

وهل ينسى العلقم الذى اجترعناه معا .. ونحن نعانى ثورة الجهال على القلم البليغ ... ؟

ثم يتحدث زكى مبارك عن ظاهرة خطيرة فى المجتمع الاسلامى .. يقول عن تلك الظاهرة وهو يحس بالمـــرارة والكمـــد (مضى ما مضى واصبح وداد الأستاذ الزيات طيفا من اطياف التاريخ فلم يبق الا أن انص على ظاهرة خطيرة ... ظاهرة موذية تزلزل المجتمع الاسلامى من حين الى حين ... وهى تتمثل فى غرام الجاهلين بالغض من عقائد المثقفين ليقولوا انهم وحدهم اهل الايمان ولا يعز انفسهم عن جهلهـــم البغيض وتلك تعزية كانت تنفع فى الأيام الخوالى ولكنها اليوم أضيع من الضياع ... » .

ثم يتساءل زكى مباركَ وهو يحس بالحزن العميق : واذا الحدنا فمن يؤمن ...... ؟

« أيؤمن الجاهلون وقد حجبهم الجهل عن الايمان ؟ على انفسهم فليبكوا ان كانوا صادقين .. فما فوق غفلتهم غفلة ولا فوق جهلهم جهل وهم حطب جهنم ولكنهم لا يشعرون .

* * *

ثم ترك الدكتور زكى مبارك مجلة الرسالة فى نهاية سنة ١٩٤٤ م وعاد يكتب فى البلاغ (الحديث ذو شجون) بعبارات مفككة واسلوب ضعيف لأنه اخذ يذوب تدريجيا فى سنواته الأخيرة حتى مات وهو يحمل لواء البيان ..

الفصـــل التاســع

بين زكي مبارك والنقاد

« وأخشى ألا أظفـــر بكلمـــة رثاء يـــــوم يشـــيعنى الناس الى قـــبرى ، فذاكـــرة بنى آدم ضـــعيفة جـــدا .. وهم لا يذكرون الا من يؤذيهم أما الذى يخـــدمهم ويشـــقى فى ســـبيلهم فلا ينكـــره أحـــد منهم بالخـــير الا وفى كلامـــه نـــبرة تشـــير الى أنـــه يتصـــدق بكلمـــة المعـــروف »

زكي مبارك

١

محمــود تيمور

« زكى مبارك أديب عــربى قح ومفكر عروبى محض يملكه الايمان بالعـــربية والغيرة على العروبة على الرغم من تحليقه فى آفاق أخرى من الثقافة والتفكير .

« وبجانب ذلك فهو كشــــكول حى مبعثر بل مسرحية مختلطة فيها مشاهد شتى من ماساة وملهاة ومهــزلة أو لكأنه « برج بابل » ملتقى النظائر والأضداد » .

محمود تيمور

هذه بعض ذكريات الكتاب والادباء عن الدكتور زكى مبارك وآراء النقاد فى أدبه وكتاباته ومذهبه الأدبى وهى آراء أقلام نزيهة منصفة عرفت للرجل قدره وكفاحه وعصاميته ومكانته الرفيعة كناقد وباحث من الدرجة الأولى وكعميد للأدب الوجدانى العربى وقد آن الأوان لنتعرف على زكى مبارك .. ذلك المجهول .

* * *

محمود تيمور :

كان محمود تيمور أحد أصدقاء الدكتور زكى مبارك وكانت له معه ذكريات طريفة باسمة .. ومن ذكرياته الطريفة معه ذلك اللقاء الذى تم بينهما فى الطريق قبل وفاة زكى مبارك ببضع سنين ومن خلال تلك المقابلة العابرة بينهما .. ومن خلال حديث زكى مبارك الى محمود تيمور سنلمس ملامح شخصية زكى مبارك ونرى صفاء نفسه وخفة ظله الى ملامح أخرى من شخصيته الفذة ...

.. كتب الأستاذ محمود تيمور يروى ذكرياته مع الدكتور زكى مبارك فيقول أنه منذ سبعة عشر عاما أو نحوها فى يوم صفا اديمه ورق نسيمه كنت متخذا سمتى نحو المحكمة لبعض امرى وانا مشغول بما يجول فى راسى(١) فاذا انا بغتة أمام رجل ذى قامة وافية تكسوه حلة ضافية وهو يخب فى سيره محلول رباط الرقبة وقد تأبط رزمة حافلة بالصحف والكتب والأوراق وعلى محياه طلاقة وبشر وفوق رأسه طربوش مستلق الى وراء يطل من حافته شعر جعد مهوش وما أسرع ان اقبل نحوى وضرب كتفى قائلا :

— هل قرات قصيدتى الغزلية فى البلاغ امس .. ؟

فلممت شتات فكرى واجبت :

— وهل يفوتنى ذلك يا دكتور .. ؟

— وما قولك فيما قرات .. ؟

---

(١) الهلال : محمود تيمور « زكى مبارك فتى سنتريس » مايو ١٩٦٦ .

— قصيدة غراء وفريدة عصماء كشانك فى كل ما تنظم ..

— انك تثنى عليها اشفاقا على نفسك منى ايها الصديق ..

— وماذا تريدنى أن افعل .. ؟

— قل الحق ولك الأمان ...

— اصدقنى يا دكتور .. اتلتزم انت الحق دائما فى كل ما تقول .. ؟

— انك تعلم وغيرك يعلم ان الدكاترة زكى مبارك اجرا خلق الله وانه لا يخشى لومة لائم فى قولة الحق ..

— وقولة الباطل .. اجرىء انت فى قوله ايضا ... ؟

— ماذا تعنى .. ؟

— اعنى أنك ربما استطعت أن تعطى الباطل صبغة الحق بفضل ما اوتيت من قوة حجة وتوقد فطنة ... هل تعوزك المهارة واللباقة يا دكتور .. ؟

فتمالى بقهقهة ريفية مجلجلة وقال وهو يضرب يدى :

— انا كما ترى أن اكون .. حسبى الا تنكر جراتى وشجاعتى ايها الصديق و ماأقرب الباطل من الحق او ما أقرب الحق من الباطل فى بعض الأحيان حتى لكانهما سيان ...
فقلت له مبتسما :

— ان اعترافك هذا اكبر دليل على ما التزمت به من جراة وشجاعة .

ثم خاض الاثنان فى شجون من الأحاديث واخبره زكى مبارك انه قتل احد خصومه فى معركة صحفية وانه أكرمه بهذه الميتة الأدبية الرفيعة ويقول زكى مبرك لمحمود تيمور (من يمت بسيف زكى مبارك ناله شرف عظيم .. لقد كان شرف للخوارزمى ان يفحمه الهمذانى اشد الافحام ويقضى عليه بالموت الزؤام .. فقال له محمود تيمور :

— نعم كان العراك بينهما شديدا فيما سجلته كتب الأدب والتاريخ ..

— اى كتب يا سيدى .. ؟ هل قرات ما كتبته انا عن ذلك فى كتابى (**النثر الفنى**) أروع روائع الكتب التى تمخض عنها القرن العشرون ...

— كتابك الذى شهدت له جامعة السربون وأنالتك عليه أجازة الدكتوراة ...

— ستنهدم السربون وغيرها من جامعات فرنسا بل جامعات العالم اجمع حجرا حجرا ويبقى اسم زكى مبارك وكتابه (**النثر الفنى**) ... اتشك فى ذلك ايها الصديق ... ؟

— وهل ظننت انى اشك يا دكتور .. ؟ كل ما فى الأمر انك ذهبت بكتابك ليطلع المستشرقون على ثمرات بحثك ودراستك فازدادوا ، معرفة بأدبنا العربى وايمانا بعبقريته .

— لقد كنت هنالك فى فرنسا مهوى أفئدة الناس من مستشرقين وغير مستشرقين من رجال ونساء .. لا تنس ايها الصديق ان الحسان الفواتن فى باريس كن يتعشقن (**فتى سنتريس**) ...

— ولكنك يا دكتور لم تهو الا (**ليلى المريضة فى العراق**) وباسمها اخرجت كتابك المعروف ...

— ان لى فى كل مكان ليلى مريضة بحبى ... الهمها انس الحياة وتلهمنى روائع القريض .

※ وهنا لمح سيارة أجرة مارقة فتنحى عنى عجولا وصاح يستوقفها فلما اطاعت جذب منها راكبها فنزل يصافحه وانخرط معه فى حديث فياض تتناول اطرافه نبأ القصيدة الغزلية والمقال الذى ينعى وكيل الوزارة (**القبانى**) وهو حى يحكم وطالت بهما الوقفة وسائق سيارة اجرة يعجب لما بينهما من ارخاء وشد واخذ ورد وهو ضجر ملول يجار بالشكوى ولا يجد من سميع وفاتنى أن ادرك موعد المحكمة ولكن ماكسبته من ذلك اللقاء الطريف بينى وبين فتى سنتريس كان فيه العوض فلم اشعر بضيق » .

※ ※ ※

رأى تيمور فى شخصية مبارك :

يرسم محمود تيمور فى هذه الصورة الطريفة صورة لشخصية الدكتور زكى مبارك كما لمسها وادركها يقول عنه :

وان وقفة واحدة لك مع زكى مبارك خليقة بأن تظهرك على كل شيء فيه ما علن منه وما استتر .. لقد كان ينفض نفسه نفضا ويكشف عن جليته كشفا فيركز لك خصائص شخصيته ويقدمها فى سهولة ويسر دون أن يرهقك فى تعرف هذه الشخصية واستبطان أسرارها والتفطن الى ما فيها من طرافة أو شذوذ ... يبدأ حديثه معك بنكتة أو نادرة وينقلك منها الى تحقيق لغوى او أدبى ولابد أن ينطوى التحقيق على غمز ولمز يصيب به القريب أو البعيد وفيما هو كذلك يبثك لواعج هيام بهذه وتلك ممن يسمى أو لا يسمى واذا أنت فجأة معه فى سنتريس يريك جهوده لانهاض ذلك البلد الريفى الذى كان مسقط راسه ويتخلل هذا كله انباء مبارزة وطعان مع الاقران وغير الاقران على اختلاف الألوان .. « أنه كشكول حى مبعثر بل مسرحية مختلطة فيها مشاهد شتى من مأساة وملهاة ومهزلة أو لكأنه برج بابل ملتقى النظائر والاضداد » .

رأيه فى أدبه :

(فى مقالاته وأحاديثه تجلت نفحات الحرية والانطلاق كما برزت خاصيته الاستطراد التى شاعت فى الكتب الأزهرية ذات الشروح والحواشى والتقارير فهى تتطرق من موضوع الى موضوع وتتنقل بين اشتات النواحى والجهات على طريقة الشيء بالشيء يذكر او كما كان يسمى مقالاته (**الحديث ذو شجون**) .

« فهو أديب عربى قح ومفكر عروبى محض يملكه الايمان بالعربية والغيرة على العروبة على الرغم من تحليقه فى آفاق اخرى من الثقافة والتفكير .

« وعلى الرغم من فرنسيته اللغوية لم تظهر عليه مسحة اجنبية فى النمط الفكرى والأسلوب الكتابى بل عهدناه عربيا صميما لا تخلو كتاباته من عنجهية أنيسة ولوسة اعرابية محببة بل قد يفلت قلمه أحيانا حتى يبلغ حد التطرف والجماح » .

***

ثم يستطرد الكاتب الكبير فى القاء الضوء على شخصية زكى مبارك وأدبه فيتناول « الحديث ذو الشجون » الذى كان يكتبه زكى مبارك فى سنواته الأخيرة فى مجلة الرسالة ثم فى صحيفة « البـلاغ » حتى اليوم الأخير من حياته ، فقول :

(وأحاديث زكى مبارك تكشف عن موهبة فيه هى موهبة المسامرة والمناقلة فى هذه الأحاديث تشف روح طبيعية برأت من التكلف والتزويق فهى صورة صادقة لما ينطبع فيه فى وجدان الرجل من مشاهد وذكريات ومن خواطر وتأثيرات وهو يرسلها عفو القلم وفيض البديهة لا تروية فيها ولا تدبير ولكنه ينبرى للحديث فيواتيه سيل منهمر تتداعى فيـه المناسبات والذكريات والمعلومات والخطرات فى تشابك واشتجار ولكنها متآلفة مع ذلك بقوة الروح ووحدة المنادمة ولطف الوصل بين البعيـد والقريب .

ويقول محمود تيمور عن شخصية زكى مبارك وعواطفه واخلاقه :

« ولعل أصدق وصف لزكى مبارك أنه طفل كبير احتفظ بما للطفولة من شرعة النسيان للاساءة وترك الاحتمال للحقد وخلوص الضمير من كوامن الضعف ثم يقول « كان مثلا للجد والداب فى التكوين والتحصيل وكـان شعلة نشاط فى التاليف والتدبيج وكان شخصية بارزة فى مجتمعنا الأدبى أحس وجودها من حولها ومن عليها والرجل العظيم لا تخلو حياته من صديق وخصيم » ...

٢

محمد أحمد جاد المولى

« عرفت أن الدكتور زكي مبارك ، قد يقضي حياته في المصاولة والمجادلة لما استقر في النفوس ، من أنه باحث متعسف مشاغب .

« كان ذلك الحادث كافيا لأن يوجه نظري الى هذه الشخصية الجديدة ، والى تعقب ما تؤدي من النفع او الضر للدراسات الأدبية والفلسفية ولكن من الذي يستطيع ان يتعقب الدكتور زكي مبارك وكيف يمكن ذلك ، وهو لا يسكت ابدا ، ولا يترك فرصة لمن يريد ان يحكم له او عليه ؟ »

محمد جاد المولى

روى الأستاذ محمد جاد المولى بعض ذكرياته وانطباعاته عن الدكتور زكى ، فقال : (١)

« ما وقع بصرى على الدكتور زكى مبارك ، الا تذكرت هجومى عليه فى سنة ١٩٢٤ . اذ انتدبتنى وزارة المعارف عضوا باللجنة التى ادى أمامها الامتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية اول مرة .

« كنت فى تلك الايام لا اعرف الدكتور زكى مبارك معرفة شخصية وانما كنت اعرفه من طريق ما يكتب فى الصحف والمجلات ، فكنت اتصوره شابا بعيد الهمة ، كلف بنقد الشعراء والكتاب والمؤلفين ، محب للظهور بمظهر السيطرة والاستعلاء .

ولما اطلعت على رسـالته التى تقدمها لامتحان الدكتوراه فى تلك الأيام ، وهى « الأخلاق عند الغزالى » رأيت فيها ما صدق ظنى فيه : رايته يهجم على حجة الاسلام الغزالى ويقسو عليه ، فلم اجد بدا من أن أتشدد فى حسابه لأعجم عوده ، واسبر غوره .

وبعد مناقشة صاخبة قررت اللجنة منح زكى مبارك أجازة الدكتوراه بدرجة جيد جدا ، على أن ينص فى محضر الجلسة ، على أن اللجنة غير مسئولة عما فى الرسالة من الشطط والجموح .

« وكنت أظن أن المشكلة انتهت عند هذا الحد ، ولكنى تبينت مع الأسف أن هجومى على د . زكى مبارك كانت له عواقب ، فقد حمل عليه جماعة من العلماء فى « المقطم ، والأخبار » .

وعند ذلك عرفت أن الدكتور زكى مبارك ، قد يقضى حيـاته فى المصاولة والمجادلة لما استقر فى النفوس ، من أنه باحث متعسـف مشاغب .

---

(١) مقدمة التصوف الاسلامى /. للدكتور زكى مبارك .

كان ذلك الحادث كافيا ، لأن يوجه نظرى الى هذه الشخصية الجديدة ، والى تعقب ما تؤدى من النفع أو الضر للدراسات الأدبية والفلسفية ؟

« ولكن من الذى يستطيع أن يتعقب الدكتور زكى مبارك ؟

« وكيف يمكن ذلك ، وهو لا يسكت ابدا ، ولا يترك فرصة لمن يريد أن يحكم له أو عليه ؟

حينا يحاول فى الدقائق الفقهية كما صنع حين حقق نسب كتاب « **الأم** » فتضيفه الى الفقهاء وحينا تراه يجادل فى المعضلات النحوية فتضيفه الى النحويين .. وتنظر الى كتاب (**النثر الفنى**) فتحسبه رجلا لا يحسن غير النقد الأدبى .. وتقرأ رسائله الغرامية فيخيل اليك انه شاب لا يعرف غير الاصطباح والاغتباق بهوى الغيد الرعابيب .. وتنظر فى رسالة (**اللغة والدين والتقاليد**) فتعده من كبار المصلحين .. وتنظر مقالاته فى التربية والتعليم فتراه من اقطاب المربين ..... وتقرأ هجومه على الكتاب والشعراء والمؤلفين فتخاله من الهدامين وتسمع أخباره فى الأندية والمجالس ... وأحاديث رحلاته ... وانتقاله من العمامة الى الطربوش ثم الى القبعة والسدارة فتعتقد أنه من المولعين بدراسة اخلاق الأمم والشعوب ..... » .

***

(١) محمد أحمد جاد المولى : مقدمة كتاب التصوف الاسلامى ١٩٣٨ [illegible]

٣

أنور الجنـدى

« ان زكى مبارك فى حقيقة امره يصـور جانبا قويا من تاريخ ادبنا العربى المعاصر وهو مرآة لجيل كامل .

وهو فى مجموعه يرسـم وجها جديدا فيه القوة والجراة والصراحة والنزعة العاطفية .

أنــور الجنــدى :

اهتم الأستاذ أنور الجندى اهتماما كبيرا بالتراجم والسـير فألف العديد من الكتب عن سير كبار الاعلام فى مجالات الأدب والفكر والثقافة وسجل المذاهب الأدبية والتيارات الفكرية المعاصرة أصدق تصوير حتى لاسميه (**جبرتى الأدب الحديث**) .. وقد اهتم اهتماما خاصا بالدكتور زكى مبارك فكتب عنه الكثير من المقالات فى عديد من مؤلفاته ..

وقد الف كتابا قيما أنيقا عن زكى مبارك بين فيه نواحى عبقريته فأنصفه بعد أن نسيناه أو تناسيناه ...

رأيه فى أصالة مبارك :

يشير أنور الجندى الى التيارات الفكرية والثقافيــة الغربيــة والدعوات الشعوبية التى تعرض لها شرقنا العربى وحمل لوائها بعض المفكرين اليساريين المتطرفين ووقوف زكى مبارك فى وجهها بصلابة .. يقول : « ولكن زكى مبارك قاوم هذا الاتجاه بعنف وسبح ضد التيار فى ايمان صادق عميق غير أن أساليبه لم تجد من الرصانة والحكمة واللباقة ما يحقق له ابلاغ رسالته الى الناس واقناع العقول بها فكانت العاطفة اغلب وكانت الجراة تحمل الخطأ والكلمة العنيفة وكان الطابع الذاتى يبرز كثيرا خلال ذلك كله فيقلل من شأن الآراء الصادقة المؤمنة بمصر والأمة العربية ولغتها ومكانتها » .

ومن آراء الأستاذ أنور الجندى فى زكى مبــارك .

* أبرز مظاهر أدبه العنف والوصول الى آخر الشوط فى الاعجاب والكراهية ..

* ان زكى مبارك فى حقيقة أمره يصور جانبا قويا من تاريخ ادبنا العربى المعاصر وهو مرآة لجيل كامل فاذا تساءلنا هل مات أدبه .. ؟ قلنا لم يمت ..

* وزكى مبارك الى هذا له قدرة واضحة على تصوير الشمائل والأحاسيس وقد خلق لنا جديدا لم يصل الى مباراته فيه أحد وفى أسلوبه رصانة وبلاغة يمتزج بالبساطة والطرافه وما من موضوع كان يطرقه الا احسست انه يمزج الجد فيه بروح الفكاهة فاذا أنت تسر منه ولا تخشاه وقد اخترع أنماطا جديدة فى الكتابة الرمزية .

* عاش أدبه بطبيعته الريفية بكل ما فيها من صراحة وخشونة وصراع ولذلك وصفه البعض بأنه غير مصقول وقال عنه آخرون أنه الملاكم الأدبى فى ثقافتنا الحديثة ولكن زكى مبارك الريفى النزعة لم يكن عنده غير الخشونة والعنف والصلابة وهى صفات ربما كانت محل نقد ولكنه كان ريفيا ايضا فى صدقه وبساطته وصراحته وريفيا ايضا فى نقاء قلبه وبعده عن الأحقاد وايمانه الصادق بالرأى الصريح والنأى عن الذلة والنفاق .

* عاش زكى مبارك شاعرا بطبيعته فان العاطفة تصبغ كل فنون أدبه وهو فى اتجاهه هذا يبدو جريئا غاية الجراة ..

وهو فى مجموعه يرسم وجها جديدا فيه القوة والجراة والصراحة والنزعة العاطفية ولذلك فهو لن يموت وسيحيا وستبقى ذكرى زكى مبارك طيب الله ثراه ... » (١) .

هذه هى جملة آراء الأستاذ أنور الجندى عن اديبنا العظيم زكى مبارك وهى آراء ناقد مخلص نزيه عرف زكى مبارك على حقيقته وادرك نواحى العظمة فيه وفى أدبه فأنصفه ...

---

(١) أنور الجندى ، « زكى مبارك » ، دراسة تحليلية لحياته وأدبه ، ١٩٦٢ .

٤

محمد زكى عبد القادر

احب زكى مبارك الحياة بشرها وخيرها ...
احبها اعمق ما يكون الحب ، فكان يرى فى باسائها
النعيم وفى نعيمها طيف من اطياف الجنة ، فاحسن
التعبير عنها .

محمد زكى عبد القادر

محمد زكى عبد القادر :

يقول الصحفى الكبير الأستاذ محمد زكى عبد القادر عن الدكتور زكى مبارك :

كان زكى مبارك كاتبا مطبوعا واديبا فنانا وشاعرا موهوبا ورجلا انطلق فى الحياة كما تشاء الحياة .. ولو اراد ان يكون صاحب جاه لكان ولكنه آثر أن يعيش بالعرض لا بالطول ... احب من الحياة شرها وخيرها فأحسن التعبير عنها .. احبها اعمق ما يكون الحب دخل مرة والجمعية العامة لنقابة الصحفيين منعقدة وفى القاعة اكثر من ثلاثمائة صحفى مشغولين بالانتخابات .. واخذ الأديب الكبير يغنى ولفت البعض نظره الى ان هذا ضجيج وعجيج ورجاه ان يكف فابتسم ابتسامته الرقيقة البريئة وقال :

— كيف اغنى يا اخى

كان زكى مبارك يكتب لنفسه وهذه هى سمة القوة فى الفن لم يحا ولأن يزوق أو يلبس عمامة الواعظ او يدعى انه رجل لا يأثم » .

ثم يقول عنه :

« لقد احب الحياة بشرها وخيرها فاحسن التعبير عنها .... احبها اعمق ما يكون الحب فكان يرى فى باسائها النعيم وفى نعيمها طيف من أطياف الجنة ... غناها وشكاها .. تألم فيها وتوجع .. صبر عليها وسايرها ولكنه لم يبغضها قط » .

٥

احمد حسن الزيات

« ولو اســـتطاع زكى مبارك ان يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئا من فن الحياة لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة » .

أحمد حسن الزيات :

كان الأستاذ أحمد حسن الزيات ينظر الى الدكتور زكى مبارك نظرة تقدير واحترام واعجاب .. وقد رسم له صورة طريفة فكهة يقول عنه (١) :

« ان كنت قرات ما ألف فى النقد والمناظرة فستظنه خارجاً من معركة بولاقية كان فيها شد الشعور ولكم الصدور ونطح الرؤس وتمزيق الملابس ...... وان قرات له ، التصوف الاسلامى ، فستتخيله مازال فى سنتريس مريدا للشيخ الطماوى والشاذلى يعكف على الأوراد ويشارك فى الانشاد ويحمل الابريق وينقر الدف فهو اشعث اغبر ضاو من أثر الذكر والصوم والعبادة ....

ثم يقول عن شخصية الدكتور زكى ومذهبه ومكانته الأدبية :

« وزكى مبارك ان أردت كلمة الحق مجاهد باسل من المجاهدين القلائل الذين شقوا طريقهم فى الحياة بقوة واخذوا نصيبهم من المعرفة وأحلوا أنفسهم المحل اللائق بالصراع ٠٠ وهو احد الأدباء الذين لم يقم مجدهم الأدبى على الظروف والحظ وان كان الحظ قد وقع فى حياته فهو الحظ المنكود لأنه تعلم بكدح قلمه وتقدم بفضل جهاده ثم كانت الظروف التى تساعد غيره تلح عليه بالنكران والحرمان من غير هوادة .

---

(١) الرسالة ، أحمد حسن الزيات ، يناير ١٩٣٩ .

ومن أثر ذلك كله كان هذا الاعلان المستمر عن نفسه وعن عمله وهى صفة لا تتفق كثيرا مع وقار العلم وجلال الخلق ولكنها أتت اليه من وراء الوعى على ظن أن الناس ينكرون عليه فضله وينفسون عليه مكانته .

ولو استطاع زكى مبارك ان يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئا من فن الحياة لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة ... ولكن هذه الأعراض النفسية ستفنى فيه وفى الناس ويبقى ذلك المجهود العلمى الضخم الذى قدمه الى الأدب العربى فى شتى مناحيه شاهدا على صدق خدمته للأدب ورفيع مكانته فى النهضة) .

***

وأثناء الحرب العالمية الثانية سافر الزيات الى « كفر دميرة » مسقط رأسه فى المنصورة هربا وخوفا من الغارات الجوية ، فتولى زكى مبارك الأشراف على تحرير مجلة « الرسالة » وحده ، فكان يحرر فيها أكثر من مقال ، بالاضافة الى الأبواب الثابتة ، واستمر على هذا المنوال لفترة طويلة ، ولكن فى سنة ١٩٤٤ فتح الزيات صفحات الرسالة أمام بعض أقلام الجامدين الحانقين على زكى مبارك ممن يتخفون تحت راية الدين للنيل منه وهم بالتحديد : عبد المتعال الصعيدى ، محمود على قراعة ، محمد أحمد الغمراوى ، السباعى بيومى ، فوجهوا الى زكى مبارك اتهامات ظالمة بالكفر والالحاد والمجون والتحلل وهو من وقف حياته وقلمه للدفاع عن مصر واللغة العربة والقومية العربية والدين الاسلامى ، وكانت له مواقف مشهوده فى ذلك سواء مع اساتذته وعتاة المستشرقين اثناء دراسته بجامعة السربون فى باريس (١٩٢٧ ـ ١٩٣١) أو بعد عودته الى مصر أو مواقفه الوطنية اثناء مشاركته فى ثورة ١٩١٩ واعتقاله ، وبعد ذلك لرفضه الكثير من العروض والاغراءات من سلطات الاحتلال الانجليزى فى مصر وفلسطين وموقفه من الاستعمار الفرنسى فى بلاد الشام والمغرب العربى حيث هاجم فرنسا رغم ثقافته الفرنسية ورفضه لارفع وسام ادبى فرنسى احتجاجا على احتلالها لبعض البلدان العربية .

وكان موقف الزيات مريبا وظالما حين فتح صفحات الرسالة على مصراعيه لهذه الاقلام الظالمة المشبوهة التى تخلط الحقائق بالأوهام ، والتى أرادت أن تشكك فى اسلام زكى مبارك ووطنيته وانتمائه العربى ، واستغلوا ظروفه الصحية والنفسية والمادية فى سنواته الأخيرة وشددوا عليه الحملة الظالمة فلم يتمكن من خوض المساجلات الساخنة مثلما كان فى عنفوان شبابه وفتوته فطالت الحملات وتنوعت حتى اضطروه لمقاطعة الرسالة والانتقال بكتاباته الى صحيفة البلاغ سنة ١٩٤٥ حيث استمر يكتب فيها الحديث ذو شجون حتى وفاته فى يناير ١٩٥٢) ؛ وكان موقفا غريبا من الزيات الذى اراد اخراج زكى مبارك من مجلة الرسالة بهذا الأسلوب القاسى المريب . وقيل انه كان مدفوعا من بعض كبار المسئولين بوزارة المعارف لانتقاد زكى مبارك لبعض توجهات وسياسات وزير المعارف ووكيلها ، ونفذ الزيات هذا المطلب من وكيل الوزارة اضمان استمرار اشتراك الوزارة فى الرسالة بل وزيادة هذا الاشتراك بعد ابعاد زكى مبارك من الرسالة ، وهكذا كان زكى مبارك كبش الفداء لهذه الصفقة الظالمة !

٦

محمد هارون الحلو

والدكتور زكى مبارك له طريقة فى البحث يكاد يستقل بها عن غيره من أعلام الأدب فهو حين يكتب لايعدو أن يكون مترجما لأشرف العواطف وأنبل الغرائز البشرية بصورة واضحة .

محمد هارون الحلو

محمد هارون الحلو :

يقول الأستاذ محمد هارون الحلو عن شخصية الدكتور زكي مبارك وأدبه : (١) (لأستاذنا الدكتور زكي مبارك قلب يزخر بالفتوة وينبض بالعافية على رغم ما فيه من هوى مكتوم ولواعج مضطرمة وقد يلازم هذا الشذوذ والتناقض كثيرا من الأدباء ورجال الحكمة وقد يكون ذلك لقدرتهم على الشكوى والأنين والتلهى أحيانا بالفلسفة أو التفلسف فى تشريح العواطف والوجدانات وهو يعيش فى أودية الفن ، الفن الروحى ، ويهيم أبدا فى ملكوت الخيال ولهذا كانت جل بحوثه من تيه عبقر ومن همسات الشياطين ! ..

والدكتور زكى مبارك له طريقة فى البحث يكاد يستقل بها عن غيره من اعلام الأدب والكتاب فهو حين يكتب لا يعدو ان يكون مترجما لأشرف العواطف وأنبل الغرائز البشرية بصورة واضحة لا غموض فيها ولا تلبيس تنطلق عنه الفكرة مستقلة تشرق فى آفاقها الحقيقية وتلتمع فى اقطارها صورة تلك الروح التى انبثقت عنها تلك الفكرة فهو اذا بحث كان (فسيولوجيا) فى بحثه ، فنانا فى أسلوبه تلمح فى مأثوره قوة الانفعال ومدى خصوبة القريحة ويستوقفك فى تضاعيف بحوثه الطلية رشاقة الأسلوب وتأنق المعنى ووضوح الفكرة وترتيب المعانى وحسن السبك ... وغير ذلك من الصفات التى أعطت أدبه لونا خاصا يمتاز به عن غيره كما أنه ينفرد بين أدبائنا بجرأته وهو يعتمد فى ذلك على مواهبه وثقته بنفسه فهو يتوفر أبدا على نصرة فكرته لا يتقهقر ولا يتأخر .

---

(١) الرسالة ، ٢٧ مايو ١٩٤٠ .

وكان له من نشوة الظفر ما يدل به كثيرا على خصـــومه وكثيرا ما يعتد بنفســه شأن المتثبت المتمكن القوى الايمان فاذا أراد أن يعرض بخصم او يمازح صديقا فهو ذو دربة بأساليب الكيد وطرق المازحة والمؤاخذة الأليمة والنيل من خصــومه ومن أصدقائه أيضا ! .. وثمة خلة أخرى تكاد تكون من لوازم ذلك الأديب الكبير وهى صبره فى البحث وقوة روحه فى استقصاء المعانى فى الموضوعات التى يطرقها ولقد كان وفاء الدكتور زكى مبارك أبرز صفاته الشخصية .

٧

محمد عطا

« ومن لوازم مبارك الحديث الدائم عن نفسه وعن عشاقه وعن غزارة علمه وعن آرائه ، ولعل هذه اللازمة قد واتته من الكنود الذى قوبل به ومن الجحود الذى صادفه .. ومرت عليه سنوات لا يكاد يجد فيها قوت يومه ولولا كتبه التى كان ينشرها لعاش عيشة الشاعر البائس عبد الحميد الديب » .

محمد عطا

محمد عطا :

يقول الأستاذ محمد عطا عن شخصية الدكتور زكي مبارك وأدبه : (١) (·· أما الدكتور زكي مبارك أو الدكاترة زكي مبارك كما أطلق عليه أو أطلق هو على نفسه فمن الدارسين للأدب العربى المتعمقين فيه وقد تقدم الى جامعة السربون ببحثه المشهور عن **(النثر الفنى فى القرن الرابع)** ومن أبحاثه **(حب ابن أبى ربيعة وشعره)** و **(عبقرية الشريف الرضى)** · وزكي مبارك كان صاحب خطرات لا كاتب مقالات ··· كانت تخطر له خاطرة فيتحدث عنها ثم يستطرد منها الى اخرى ويعود مرة ثانية الى ما كان بصدد الحديث عنه ··· وزكي مبارك كان مثير غبار وبطل المعارك الأدبية لم يسلم أحد من معاصريه من نقده اللاذع وتجريحه وفى طليعة من نالهم بقلمه : الدكتور طه حسين ومن لوازمه الحديث الدائم عن نفسه وعن عشاقه وعن غزارة علمه وعن آرائه ولعل هذه اللازمة قد واتته من الكنود الذى قوبل به ومن الجحود الذى صادفه فى وطنه بعد عودته من باريس لقد أقصى عن الجامعة فاحنقه هذا الاقصاء وأثار سخطه وموجدته ··· مرت عليه سنوات لا يكاد يجد فيها قوت يومه ولولا كتبه التى كان ينشرها لعاش عيشة الشاعر البائس عبد الحميد الديب ·

وزكي مبارك قد انتحر فى رايى انتحارا بطيئا فقد أفلت منه الزمام فاقبل على الشراب وافرط فيه حتى أنهى حياته بيديه ·

انه صريع عصره وهو صريع هواه وبدواته ·· لقد عاش فى عصر ينشد التحرر فاطلق لنفسه العنان ولم يتحرر ولم يتحرج حتى ذوى

---

(١) محمد عطا : راى فى ادبنا المعاصر ، مكتبة نهضة مصر ·

ثم قضى والانسان المهموم الموتور اذا كتب جاءت كتـاباته يشيع فيهـا الاضطراب وتتسم بالاستطراد وبغلب عليها الذاتية ٠٠) ٠

هذا هو رأى الأستاذ محمد عطا فى الدكتور زكى مبارك ٠

وهو راى ناقـد منصف ٠٠ وأوافق على ما قاله من آراء فى زكى مبارك وأدبه ٠٠ لولا كلمة قاسـية جاءت فى سياق حديثه عن معاركه الأدبية يقول عنه لم يسلم أحد من معاصريه من نقده اللاذع و « تجريحه »٠٠ اسمع يا سيدى الناقد زكى مبارك لم يجرح أحدا فى حياته بالرغم من عنف هجومه وقسوة قلمه فى بعض الأحيان ولكنه كان انسانا صافى القلب رياضى الروح ٠٠ يضـع فى حسبانه مشـاعر وأحاسيس خصمه ولا يتورع أن يقول فيه كلمـة حق وتقـدير اذا رأى فيـه ما يستحق تقديره وانصافه ٠٠ ولطالما أنصف زكى مبارك الكثير من أدباء عصره ولكن للأسف لم ينصفه أحد حتى الآن ٠

الفصل العاشر

ألوان من أدبه

« وهكذا عاش زكي مبارك رغم آلامه وجراحه الثخينة خفيف الظل حلو الفكاهة حاد السخرية ... »

محمد رضوان

١ ـ الفكاهة فى أدبه :

كان الدكتور زكى مبارك رغم جراحه وآلامه وشجونه اديبا خفيف الظل .. ونرى فى كتاباته ابتساماته ومرحه الأصيل وفكاهته الحلوة من خلال دموعه فلم ينس مبارك مرحه ولم تفارقه خفة ظله رغم آلامه ودموعه واحساسه بغربة الروح ... وزكى مبارك مثل أصيل للشخصية المصرية بكل ما تتميز به من ملامح وصفات .. فكان حاضر البديهة دقيق الملاحظة خفيف الظل وكان أسلوبه الرشيق السهل الخالى من التكلف والبهرجة اللفظية يضفى على كتاباته روحا مرحة ساخرة فكهة خفيفة الروح .. وهكذا عاش زكى مبارك رغم آلامه وجراحه الثخينة خفيف الظل حلو الفكاهة حاد السخرية .

وكان من أرق كتابنا المعاصرين أسلوبا وأحلاهم فكاهة وأخفهم ظلا لما يمتاز به من الظرف والدعابة وقدرته الفذة على دقة التصوير وسرعة البديهة وما يتميز به من صفاء النفس وصفاء الذهن وكان يوشى كتاباته بنكتة بلاغية أو كلمة عامية تضفى على أسلوبه خفة الروح والظرف والفكاهة الحلوة ..

وعاش زكى مبارك حياته العريضة لم تفارقه ابتسامته ولم ينس مرحه الأصيل وكان دائما خفيف الظل حلو الفكاهة حاد السخرية .

★★★

ويروى الدكتور زكى مبارك هذه الحكاية التى تظهر لنا خفة ظله وصفاء نفسه وشخصيته المرحة الجذابة ... يقول (١) :

---

(١) زكى مبارك (ليلى المريضة فى العراق) ، الجزء الأول ، ١٩٣٩ .

« ذهبت فى ضحى يوم صائف الى خليج استانلى ونزلت بثوب البحر الى ملعب الغزلان فرأيت فقيرا هنديا يقرأ الكف لفتاة ناهد تشبه أفروديت أو تشبهها أفروديت ٠٠ فجلست بجانبها جلسة الباحث المتعقب لا جلسة اللاهى اللاعب ٠٠ وما هى الا لحظات حتى قلت بصورة الواثق بصحة ما أقول :

— على رسلك أيها الساحر فأنت فيما يظهر قليل العلم بأسرار الكف وما يجوز لك أن تشغل فتاة بمصيرها على غير هدى ٠٠٠٠٠٠٠ أين تعلمت هذا العلم أيها الدرويش الجهول ٠٠٠ ؟ ٠

فانزعج الرجل انزعاجا شديدا ٠٠٠ وفقراء الهنود ضعاف العزائم والقلوب فى أكثر الأحيان ٠٠٠ ونظرت الفتاة باستغراب وقالت :

— وحضرتك تعرف فى علم الكف ٠٠ ؟

قلت وأقسم ما قلت غير الصدق :

— نعم اعرف علم الكف .. وهو خير ما تعلمت فى باريس ٠٠

فانعطفت الفتاة فى تخاذل وقالت :

— تسمح تقرأ لى كفى ٠٠٠

فأخذت يدها ونظرت الى صدرها مرة والى عينيها مرتين ثم شرعت أقص عليها أخبار المستقبل وما فيه من ابتسام وأنين ٠٠٠ وما هى الا دقائق حتى كنت ساحر الشاطىء ٠

وتخاذل الساحر الهندى وتضعضع وأقبل يسر فى أذنى :

— تتفضل بكلمة ٠٠ ؟ فقلت : نعم ٠

وانتحيت بعيدا عن اسماع الظباء فقال :

— اعرف أنه لا يفل الحديد الا الحديد ٠٠ أنت تحدث الفتيات بأحاديث أجهلها كل الجهل ٠٠٠ ويغلب على ظنى أنك لا تقرأ الكف وانما تقرأ العيون ٠٠٠٠ ثم قال : ارجو أن تبيعنى هذا الميدان ٠٠ وساعطيك عشرة دنانير ٠

— انا أترك لك الميدان من أجل عشرة دنانير ٠٠ ! هيهات ٠٠

ـــ انا لم أغنم فى هذا الموسم غير أربعين دينارا ...

ـــ اذن تدفع عشرين دينارا وتحتفظ لنفسك بعشرين ...

★★★

ومن ذكرياته الطريفة فى العراق أنه سئل فى مجلة عراقيه عن اعظم كتاب العربية فقال ـ ان فيكم رجعة الى عقيدة التوحيد مع ان الشرك افضل فى هذا المجال وقال انه يكره أن يكون موحدا فى الآداب والفنون (فلا يسوغ فى هذا أن يقال من هو أشعر الشعراء ومن هو أعظم الكتاب) .

ونقلت مجلة الصباح فى القاهرة هذه الأجوبة بعنوان (**اجوبة صريحة لامير البيان زكى مبارك**) وكانت كلمة أمير البيان توحيد صريح ومخالفة لجوابه السابق وعندما ساله الصحفيون عن رأيه فى ذلك ابتسم وقال :

(وحدوا هذه المرة ثم اكفروا بعد ذلك) .

★★★

وفى بغداد أقيمت حفلة فى مرقص وبعد الدورة الرابعة من دورات الرقص دخل زكى مبارك المقصف فارتفعت الأصوات : يحيا الدكتور زكى مبارك ويقول مبارك ، وكان الأستاذ على الجارم بين الحاضرين فانتظرت أن يهتف باسمى فلم يتردد كما كنت أتوقع وانما هتف هتاف الصديق ثم شق الصفوف الى فعانقنى وهو يقول : ـ أنا فرحان لك يا دكتور زكى .. فرحان لك يا أخويا ... فرحان لك يا حبيبى ـ فرحان لك يا نور العيون يا زهرة مصر فى العراق .. وانما عددت هذه حادثة لأن المواطنين لا يفرح بعضهم لبعض الا فى قليل من الأحيان .. ولا مؤاخذة يا جارم بك يا حبيبى يا نور عيونى يا أحلى من ملح رشيد .. !

★★★

ومن طرائفه انه فى خلال زيارته لبعض أنحاء العراق راى نباتا اسمه (**الهفخع**) الذى يذكر اسمه فى مقدمات كتب البلاغة يقول ولقد بلغته تحيات الأساتذة بالأزهر الشريف ...

ومن دعاباته الطريفة عندما كان يفتش على مدارس وزارة المعارف انه دخل يوما المدرسة الابراهيمية فوجد مدرسا كان من زملائه وكان بصيرا بالدقائق النحوية والصرفية (فأبيت الا أن أتعالم عليه وأستطيل وجدته يطلب من التلاميذ أن يتكلموا عن فوائد السينما فقلت : — لماذا لا تقول الخيالة ٠٠ ؟ ورأيته يمر على كلمة (**تطور**) فى دفاتر التلاميذ فلا يصححها فحاسبته أشد الحساب فقال : ان الله يقول فى كتابه العزيز :

(**وخلقناكم اطوارا**) ٠٠ فقلت :

— نعم ان الله خلقنا (**اطوارا**) ومن أجل ذلك لا يصح أن (**نتطور**) يا أستاذ ؟

★★★

وفى البصرة بالعراق قابل احدى الفتيات الحسان فقالت له :

حافظ على شبابك يا دكتور فانى أخشى أن يودى التأليف بشبابك

فقال : لا تخاف على شبابى يا بنيتى فهو باق ما بقيت عيون الظباء فقالت : أخشى أن يقتلك التأليف ! لا تخافى على يا بنيتى فانا لا أخاف الموت وانما يخافنى الموت ٠٠ فقالت : — كيف ٠٠٠٠٠٠ ؟

فقال زكى مبارك مبتسما :

— لأن الموت جبان وهو يخشى أن أكتب ضده فى الجرائد والمجلات ! ٠٠٠

★★★

وذات مرة أشجاه صوت احدى المطربات واسمها زكية وهى تنشد له أغنية (**على بلدى المحبوب ودينى**) وراح يصيح (**الله**) بأعلى صوته ولولا لطف الله لما اكتفى من زكية بالمصافحة ٠٠٠٠

وقد حاول الجمهور التدخل فى الأمر فقال لهم :

— يا سادة مالكم ومالى دانا زكى ٠٠ وهى زكية ٠٠ ؟

★★★

ومن طرائفه فى باريس عندما كان يتلقى العلم فى السربون هذه الحادثة الطريفة يقول (١) تحت عنوان « غمز لا يجدى » :

(كان على يمينى فى احدى المحاضرات العلمية سيدة وكان بيدها شهد الله قلم وقرطاس لتدوين ما يقول المحاضر ولكنها بعد لحظات استسلمت لمغازلة النوم ثم أخذت تغط غطيطا مزعجا ومن وقت الى وقت كانت تستيقظ على دوى التصفيق فتسرع الى القلم وتشرع فى تسويد القرطاس ثم تعود الى النوم والغطيط وقد أزعجنى شخير تلك المرأة وفكرت غير مرة فى غمزها لتصحو ولكنها كانت عجوزا فانية ولا فائدة من (غمز العجائز الفانيات) .

★★★

ودعى زكى مبارك ذات يوم الى وليمة أقيمت لتكريم اسعاف النشاشيبى وكان على المائدة (باشا) لا أسميه فأنا أضن بالتشريف على بعض الخلائق رآنى ذلك الباشا أضع الخبز فى المملحة فقال :

ـ خذ الملح بالملعقة فقلت : ـ لا تؤخذنى يا باشا فأنا فلاح زرعت الأرض من باريس الى سنتريس ومن .. باريس الى بغداد .

ثم سأل الباشا هل تعرف يا باشا معنى كلمة الزمالك .. ؟

فقال : نسأل صاحب المعالى حلمى باشا ...

ـ انه لا يعرف ..

ـ وتعرف أنت .. ؟

ـ أعرف لأننى الدكاترة زكى مبارك ... فاسمع ـ سأسمع :

ـ الزمالك جمع زملك وهى كلمة ألبانية معناها الخيمة ...

★★★

وفى حفلة لتكريم الدكتور زكى مبارك القى الشاعر العاطفى الدكتور ابراهيم ناجى قصيدة رقيقة مرحة يداعبه فيها ويبدى اعجابه به يقول :

فرح الأهل بالغلام الذى صار   حديثا فى ندوة السمار

(عمموه) « وقفطنوه » فأمسى   أمل القوم فارس المضمار

---

(١) زكي مبارك ، ذكريات باريس ، ١٩٣١ .

ثم امسى مطربشا واكتسى البذلة ما بين ليـــلة ونهـــــار
ثم ضـــاقت بهمه مصر فاشتاق لغير الأوطـــان فى الأمصــــار
ثم أمشى مبرنطا يقصـد السين ويغـــزو مدينـــة الأنـــوار
كلمـــا هبت الغوانى عليــــه ضـــاق ذرعا بالغـــادة المعطـار

★★★

٢ ـ صـــورة قلميـــة :

هذه بعض الصور الطريفة التى رسمها زكى مبـــارك لبعض من ذكرياته ومقابلاته مع بعض الشخصيات فى عالم الأدب والفن وبعض الصور الفنية التى رسمها قلمه وفى تلك الصور التى رسمها الدكتور زكى مبارك طرافة وابداع رتماجن وهى تفصح عن شخصية مبارك الجذابة وخفة ظله وصفاء قلبه .

(أ) العقاد الحقود :

كتب مبارك يقول عن العقـــاد أنه رجل حقود وعلل ذلك قائلا ان الحقد من كبريات الفضائل فى بعض الأحايين لأن الله أحكم وأعدل من أن يعاقبنا على تأديب من يحاولون الغض من أقدارنا الأدبية وهم جهلاء ... وتساءل ما قيمة القلم اذا لم نخز بسنانه عيون المتعالمين والمتعاقلين من حين الى حين .. وتأذى العقاد من هذا الوصف فى حديث له مع مبارك فقال الدكتور زكى انه نظر الى الحقد من بعض جوانبه الأخلاقية ثم أضاف نفسه الى جملة الحاقدين **(لنكون سواء فى التخلق بهذا الخلق الجميل)** .. ثم أورد هذه القصة الطريفة ليثبت فيها أن العقاد رجل حقود ... يقول زكى مبارك (١) :

فى مصر شاعر **(مشهور)** هو الدكتور **(الودينى)** المقيم بشارع **(العجمى)** فى مصر الجديدة .. وهو شاعر قصر شعره على الاخوانيات فلا يقرض الشـــعر الا فى تحية صديق أو تهنئة زميل وقد تسمو به همته الى مجاملة الملوك والأمراء فى المواسم والأعياد ... لقيته مرة فى المترو بصحبة الأســـتاذ العقاد فسألنى عن الراى فى شعره .. فقال له مبارك :

ـ انت يا دكتور ودينى أشعر رجل فى مصر بعد الأستاذ الجارم ...

---

(١) الرسالة ، زكى مبارك ، يناير ١٩٤١ .

فظهرت عليه أمارات الاكتئاب ولكن العقاد تلطف فصرح بأنه أشعر من الجارم فى بعض الفنون .. ومضى الدكتور الودينى الى الجارم فحدثه بما قال الدكتور مبارك والعقاد فاعلن الجارم أن الرأى ما رأى العقاد ...

ثم لقى الدكتور الودينى الدكتور زكى مبارك بعد أشهر فقال له وهو جـذلان :

— هل تعرف كيف ناقضك العقاد .. ؟

— وكيف ناقضنى العقاد .. ؟

— العقاد يرى أننى شاعر العرب ...

— أنت شاعر العرب .. ؟ أنت .. ؟

— وبشهادة العقاد ...

— كيف والعقاد يرى نفسه أمير الشعراء .. ؟

— هو أمير الشعراء وأنا أمام الشعراء والأمير يأتم بالامام كما قال الجارم الصناج ..

— هذا جائز .. ولكن ما الدليل على أن العقاد يعدك شاعر العرب .. ؟

— كتب الى خطابا يقول فيه الى المفرد العلم صاحب الأنبيق والقلم شاعر العرب فى شـارع (**العجم**) عزيزى ونور عينى الدكتور (**الودينى**) .

فقـال زكى مبـارك :

— هل ترى أن العقاد مدحك فى هذا القول .. ؟

— تلك غاية المدح ...

— وهل ترى أن العقـاد صـنع معك أجمل مما صنعت .. ؟

— بالتأكيـد ...

— اسمع يا دكتور أنا جعلتك أشـعر الناس فى مصر بعد الجارم والعقاد جعلك شاعر العرب فى شارع (**العجم**) ...

— وما العيب فى ذلك ... ؟

— العيب أنه جعلك اشعر من الأستاذ امين الخولى ولم يزد والخولى جارك ...

وعندئذ تربد وجه الدكتور الوديني وقال :

— يظهر أن العقاد رجل حقود ...

★★★

(ب) الكرم الجارمي :

يروى الدكتور زكي هذه القصة الطريفة عن بعض ذكرياته ومداعباته مع الشاعر على الجارم يقول :

للأستاذ على الجارم بك شهرة عريضة بالكرم والجود وهذه الشهرة هى التى قضت بأن تكل اليه وزارة المعارف تحقيق كتاب (البخلاء) فما كان يمكن الوصول الى اسرار ذلك الكتاب الا اذا اضطلع بتحقيقه رجل خبير بمعانى العرب فى العطاء والمنح والسخاء والشح وبضدها تتميز الأشياء ... والكرم المأثور عن الجارم هو السبب فيما يقع من تغاضى عن السؤال عنه حين يصطاف بالاسكندرية فقد كنت أكتفى فى تحيته بالسلام على الجدران فرارا من التعرض لكرمه العجاج وهو كرم قد يطغى فيتلف أمعاء المواهب وأنا ازهد الناس فى هذا الصنف من الجود ...

ثم يروى مبارك أن الأستاذ سامى عاشور دخل مكتب تفتيش اللغة العربية ذات يوم وبشر الجارم بترقيته الى الدرجة الثانية ويقول مبارك وبعد ترو لم يطل أكثر من عشر دقائق توكل الجارم على الله وأعلن أن الحلاوة هى وليمة فيها (صيادية) مطبوخة على اسلوب أهل رشيد .. ثم توكل على الله مرة ثانية وقال : سيكون معنا الدكتور مبارك ليعرف البيت وليحدث اميره عن سميتها فى بغداد .

فالتفت الأستاذ سامى عاشور وقال : ما رايك .. ؟

فقلت : أفلح ان صدق ..

فقال الجارم : سأصدق لاكف شرك عنى .

ومر يوم وأيام واسبوع وأسابيع وشهر وشهور ولم يف الجارم بما وعد وطال التسويف حتى نسيت وهل كنت أصدق أن الجارم يسره ان يعرف احد أين يقيم ؟ « ثم اتفقت النية على ان يقهراه على الوفاء بالوعد بهجاؤه بالشعر فالف مبارك أبيات هجاء طريفة ويقول : « ثم مضيت

فأمليت هذه الأبيات على جماعة من الموظفين والمدرسين وترفق الأستاذ عاشور فأنفذها الى الجارم بك على يد رسول بارع فى اصلاح ذات البين ..... ثم ماذا .. ؟ ثم هرب الجارم الى رشيد وهو يزعم ان الاقامة فى القاهرة أصبحت لا تطاق بسبب الغارات الشعرية ...

« وهل تجتمع أهوال الحرب وأهوال الوليمة على رجل فى مثل رقة الجارم الصناج .. ؟ » .

★★★

(ج) صور عن طه حسين :

رسم زكى مبارك صورا عديدة لذكرياته وأحاديثه مع الدكتور طه حسين ومن تلك الذكريات الطريفة قوله : «جلسنا مرة نسمر فى داره يوم كان يقيم بمصر الجديدة فاطلعته على خبر لطيف فى جريدة (لابورس) خبر يبشر أن أحد الأطباء قد اهتدى الى علاج يرتد به العميان مبصرين ..

فهتفت زوجته : ان صح ذلك فسأبيع آخر قميص لأرد اليك بصرك يا طـه ... وأغلب الظن أن الدهر سيبخل على الدكتور طـه بالعودة المنشودة لنور عينيه وسيبخل على مدام طه بلذة البيع المنشـود لآخر قميص .

« ولعل لله حكمة فيما وقع .. فالدكتور طه هو حجتنا على أن مصر أخصب البلاد ولولا خوف الاسراف لقلت انه اشجع من أبى العلاء لأنه رفض أن يعيش رهين المحبسين ... » .

ويروى مبارك هذه القصة الطريفة عن بعض الذكريات عن طه حسين يقول (وقد صبر الدكتور طه على عمامته بعد فراق الأزهر بأعوام قصار او طوال فادى امتحان الدكتوراه بالجامعة المصرية فى سنة ١٩١٤ وهو معمم وأقلته الباخرة من الاسكندرية الى مرسيليا وهو معمم ولكن ركاب تلك الباخرة قد التفتوا مندهشين الى شىء يقع فى البحر .. وقد القاه صاحبه بعنف فما ذلك الشىء .. ؟ هو عمامة طه حسين ...

وتحدث عن مقابلة له مع الدكتور طه فى باريس يقول :

(زار الدكتور طه باريس وأنا هناك فلما مضيت للتسليم عليه ادهشنى أن أجده فى غرفة تطل على ميدان (الأوبرا فاتوار) وهو ميدان

صخاب عجاج فقدرت أنه يسره أن يسمع باريس بعد أن فاته أن يرى باريس) .

ويصور بعض ذكرياته مع طه حسين فيقول :

(كنا نخرج من الجامعة المصرية حين كانت فى قصر الزعفران فنثب الى المترو بعد أن يتحرك ولا يشعر أحد بأننى أصاحب رجلا من المكفوفين .. ومن يصدق أنى لم أفكر فى حلق ذقنى بيدى الا بعد أن رأيته يحلق ذقنه بيديه وهو يمشى بقامة منصوبة تزرى برشاقة الرمح المسنون) وعندما توفى الشيخ حسين على والد الدكتور طه حسين سنة ١٩٤١ كتب زكى مبارك يقول (١) (رأيت الحزن يعصر قلبى حين قرأت أن الدكتور طه فقد أباه ... ورثه الله عمر أبيه ومن عليه بالصبر الجميل ...... أبو الدكتور طه هو الشيخ حسين على .. وكان رجلا غاية فى اللوذعية والأريحية وكان الشافعى يقول (**الحر من راعى وداد لحظة**) وقد وددت هذا الرجل لحظتين .. فمن واجبى أن أذرف عليه دمعتين) ..

★★★

(د) عاشق القمر :

كان شاعر الحب والجمال يهوى كل الصور الجميلة فيعشق الجمال وكان أحد عشاق القمر المتيمين .. وقد أوحى اليه القمر أجمل أغاريد الجمال والشعر ...

كتب تحت عنوان (غريب الهوى فى عيد القمر) يقول :

(أتذكر يا قلبى .. ؟ أتذكر أن من الناس من يقولون « العيد الكبير » وان أهل سنتريس يقولون « **عيد القمر** » كأنما عز عليهم أن يبقى القمر بلا عيد ؟

ويناجى القمر مناجاة عاشق صب متيم فى هواه يقول والأشواق تضنيه (٢) :

هذه جلوتى ...

هذه جلوتك ...

---

(١) الرسالة ، الحديث ذو شجون ، ١٩٤١ .

(٢) زكى مبارك ، « ألحان الخلود » ، سنة ١٩٤٧ ، (الى القمر) .

هذه دولتى ...

هذه دولتك ...

انى انا شاعر

من أنت يا ساحر ...

ثم يعود الى معبد القمر فيقول :

عدت والصب الى الوجد يعود ...

ما لصب فى هواه من هجود ...

الكريم السمح بالصفح يجود ...

انني اغفر ذنب القمر ....

وهو يرى القمر يفضح العشاق فى خلواتهم :

آه من نورك .. آها .. ثم آه ...

يا جميلا هو فى الحسن اله ...

لم ينل قلبى من الحب مناه ...

فضح العشاق ضوء القمر ....

ويقول أن وجده من هوى القمر :

ان وجدى يا سميرى من هواك ...

كل مشتاق على ضوء سناك ......

فاضح نجواه باسم القمر .....

ثم ينادى القمر معشوقه وغريمه فى السهر فيقول :

يا امامى وغريمى فى السهر ....

حارت الروح وما جار القدر ...

ان هذا الحب بالنار امر ...

ليته يصبر يوما يا قمر ...... ؟

★★★

وهو يجعل من القمر رسولا لربة هواه يبلغها اشواقه يقول : (١)

(أيها القمر الذى يملأ أرجاء مصر الجديدة •

أيها القمر ••

أيها القمر بلغ ليلاى أنى أعانى آلام الكتمان •

بلغ ليلاى أن سرى لا يزال مكتوما ! •••

وآه ثم آه من عذاب الكتمان ! ••) •

★★★

(هـ) ٤٥٠٠ ثانية فى صحبة ام كلثوم :

كان زكى مبارك معجبا بصوت أم كلثوم غاية الاعجاب •• وقد اتيح له أن يقابلها عدة مرات ويتحدث معها وكتب عنها الكثير فى مقالاته وخواطره الباسمة ومن ذلك قوله :

(هل لهذه الحمامة الموصلية روح لطيف ؟) •••

« فهذه الحمامة تغرد بلا وعى ولا احساس فى نظر من يحكم بظاهر ما يند عن شفتيها الورديتين من أغان وأحاديث ••• فهل تكون فى حقيقة الأمر كذلك ؟ •• ان كانت ام كلثوم بلا وعى ولا احساس فعلى الأدب والفن العفاء ••• وكيف تحرم أم كلثوم قوة الروح وهى بلا نزاع ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟ •••

واين من يزعم أن قلبه سلم من الشوق لأغانى ام كلثوم وما مرت لحظة واحدة فى المشرق وفى المغرب بدون زفرة أو لوعة تثيرها اغانى أم كلثوم•• وهل سمع الناس فى قديم او حديث صوتا اندى واعذب من صوت أم كلثوم ؟ •••

ثم يتحدث الدكتور زكى مبارك عن بعض ذكرياته معها :

(دعتنى أم كلثوم مرة لتناول العشاء فى أحد مطاعم القاهرة فأجبت الدعوة ولكنى رايت ان ادفع عن نفسى فاستظرفتنى جدا وصرحت بأنى لم أقل غير الحق حين قلت :

---

(١) ليل المريضة فى العراق ، ١٩٣٩ ، جـ ٣ •

(انى أعظم من الجاحظ ولو غضب الدكتور طه حسين ....) .

وقد قابل الدكتور مبارك أم كلثوم بطريق المصادفة العابرة حينما كان متجها الى الاسكندرية وقد قضى معها ٤٥٠٠ ثانية يقول (١) :

(وما حديث الـ ٤٥٠٠ ثانية فى صحبة أم كلثوم ؟ ... كانت النفس حدثتنى بوجوب السفر الى الاسكندرية فى أواخر أيلول لأرى كيف ينجزر الصيف عن الخريف فى تلك الشواطىء الفيح فرأيت على المحطة فتى من عصبة الفن الجميل وهو يهتف :

ـ أما ترى ثومة يا دكتور ؟ ...

والتفت فرأيت انسانة نحيلة تكبح سحر عينيها بمنظارين سمراوين وهى تحاور المودعين .

« واقبلت فسلمت تسليم المشوق بتهيب واحتراس لتفهم انى لا أريد نضالها فى ميدان التنكيت ولكن الشقية تغابت وتجاهلت رغبتى فى البعد عن هذا الميدان ولم تكن الا لحظة حتى اقتنعت أن الزمالك تجاور بولاق ...

★★★

« ها نحن أولاء فى محطة القاهرة وانى واياها لمختلفان فهى ذاهبة الى المنصورة وأنا ذاهب الى الاسكندرية وسنفترق فى طنطا كارهين او طائعين وأترفق فاقول :

ـ ألا تحتاج الحمامة الموصلية الى من يضايقها لحظات ؟ ...

فتجيب : ـ وأنت ألا تحتاج الى من يضايقك ساعات ؟ ...

ثم تأخذ فى الحديث بعنف ولجاجة وصيال فهل كان بينى وبين هذه الروح ثار قديم ؟ ...

وهل سمعت أنى اغتبتها فقلت أنها ريحانة هذا العصر وأغرودة هذا الجيل ؟ .

---

(١) زكى مبارك ، الرسالة ، اكتوبر ١٩٤٠ (٤٥٠٠ ثانية فى صحبة أم كلثوم) .

وهل لقل الوشاة أني زعمت أنها أطيب من العطر وأرق من الزهر المطلول ؟ ..

لا اعرف ذنبي عند أم كلثوم ولم اخرج على الأدب فاقول انها خير ما أخرجت مصر من ثمرات .. وانها ألطف روح سكن الزمالك وتخطر في شارع فؤاد ؟ ..

ما هفوت في حق أم كلثوم الا مرة واحدة حين قلت ان حنجرتها مسروقة من الحمائم الموصلية وكان الرأى ان اقول أن حمائم الموصل سرقت رخامة الصوت من الحنجرة الكلثومية ....

ثم يقول زكي مبارك :

ثم تشتط أم كلثوم في المزاح الغليظ ولكن مع من ؟ ...

مع الرجل العليم بمواقع أهواء القلوب ولو سدل على سرائرها الف حجاب ...

هل تذكرون المصباح المغطى بالأوراق الزرق ؟ ... هو قلب أم كلثوم .. لو تعلمون ؟ ... وبلفظة واحدة نزعت تلك الأوراق لأواجه ذلك القلب الوهاج ...

فما هي تلك اللفظة السحرية ؟ ... قلت : (ان حمامة الشرق تستر بمزاحها الغليظ قلبا يحترق ....

فالتفتت التفاتة رشيقة وهي تستزيد فقلت : وقد حدثتني ليلى أن الأفعى تغفو أوقاتا طويلة ثم تستيقظ حين تجد الفرصة لتخدير الفريسة بالسم الزعاف ...

وبهذا الكلام تنبهت أم كلثوم من سباتها المتكلف المصنوع وابتسمت ابتسامة لن انساها ما حييت فقصصت عليها قصة ليلى حين قرأت في كتب التاريخ الطبيعي أن الحيات تثور وتهتاج حين ترى انسانا أخضر العينين فزعمت الشقية أنها لم تكن تعرف أني أخضر العينين ...

« وترفقت أم كلثوم وتلطفت بعد التأبي والتمنع وانطلقت تتحدث بلا تكبر وازدهاء . فمن قال أنه عرفها قبلي فهو كاذب لأني أول من نزع

الأوراق الزرق عن ذلك القلب الوهاج وأنا أول من فرض على أم كلثوم ان تعرف أن الدنيا فيها أمانة وصدق واخلاص ٠٠) ٠

★★★

القاهرة فى العيد :

يرسم زكى مبارك صورة للقاهرة فى العيد سنة ١٩٣٨ فيقول (١) :
(انا أقضى العيد فى القاهرة وهى أول مرة أعرف فيها ملاعب القاهرة فى العيد ٠٠

فقد كنت فى الأعوام السوالف أقضى العيد فى سنتريس قبل أن يرزأنى الدهر بموت أبى ثم شاءت المقادير الا أعرف العيد فيما عدا ذلك الا فى باريس وبغداد فقد دخلت باريس أول مرة فى عيد ثم خرجت منها بعد أداء امتحان الدكتوراه فى يوم عيد ٠٠٠

وأنا أواجه العيد فى القاهرة بعد عيدين قضيتهما فى بغداد ٠٠ فهل يكون عجبا ـ وهذا حالى ـ أن أخرج عن القاهرة فى العيد ؟ ٠٠٠ أنا فى عيد أيها الناس فدعونى ألهو وألعب يوما أو يومين ٠٠٠

هذا هو العيد وتلك هى القاهرة ٠٠

فاعذرونى ان جننت وفتنت بالقاهرة فى يوم عيد ٠٠ لن أذهب الى نادى المعارف فى بغداد لأسأل عن رؤية الهلال ٠٠ ولن أقضى مساء الشك بمنزلى فى شارع الرشيد ؟ ٠٠ وما الموجب لذلك ؟ ٠٠ لقد صمنا رمضان ثلاثين يوما ولم يبق الا أن نواجه الباسمين والباسمات فى شارع فؤاد ٠٠ أى والله هذا شارع فؤاد ليلة العيد ٠٠

وهل ينتظر شارع فؤاد ليلة العيد ٠٠

وهل رأى الناس فى مشرق أو مغرب شارعا مثل هذا الشارع فى الحيوية والابتهاج والانشراح ٠٠

ان شارع فؤاد لاينتظر ليلة العيد فجميع أيامه ولياليه مواسم وأعياد ٠٠

---

(١) زكى مبارك ، القاهرة فى العيد ، الرسالة ، ١٩٣٨

ما ظن القارىء بشارع يشهد بأن القاهرة أجمل بقعة فى الأرض وانها طليعة الفردوس ..

ما ظن القـارىء بشـارع يتمـوج فيـه الحسـن .. ويصطخب فيه الفتون ؟ ..

• نحن فى شـارع فؤاد وهذا مشرب كتب على بابه بأحـرف من النور الوهاج :

رمضـان ولى هاتهـا ياسـاقى مشـتاقة تسعى الى مشـتاق ..

وهو كذلك ... هاتها ياغـلام ...

وما أكاد أنطق بهذا اللحن الطروب حتى يدخل شيخ من أعلام رجال الدين فيقول :

ـ ما أتى بك هنا يا دكتـور ؟ ..

فأجيب : ـ أنا فى ضيافة أبى حنيفة النعمان ...

ويسارع الشيخ فيطلب كأسـا من قهوة أبى الفضـل .. لاقهوة أبى نـواس ...

ويغلبنى التجمل والتوقر فأطلب كأسا من قهوة أبى الفضل واصدف عن قهوة أبى نواس ... وما هى الا لحظة حتى نشتبك فى جدال مزعج ثم يتوافد أمثاله وأمثالى فتتحول الحانة الى حلقة من حلقات الأزهر الشريف وينظر الينا غلمان الحانة مبهوتين مذعورين ... كيف تنقلب الحانة الى مثل ما انقلبت اليه فى ليلة عيد ؟ ..

وكيف أعود شيخا متغطرسا لا يعرف غير جدال الفقهاء ؟ .. أيها الشيخ .. صددت نفسى صد الله نفسك .. ولكن لا بأس فتلك هى القاهرة التى يصطرع فيها الهدى والضلال ..

★★★

مصرع الملاكم الأدبى :

كتب الدكتور زكى مبارك هذا المقال الطريف أثنـاء اشـتعال أوار نار الحرب العالمية الثانية كتب يروى ما حـدث له فى الطريق ذات يوم يقول (١) :

(قبيل الغروب هبت عاصفة عنيفة ·· عاصفة كادت تنقل الى دارى جميع رمال الصحراء جزاء بما صـنعت من التغنى باشراف دارى على الصـحراء ··

وفى ثورة تلك العاصفة يترنم الهتاف فاسـمع صوت المسيودى كومنين يدعونى الى سهرة تدور فيها أكواب الحديث وهو لا يقدم لضيوفه غير أكواب الحديث لأن العقل نهاه عن الشراب قبل أن ينهاه الطبيب ··

وما كادت العاصفة تسكن حتى سلكت الطريق الى ذلك الصديق وهو طريق لا يسلكه عابر فى ليـلة ظلمـاء الا اذا كان على ميعـاد مع حبيب ··

« تحدثنا ـ انا والمسيو دى كومنين ـ بجانب كل شجرة وسلمنا على كل مكان حتى المكان الذى أوصى المسيو دى كومنين أن يدفن فيه بعد العمر الطويل العريض وطال الحديث حتى استغرق أكثر من خمس ساعات فاستأذنت فى الانصراف بعد أن شكرت للمسيو دى كومنين كرمه البالغ فى امتاع روحى وعقلى بذلك الحديث ·· ويهتف هذا الصديق بالسـائق ليوصلنى بالسيارة الى دارى فلا يجده وينـادى الحارس ليصل جناحى بضع خطوات فيعرف أنه يرابط فى ناحية نائية فيعلن أسفه على أن أسير وحدى فى ذلك الظلام المحفوف بالحتوف ولكنى أطمئنه فأقول :

ـ انى لا أعرف ولا أصدق أن فى الدنيا رجلا أقوى منى فليجرب اللصوص حظهم فى مصاولتى ان كان فى مصر الجديدة لصـوص غير (سراق القلوب ··) وأنا قد نجوت من المعاطب الوجدانية فى مصر الجديدة فما خوفى على جيبى وقد نجا قلبـى ·· كان الطريق موحشـا أعنف الايحاش وكان الليل كأنه الليل ·· طاخ ·· طاخ ·· طاخ ··

والتفت فاذا المدافع تنطلق من كل صوب ·· ولم يسبقها نذير من صفارة أو بوق وأنظر فأرى لهيبها ودخانهـا يثوران فوق رأسى فأسرع

---

(١) زكى مبارك ، الرسالة ، يوليو ١٩٤٢ ، الحديث ذو شجون ·

بالدخول الى بيت بلا أبواب ·· بيت لايزال فى مهد البناء ··طق··طق··
طق ···

وألتفت مرة ثانية فأرى الأخشـــاب التى تحمـــل السقف مهددة بالسقوط ··· فأقفز الى الفضـــاء وقد اخترت لون الموت ·· وللموت الوان : رأيت الموت بشظية مدفع أفضل من الموت بسقوط تخشيبة ··

« ثم نظرت فرأيت الضرب ابتعد فهو ضرب طيارة انجليزية تطارد طيارة ألمانية وقد أفلح الضرب فسقطت الطيارة المطاردة عند الكيلو ٣ بطريق السويس ···

وكفى الله رأس شر الهلاك ·· وضاعت الفرصـــة على أعدائى فلم يحبروا المقالات الطوال فى (**مصرع الملاكم الأدبى**) والمستميت لايموت كما قال الحكماء ···

أفى هذه الأيام نقرأ ونكتب ونحاسـب هذا الشـاعر ونصـاول ذلك الكاتب ؟ ···

نعم ثم نعم ··· فليحاول الدهر بأحداثه وخطوبه زعزعة الفكر الثاقب والقلم البليغ ···)

★★★

عـــلى ميعـاد :

هذا ربيع وهذا صيف وهذه ليالى النسائم الرفيقة بمصر الجديدة والجيزة والمعادى وحلوان والزيتون فأين صبواتك ياقلبى ·· ؟ ··

وأين أيامك ؟ ·· وأين لياليك ؟ ···

وأين أحباب كنت معهم على ميعاد ؟ ··

لقد بخلت الأقدار بالتلاقى وتركتنـــا نصطرع فى لجج اليأس العجاج ؟ ·· مضى الشتاء وأورقت أشجار ثم أزهرت ومالك ياقلبى أمل فى أزهار ولا ايراق ···

الوجود كله ربيع فأين نصيبك من هذا الربيع ياقلبى ؟ ···

وبيعك هنالك فامض اليه ان استطعت وان استطاعت تلك الأزهار أن تطمس أبصار الرقبـــاء ..

سيمر زمن وأزمان وستفعل المقادير ما تفعل بمصـــاير ممالك وشعوب ثم يبقى لك هواك ياقلبى ... هواك الذى لايجوز عليه الخمود لأنه من أقباس الخلود ..

وهل يعرف أحبابك هنالك أنك معهم على ميعاد ؟ .. لقد يئسوا من وفائك ياقلبى لأنك آثرت الكتمان فمتى تفتضـــح فى هواهم ليعودوا مع الربيـــع ؟ (١) ...

نجــوت من المــوت :

فى سنة ١٩٤٨ تعرض الدكتور زكى مبارك للموت بالتســـم فى الاسكندرية لولا لطف الله وكان فى تلك الحقبة من حياته يعانى من مصاعب عدة ويصور زكى مبارك ذلك الحادث بأســـلوبه الطريف وخفــة ظله فكتب يقول (٢) :

لقد نجوت من الموت ولله الحمد والله يكرم من عباده من يريد ..

خطر فى البال أن يكون طعامى فى اسكندرية من الأسماك فطلبت من المطعم الفلانى سمكة فقدم سمكة مشــوية اســمها (المياس) وثمنهــا عشرون قرشا لقد تشاءمت من السمكة فقد كان فمها مفتوحا ولكن مدير المطعم أقسم أنها طازجة فأكلت منها قطعتين .

رجعت الى البيت وأنا أشعر بالتسمم وهجعت لحظات ثم صحوت وأنــا أقول لن يرثينى أحــد يــوم أمــوت فيجب أن اعيش لأغيظ أعدائى ! ...

ما الذى كانت تكتبه عنى جريدة البلاغ ؟ ..

أظنها تقول : مات الدكاترة زكى مبارك واستراح منه القراء ! ...

---

(١) زكى مبارك ، الرسالة ١٩٤٢ ، الحديث ذو شجون .

(٢) البلاغ ، الحديث ذو شجون ، ٢٣ فبراير ١٩٤٨ .

حين شعرت بالتسمم تذكرت اختـــلاف النحويين فى اعـــراب (أكلت السمكة حتى راسها) فما بعد الســـيدة (حتى) يجوز جـره ونصبه ورفعـــه ٠

وما أكاد أصدق أننى نجوت ولكن المؤكد أننى نجوت من الموت ولله الحمد وعليه الثناء سالت نفسى : هل يكون فى الجنة جريدة اســـمها البلاغ وفيها صفحة أدبية أحـــررها بقلمى وهو قلم عجزت عن شرائه الدعاية البريطانية فى أعوام الحرب ؟ أكتب هذا وأكرره على صفحات البلاغ فما استطاعت دولة ان تشترى ضميرى وهو قلمى ٠

الفقر فى الجيب ليس بعيب وانما العيب هو الفقر فى الأخلاق اننى اعتز بنفسى وبأخلاقى فما رأيت أشرف منى وعلى خصـــومى ان يموتوا بغيظهم ان كانوا صادقين ! ٠٠

أنا نجوت من الموت ؟ ٠٠ نجوت ونجوت ونجوت ولله الحمد وعليه الثنـــاء ٠٠٠

لقد عرفت السماء اننى مريض بالتســـمم وقد أموت ٠٠ فقضت الليـــل والنهار فى بكاء ! ٠٠ أنا متشكر أيتها السماء ! ٠٠ من الذى يصف ليالى الاسكندرية لوقضت الأقدار بأن أموت !؟ ٠٠

وسالت نفسى من جديد : هل تكون فى الجنة جرائد ومجـــلات ومطابع وقلم مطبوعات واشعار أنظمها للتغنى بالحور العين ! ؟ ٠٠

وهل يكون فيها محاكم ومحامون ! ؟ ٠٠ وهل يكون فيها مجمع لغوى ! ؟ ٠٠

أنا لا أستريح الى حياة خالية من المشاغبات فان كانت طريقى الى الجنة فسأنشىء فيها جريدة !٠٠ وان كانت طريقى الى جهنم فسأنشىء فيها ثلاث جرائد ! ٠٠ والمنهاج مرتب منذ اليوم وقد أخترت المحررين والمخبرين والمترجمين وجعلت الأفضلية لزملائى فى جريدة البـلاغ ! ٠٠٠

انا لا أكاد أصـــدق أننى نجوت ولكنى بحمد الله نجوت وهذه الصفحات تشهد بنجاتى من شماتة أعدائى ! ٠٠٠) ٠

● الفصـــل الحادى عشر

وطنية زكى مبارك

« بـلادى ، أمـن جـرم جنيت تحـولت

حيـاتى الى وجـه من العيش مرمـد

لئن كـان لى ذنـب فـذاك تولهـى

بشرح الذى زودت فى الدهر من مجد

ستمضى الليـالى ثم تمضى ولا يرى

جمالك اقوى من غرامى ولا وجـدى »

زكى مبارك

قديس القومية العربية :

كان الدكتور زكى مبارك صادق الايمان بالقومية العربيـة وقد امتشق قلمه وكتب الكثير فى الزود عنها وللدعوة الى الوحدة العربية وبالرغم من أنه سـافر الى باريس وقضى هنـاك خمس سـنوات وتاثر بالثقافة الفرنسية فى مناهج البحث والمذاهب الحديثة الا انه عـاد من هناك أشد ايمانا بالقومية العربية والتراث العربى واللغة العربية ولم يحمل لواء الدعـوة للفكر الغربى ولم يستغرب كما فعل غيره من الكتاب وعندما سافر الى بغداد سنة ١٩٣٧ للتدريس هناك ازداد ايمانا بالقومية العربية وازدادت حماسـته فى الدعوة الى الوحـدة العربية المنشودة ٠

يقول فى الدعوة الى الوحدة العربيـة : هذه الأمم العربية لا خلاص لها الا باتحادها واتحاد المشاعر والأذواق والعواطف له أثر عظيم فى اعداد هذه الشعوب لمستقبلها المأمول ٠٠٠ وليس لنـا أن نيأس فان الزمن لن يظل على مواتاته للأمم الأوربيـة الطاغية التى يعز عليها أن تترك شملنا بلا تبديد وجمعنا بلا تفريق ٠

ويبين الطريق الى الوحدة فيقول : أنا أدعو أبناء العرب فى المشرق والمغرب الى حب جميع البـلاد العربيـة حبا يصيرها فى عيونهم وقلوبهم ملاعب حبيبـة ٠٠ أدعوهم الى التآخى الصادق المتين ٠٠ ادعوهـم الى التصوف فى الأخوة بحيث يصبح كل رجل وهو مسئول عن حياة أخيه فى المحضر والمغيب ٠

وقد ثارت دعوة شعوبية تنادى بعدم عروبة مصر وحمل لواء تلك الدعـوة بعض المفـكرين المستغربين أمثـال سـلامة موسى فوقف زكى مبارك موقف المعارضـة الصابة من تلك الدعوات التغريبية وقد رد عليهم وفند مزاعمهم فقال فى الدفاع عن عروبة مصر :

« ان التشكيك فى عروبة مصر لا يقوم به الا اناس يخدمون المستعمرين ويخدمون المبشرين وأن مصر هى التى استطاعت أن تفرض على فرنسا أن تؤمن بأن اللغة العربية لغة حية وهى التى استطاعت أن تفرض على عصبة الأمم أن تجعل اللغة العربية لغة رسمية وهى التى استطاعت أن تجعل الأزهر مرجعا لجميع المذاهب الاسلامية بلا استثناء.

ويقول : أنا عربى والمصريون عرب فى اقوالهم وافعالهم وسجاياهم ودينهم ومذاهبهم وأدعو الله ان يجعل مصر أبد الدهر من أملاك اللغة العربية لغة القرآن .

وقد عاش زكى مبارك طيلة حياته يحمل قلمه فى الدفاع عن القومية العربية وأخذ يهاجم الاستعمار بعنف وصلابة ، وعندما كان فى باريس يتلقى العلم هناك أخذ يحارب فرنسا المستعمره فى عقر دارها بعنف وقوة وشجاعة فريدة حتى صح لوزير خارجية فرنسا أن يعارض فى منحه وسام الأكاديمى سنة ١٩٣١ وقد كان يكره الانجليز وأعلن أنه يحب كل من حاربهم وكان يؤمن بأن أهل الغرب لا يوفون اذا عاهدوا ولا يصدقون اذا وعدوا ولا يبرون اذا أقسموا .. انهم لمغرمون بنقض العهود وتمزيق المواثيق ولسنا فى حاجة الى تذكير قرائى السبعين وعدا التى ظفرنا بها من الساسة الانجليز وقد حارب زكى مبارك جميع الدعوات التغريبية وكل المذاهب الفكرية الغربية المتطرفة فعارض نزعة تمجيد الفكر اليونانى والمناداة بحضارة البحر المتوسط وهاجم الدعوة الى العامية ودعا الى احياء ذكريات العرب ويرى أن كل احياء لذكريات العرب خليق بأن يثير الزهو والكبرياء فى نفوس الأمم الاسلامية ويقول أن العرب مقبلون على تاريخ جديد لا لنهض قواعده بغير الاخاء الصحيح وكانت جولات زكى مبارك فى العراق وسوريا وفلسطين وبيروت اثر كبير فى تعميق مفهوم القومية العربية لديه والدعوة اليها .

ويرى أن الطريق للوحدة هو أن يكون لنا خطة يقول :

ان الأمر الهام أن تكون لنا خطة قومية فى التعرف الى الشرق .. خطة قومية تنزل من القلوب منزلة اليقين وتفرض على المصرى أن يشعر بالأخوة الصحيحة لكل من يتكلم اللغة العربية فاذا تجاوزنا ذلك الى العطف عن كل ما يصدر عن القومية العربية عددنا الاسلام صوت العرب فى الشرق والغرب وأدركنا أن الاسلام ميراث عربى يشاطرنا فيه نصارى لبنان والعراق ..

ووقف هــاجم مبارك دعوة ويلكوكس الى الكتابة باللهجة العامية وقد أثارت هذه الدعوة ضجة وحمل لواءها بعض المفكرين المستغربين وكتب يرد على هؤلاء يقول : (بلغ الجهل ببعض كتاب العصر أن يصدق ما اشار اليه ويلكوكس من أن اللهجة العامية لغة مصرية اصيلة يتكلمها المصريون منذ عهد الهكسوس على أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن لغه مصر القومية هى اللغة العربية الفصيحة لأنهـا لغة للدرس والتاليف ولغة المحـاكم والدواوين منذ أجيال طويلة وقد راينا بعض الكتاب المشهورين يبداون ويعيدون فى هذه المسألة لأنهم رأوها موضع عناية احد المستشرقين وكل ما يهتـم به المستشرقــون يجب ان يهتم به الشرقيــون فى فهـم بعض النـاس) ..

وقد ظل مبارك يدعو الى الوحدة العربية ويكتب فى الدفاع عن القومية العربية ويهاجم جميع الدعوات المتطرفة والتيارات الغربية وقد لقى حربا قاسـية من دعاة التغريب ولكنه ظل صلب القنـاة مصرا على آرائه وعقيدته ودعوته ... وقد صور مبـارك كفاحـه فى هذا المجال وصـلابته يقول (١) :

(وقفت لأعداء العروبة والاسلام بالمرصاد فمزقت أوهام الخوارج على العروبـة والاســلام شر ممزق ودحرت من سولت لهم انفسـهم أن يتطاولوا على ماضى الأمة العربية وعاديت من أجل الحق رجالا يضرون وينفعون ويقدمون ويؤخرون فكان اعتصامى بحبل الحق اقوى ما تذرعت به لاتقاء مكايد الناس ومكاره الزمان ..) .

الثقافة العربية والثقافة الفرعونية :

ثارت معركة فكرية عنيفة عن القومية العربية سنة ١٩٣٣ واشترك فيها بعض أقطاب الفكر وقد أثار تلك المعركة الدكتور طه حسين بتعبير جاء ضمن احدى مقالاته فى جريدة كوكب الشرق قال فيه (ان المصريين قد خضـعوا لضروب من البغض والوان من العـدوان جاءتهم من الفرس واليونان وجاءتهم من العرب والترك والفرنسـيين ..) وعلى أثر هذه العبـارة نشبت معـركة فكرية عنيفة بين أنصـــار القوميـة العربيـة وأنصار الفرعونية وكان على رأس المساجلين لطه حسين الدكتور زكى مبارك فقد امتشق قلمه وانبرى يرد على آراء طه حسين كتب يقول (٢) :

(مصر اليوم لغتها العربية ودينها الاسلام فمن يدعوها الى احياء الفرعونية يدعوها أيضا الى نبذ اللغة العربية أو يدعوها الى اعتقاد ان

---

(١) زكى مبارك ، الأسماء والأحاديث ، ١٩٣٩ .

(٢) البلاغ ، زكي مبارك ، ٢٢ سبتمبر ١٩٣٣ .

اللغة العربيــة لغة دخيلة .. ويدعوها ايضا الى أن تذهب مذهب الفراعنة فى فهم الأصول الدينية نحن اليوم فى عهد انتقال ومن الواجب أن تكون خطواتنا رشــيدة موفقة وليس من الرشد والتوفيق ان نمكن المترددين من المضى فى غيهم والمترددون فى مصيرهم الحيارى الذين لا يدرون مكان القومية المصرية فهم تارة فراعنة وتارة عرب .

واللغة العربية هى لغة المصريين وكيف لا تكون كذلك وقد كانت أداة التفاهم فى وادى النيل نحو ثلاثة عشر قرنا وقد يصعب على الباحث ان يثبت ان المصريين فى عهــود التاريخ ظلوا يتكلمون لغــة واحدة فى مثل هذا المدى من الزمان . ونحن حين نتكلم العربيــة وندين الاسلام لا نحتاج الى من يذكرنا بأننا عرب فنحن عرب لغة ودينا ولكننا مصريون وطنا والذى يطالبنا بغير ذلك انما يكابر فى الواقع وقد كان مفهوماً منذ ازمان طويلة . أن مصر لها وجود خاص وتاريخ العرب حافل بشواهد هذا القول والمصرى لا يمتنع من القول بالوحــدة العربيــة . وهذه الوحدة تتمثل اليوم فى الصلات الأدبية التى تجمع بين مصر وبين المغرب والشام والحجاز واليمن والعراق أما الوحدة السياسية فأمل ضعيف وليس من النافــع أن نسير فى البقاع المصرية لنســتقصى ما بقى من الموســيقى الفرعونية فهذه رجعة ضائعة النتائج وانما الواجب أن ندرس الموسيقى الحاضرة موســيقى الغــرب المثقف ثم نضيف الى أصواتنــا وألحاننــا ما يزيدها قوة الى قوة ... بينت أنه لا يربطنا بالعرب غير اللغة والدين ونحن فيما عدا ذلك أبناء هذا الزمان .. اى والله نحن ابناء هذا الزمان فلتكن ثقافتنا موجهة الى الأصول الحديثة فى العلوم والآداب والفنون ولقد كان الفراعنــة من اعرف اهل زمانهم بالطب ولكن من الخرق أن نفكر اليوم فى تجربة وصفات المصريين .

« ان التطلع الى الوراء محنــة ... وصرف الوقت فى التشبث بالمدنيات البائدة خسار وضــلال ولا ينبغى لنا أن نفــكر فى الحضارة القديمة الا بقدر ما يوقظ العزة القومية .

« ومن الخرافات التى يرددها شباب اليوم ان مصر قد تكون عربية دينا ولغة ولكنها فرعونية دما .. وهذه فكرة وهمية فان مصر كانت قد اندمجت فى القومية الاسلامية وصاهرت الناس من جميع الأجناس وهى بطبيعــة موقعها الجغرافى ملتقى لأهــل الشرق والغرب فليس فيها دم خالص الا فى القرى السحيقة التى حرمها الجهل والفقر من الاتصال بالوافدين الى البلاد من مختلف الجنسيات .

وبعد فنحن نعيش فى مصر ونتكلم لغة العرب وندين بالاسلام ...

هذا هو زكى مبارك قديس القومية العربية .. والذى ظل يدافع عنها ويدعو لها حتى آخر نسمة من حياته الخصبة العريضة .

عاشق مصر :

عشق زكى مبارك مصر عشقا عميقا وظل طيلة حياته مشردا فى حبها مضللا فى هواها .. يبثها أشواقه وحنينه وحبه يناجى مصر فيقول :

(أحبك يا وطنى ... أحبك بأعظم مما أحبك مصطفى كامل ومحمد فريد وسعد زغلول ... أحبك يا وطنى وأستعذب عذابى فيك لأنك فى عينى وقلبى غاية فى روعة الجمال فلم يعان احد من الظلم فى وطنه ما عانيت فما زادنى ذلك الظلم الأثيم الا عرفانا بجمال وطنى وهل رأيتم جميلا غير ظلام ...) ؟

وهو يرى انه يخدم وطنه خدمة قومية حين يصور ما فيه من مفاتن وألوان الحسن وأطايب الجمال :

(دنيانا فى مصر تخضع لخطوب وصروف الحقد على البلابل والعنادل ليخلو الجو لنعيب البوم مع أن البوم قد انعدم فى مصر منذ أجيال وأجيال كما انعدمت الثعالب والذئاب ... وقد أردت أن أتغنى بأزهار الصباحة فى وطنى ... الوطن الذى لا تقع فيه العيون على غير ما يزيغ البصائر ويضل العقول فلم اظفر مع طهارة القلب بغير الاصطباح باللوم والاغتباق بالتثريب ... لابد لى من يوم أغر فى خدمة وطنى وهو اليوم الذى أهتف فيه بأن مصر هى الوطن الأول للشعر والجمال والفتون ...) .

ويفخر بوطنه قائلا باعتزاز وزهو (لن تضام مصر ولن يضام اهلها ولن تجف أقلامها ولن يكون لها بين المظلومين مكان .. لا اقول أن مصر باقية ما بقى النيل ولكنى أقول ان مصر باقية ما بقى الوجود ...

مصر شرعت لجميع الأمم مذاهب الفكر والرأى والبيان وستظل باذن الله مصدر الفكر والرأى والبيان) ..

ويناجى مبارك مصر مناجاة حارة يقول :

(وطنى ... ان لم أحمل السيف فى حمايتك فقد حملت قلمى فى الدفاع عنك والقلم أبقى من السيف وفضلك فى الدنيا هو فضل القلم قبل فضل السيف وقد أقسم الله بالقلم لا بالسيف فعش الى الأبد حجة العالم وبرهان الزمان .. وطنى .. أنت تذكر أنه ما استطاع أمير ولا وزير أن يأجرنى فى العصبية لك لأنك وطنى وحدى ولأنى لا أسمح لأحد بأن يسبقنى فى الوصول الى مواقع هواك ...

وطنى .. وطنى .. ان عشت لك فسأحمل رايتك فى المشرقين والمغربين وسأكون سفيرك فى كل أرض يصل الى أسماع أهلها قلمى ...

فان مت قبل أن أدرك فى خدمتك ما أريد فسأكون برغم الحوادث بطل الوطنية والاخلاص ... وسلام الله على أبرار الشهداء ...) .

ويقول : (متى ارجع الى تدوين الملاحة فى البلاد التى يسقيها النيل الوفى الأمين ؟ ...

متى يتسع الوقت لدرس ما فى مرابع الوطن الغالى من غرائب السحر والفتون ؟ ..

ما هل بلد فى وجه القطار الا وثب القلب ... فما فى وادينا بلد خلت أرباضه من آثار الحروب بين العيون والقلوب حتى كدت أؤمن بأن كل بلد فى مصر هو صورة من صور سنتريس أو بغداد أو باريس .. وطنى .. أنا أحبك أنا أحبك ...) .

ويبث أشواقه لوطنه فيناجى مصر قائلا فى حرارة :

(وطنى .. لقد شقيت بعظمتك ومن أجل هذا أحبك واستعذب الصب والعلقم فى هواك .. وطنى .. اليك أسلمت قلبى وعقلى فخذ بزمامى الى حيث تشاء يا أنضر دوحة تغنت فوقها البلابل ويا أجمل روضة رنت فوقها القبلات ويا اطهر بقعة أقيمت فيها المحاريب .. ويا أشرف صحيفة أرهفت آذانها الواعية لصرير القلم البليغ ..) .

وقد رسم زكى مبارك صورا عديدة لكل بقعة جميلة من بقاع مصر فصورها تصويرا جميلا خلابا وقد رسم العديد من الصور للقاهرة والاسكندرية والمنصورة وسنتريس وغيرها من مرابع الوطن الغالى وكان ينظر الى القاهرة نظرة عاشق مفتون ويراها أجمل بقعة من بقاع الأرض يقول : (لم يبق شك فى أن القاهرة أجمل مدينة فى الشرق وقد تكون

فيها خصائص لا تعرفها باريس ولا برلين وترجع تلك الخصائص التى تفردت بهـا القاهرة الى ما فيها من اختلاف الألوان والأذواق فهى ملتقى للحضـارات الشرقية والغربية ومجتمع للصحيح والعليل من العقائد والمذاهب) .

من الذى يصدق أن فى القاهرة ألف خطيب فى فصاحة سحبان ؟..

من الذى يصدق أن الأمان ذهب من القاهرة بسبب الافراط فى المنافسة والنضـال ؟ ...

من الذى يصدق أن زكى مبارك سيؤلف كتابا فى مثالب زكى مبـارك ؟ ...) .

وهو يرى أن القاهرة ملاذ كل خائف ومأمن كل ملهوف يقول : « ويسألونك عن القاهرة : قل القاهرة بغداد الأمس وباريس اليوم ... أكتب هذه الرسالة وقد هربت من ضجيج القاهرة فى مساء العيد ... نعم هنـا القاهرة ولكن أين الأديب فى المدينـة التى أصبحت عاصمة الشرق هنا فى القاهرة زاد العقول والقلوب والعواطف والأحاسيس فاين مكان الأديب يا قاهرة ليؤدى ما أداه عشاق بغداد فى القديم .. وعشاق باريس فى الحديث ..

وسأذكر بعد فوات الوقت أنى جنيت على شبابى حين أضعته بين سواد المداد وبياض القرطاس فى زمن لا ينفع فيه غير الاتجار بالتراب ..

وهل يستطيع قاهرى أن يمضى يوما واحدا بلا كفاح وهو يعيش فى مدينة مقدودة من صخور الصبر على مصاولة الحياة ..

« فى مثل هذا العيد من سنة ١٩٣٠ كذبت على أبى مرة ولم أكذب عليـه غير تلك المرة .. كتبت اليـه أقول انى سأقضى أيام العيد فى الاسكندرية ولم يكن ذلك الا حيلة لأحبس نفسى أيام العيد فى البيت لأكتب فصلا من فصول (النثر الفنى) وهو الفصل الخاص بتطور السجع فى اللغـة العربيـة ..

انما أنا قاهرى يحبس نفسـه فى البيت يوم عيد ليحفر بسـنان القلم ثقبا يتطلع منه على ضوء العظمة فى القاهرة عساه يقنع القاهرة بانه رجل مجتهد يستحق أن يعيش ...) ويقول (لو كان الماضى

ينفع لرجل مثلى أن يعتمد على ماضيه فى خدمة الحياة الأدبية والفلسفية .. ولكن القاهرة تعيش فى وجه الرجل الذى يعتمد على ماضيه لأن ذاكرتها تضيق عن مراجعة الأسماء ... أسماء المجاهدين الذين عطروا باسمها أرجاء الشرق هى حسناء لعوب لا تعرف حتى .. العاشق المزود بأطايب الثروة والعافية ..) .

هذه هى القاهرة كما رآها زكى مبارك ...

★★★

وأما الاسكندرية فقد كان مفتونا بها وكان يسافر اليها دائما وأوحت اليه العديد من المقالات والقصائد وكان يرجع سبب عشقه للاسكندرية أنه قد أمضى فيها فترة من عمره أسيرا بعد ثورة ١٩١٩ يقول عن السر فى حبه للاسكندرية : (السبب يرجع الى أنى دخلت الاسكندرية أول مرة وأنا حزين دخلتها فى قفص دخلتها فى سيارة مقفلة من سيارات السلطة العسكرية الانجليزية فى أيام الثورة المصرية ... دخلتها فى الظلام فلم أر من جمالها غير أطياف ... ثم نقلت من ذلك السجن المتحرك الى مقر الاعتقال فى ضاحية نائية هى اليوم مواطن صبابة ومدارج فتون ومن يصدق أن ضاحية سيدى بشر كانت معتقلا يسجن فيه من هتفوا باسم الحرية والاستقلال ؟ ..

وفى سنة ١٩٤٣ كتب الشيخ محمود أبو العيون يقول ان زيارة الشواطىء تفسد الأخلاق ودعا الى الثورة على شواطىء الاصطياف ..

فامتشق زكى مبارك قلمه وكتب (١) ليرد على الشيخ أبو العيون بلهجة ساخرة لاذعة :

(ان الشيخ أبو العيون يغرق فى كوز ماء فكيف نسمع كلامه فى البحر المحيط ؟ ...

« هل تعرفون ان الشيخ أبو العيون لم ير الشواطىء مع أنه يعيش فى الاسكندرية منذ سنين ومع أنه أبو العيون ؟ ... « هذا الرجل الطيب يعرف أن السباحة رياضة بدنية وهو مع ذلك يعجز عن السباحة فى الخيال ...

نفرض أن حياة الشواطىء تفتن بعض الناس فهل يجب أن نقتلع الجذور من كل جمال يدعو الى الفتون ؟ ... ما رأيه فى القمر وقد

---

(١) الرسالة ، زكى مبارك الحديث ذو شجون ، ١٩٤٣ .

قيل أنه يهيج الصبوات ؟ أنجرد حملة لاسقاط القمر من أفق السماء ؟... ما رأيه فى الأزهار وقد قيل أو عطرها يوقظ الشهوات ؟ ... أنجتث كل شجرة مزهرة لتنام عيون أبى العيون ؟ ...

« أما الخوف من اللؤلؤ المنثور فوق الشواطىء فعلاجه سهل وهل يصعب عليكم أن تدخلوا الشواطىء بلا عيون ؟ .. عندكم الأقنعة الواقية وقد وزعتها عليكم الدولة بالمجان منذ سنتين فالبسوها عند زيارة الشواطىء لتكونوا فى امان من سحر الجمال ...

وقد كان المصيف بالاسكندرية فرصة لأمير العشاق للتعرف على طوائف من الحسن المكنون فذاق أطايب الخلوات على شواطىء الثغر الجميل ...

● الفصـــل الثـــانى عشر

نهـــاية المطاف

« والأدب العــربى خليــق بأن يــكون له
شـــهداء وأنـــا فى طليعـــة أولئك الشهداء »

زكى مبـــارك

لقى الدكتور زكى مبارك الكثير من المتاعب والمصاعب فى سنواته الأخيرة وأخذ يذوب تدريجيا حتى تحطم وانتهى ٠٠٠ وفى سنواته الأخيرة لقى حربا عنيفة قاسية وخرجت رءوس الأفاعى من أوكارها تنفث السموم ٠٠ فأثيرت من حوله الأراجيف والتهم وأخرج من عمله ٠٠٠

وقد قضى مبارك جل حياته فى التدريس وفى مجال التربية والتعليم وقد بدأ زكى مبارك حياته بالتدريس وظل يعمل فى هذا الحقل حتى وصل الى منصب مدرس فى كلية الآداب ثم أخرجه طه حسين من الجامعة كما ذكرت من قبل وعمل رئيسا لقسم اللغة العربية فى الجامعة الأمريكية بالقاهرة وأستاذا بمدرسة الليسيه ثم عمل أستاذا فى دار المعلمين العليا فى بغداد ثم عمل مفتشا للتعليم فى وزارة المعارف وبرغم مشاغله العديدة فى مجال عمله الا أنه كان خصب الانتاج فقد أخرج عشرات المؤلفات الجياد ٠٠٠

وكتب آلاف المقالات الفريدة المبعثرة حتى الآن بين صفحات الجرائد والمجلات ٠٠٠ ويستطيل زكى مبارك بأيامه فى صحبة كلية الآداب (التى أمضيت فيها أيام شبابى يوم كنت فتى عارم العزيمة يؤذيه أن يقال أن فى الدنيا كتابا لم يطلع عليه ويوم كنت مغمور القلب بأرواح الأمانى ويوم كنت أتوهم ان الجد فى طلب العام لا يظفر صاحبه بغير الاعزاز والتبجيل ويوم كنت أخال ان الكفاح فى سبيل الأدب قد تنصب له الموازين ٠٠ كنت طالبا وكنت مدرسا بها من سنة ١٩١٣ الى سنة ١٩٣٧ ودرت معها من ميدان الاسماعيلية الى ميدان الفلكى ومن حى المنيرة الى قصر الزعفران ثم الى حديقة الأورمان ولم يزاحم هواها فى فؤادى غير الأعوام التى قضيتها بكلية الآداب فى جامعة باريس) ٠٠

وقد لقى زكى مبارك صدمات عنيفة من بعض وزراء المعارف الذين لم تعجبهم صراحته وجرأته فلاحقوه بالاضطهاد والظلم وقبرت جهوده فى وظيفة مفتش بوزارة المعارف ورأى نفسه رغم حصوله على أرفع الشهادات العلمية من جامعة القاهرة وجامعة السربون يتخلف بينما يرى أنداده ومن هم أقل منه يسبقونه فى الوظيفة بفضل الحزبية والنفاق فأحس بالظلم والألم وشعر بالمرارة فى أعماقه فقال : كيف فاتنى ان أنافق فى عصر لم يعش فيه غير النفاق ؟ » ورغم ان جهوده وعبقريته قد قبرت فى هذه الوظيفة ورغم ثورته الا أنه كان يريد أن يعيش لأنه فقير فصبر على خدمة الحكومة على مضض (اعلموا أن أخاكم مكره لا بطل وانه لم يتمرغ فى تراب الميرى الا وهو فى فاقة واملاق ...

« وهل خلق الشعراء لهذا الاستعباد ... وهل كان ذلك هو المصير المنشود لمن يؤمنون بفاطر النخيل والأعناب ؟ .. ولكن لا بأس فمن واجب الشاعر الذى أخضعه الفن للقوافى والأوزان أن يقبل الخضوع لقيود الوظيفة وقيود المجتمع ... وما قيمة الفلسفة ان لم تحسن تعليل الصبر على قيود الوظيفة وقيود المجتمع ؟ ..) .

واصطدم زكى مبارك ببعض وزراء المعارف امثال السنهورى واسماعيل القبانى وفهمى النقراشى وكثرت الدسائس من حوله وأثيرت الأراجيف وانتهى الأمر باخراجه من وظيفته .. ونقله السنهورى الى وظيفة صغيرة بدار الكتب فكتب زكى مبارك يقول له : لن أطيع أمرك الا يوم يقوم الدليل على أنك وزير فقد أسلمت أمور الوزارة الى (قبانى بلا ميزان) (يقصد اسماعيل القبانى) فأراد الوزير أن يقيم الدليل على أنه وزير بالفعل فأصدر قرارا بالاستغناء عن خدماتى ...) .

وقد قابل الأستاذ محمود تيمور زكى مبارك فى تلك الفترة ويروى محمود تيمور ذكرياته يقول ان الدكتور زكى مبارك قال له :

– اسمع منى مصداق ما أقول ماذا تعلم من أمر وكيل الوزارة فلان (اسماعيل القبانى) الذى قلت فيه أنه قبانى بلا ميزان ؟ ...

– هل جد فى أمره جديد ؟ ...

– ترحم عليه ؟ ...

– لم أعلم بالنبأ ... متى ؟ ...

– ذهب روحه أو قل ذهبت ريحه وانا الذى قتلته وكفنته وواريته الثرى ...

ثم استل اضمامة من الرزمة التى يحملها وبسطها فى يده فاذا هى تجربة لمقال عليها اصلاحات بقلمه وقال :

ـ هذه شهادة وفاتـه سـتظهر غدا على رأس موضوعـات مقالى (الحديث ذو شجون) ..

فقال محمود تيمور : انا لله وانا اليه راجعون ... ولمـاذا لم تتركه يطول عمره قليلا يا دكتور ؟ ...

ـ لقد طويته ونشرته هكذا أراد لنفسه أنه جحد حقى .. وتعرض لسخطى على انى أكرمته بهذه الميتة الأدبية الرفيعة .. من يمت بسيف زكى مبارك ناله شرف عظيم ..) .

وفى تلك الفترة العصيبة كثرت الدسائس حوله وبعثت الضغائن وتربص له اعداؤه وقد قاضـاه بنك مصر فى تلك الفترة الحرجـة لدين عليه وشركة مصر الجديدة وكان قد اشترى منها منزلا وامتنعت وزارة المعارف عن دفع ايجار مدرسته بسنتريس المقامة فى منزله وكان الغرض تجويع زكى مبارك واذلاله ومحاربته فى رزقه ليحنى هامته ويخضع ..

ولاقى المزيد من المتاعب حينما نقد خطبـة العرش فى افتتاحية الرسالة سنة ١٩٣٩ وحقق معه وطلب اليه أن يعتذر على صفحات الرسالة فرفض وقال : (لا اعتذر عن مقال كتبته وأنا أعتقـد أنه حق) فالغى عقده مع وزارة المعارف ...

وقال له الزيات : ـ يعز على يا دكتور أن تخرج من عملك بسبب مقال فى الرسالة وأرجو أن تقابل العقاد صديق النقراشى وقال العقاد أن النقراشى لن يستطيع اخراج زكى مبارك من التفتيش خوفا من ألسنة الجرائد الوفدية ولكنه سيتعقبه فى التفتيش لعله يجد تقصيرا يفسـخ العقـد ...

(وفى تلك السنة ذرعت فضاء الله من الشمال الى الجنوب وفتشت جميع المدارس الأجنبية وكتبت تقارير لم يسبق لها مثيل ..) ويقول زكى مبارك أنه عمل فى دار الكتب سنة ١٩٢٤ فشرح الجزء الأول من الأغانى ثم دعاه الدكتور طه حسين لتدريس اللغـة العربيـة فى كليـة الآداب فلما وقع الخلاف بينه وبين السنهورى أخرجته وزارة المعارف لأنه (موظف بعقد) ورأى السـنهورى أنه مازال ينتفع بأموال وزارة المعـارف لأنه أستاذ الأدب العربى بالمعهد العالى لفن التمثيل فكتب

السنهورى كتابا يقول فيه ان التدريس بالمعهد العالى مقصور على المدرسين بوزارة المعارف فانت معزول .

يقول زكى مبارك : (خرجت والدمع يتفجر من قلبى قبل ان يتفجر من عينى ..) .

وكانت صدمة قاسية ...

وكانت صراحته هى التى جرت عليه المتاعب والمضايقات يقول :

(ان كل وزراء المعارف تكاتفوا على مخاصمتى لأنى قلت كلمة الصدق فيمن رأيت من وزراء المعارف فنفونى من وزارة المعارف ويقول : (دخلت وزارة المعارف وأنا أعظم الرجال وخرجت منها وأنا أعظم الرجال) ... من الوزر جاء اسم وزارة المعارف ..) وقد أحس بالمرارة فى أعماقه لمحاربته فى رزقه وعيشه يقول (ان الحكومة المصرية سخرت وزراءها ليخرجونى من أعمالى بلا مكافأة وبلا معاش ...) وكان الغرض هو تجويعه ووضع أنفه الأشم فى الرغام ولكن زكى مبارك لم يهن وظل صاب القناة ..

يقول : (ان كان النقراشى والسنهورى استطاعا أن يخرجانى من أعمالى بوزارة المعارف لأجوع فليعرفا جيدا أننى لن أجوع فالله القادر على كل شىء يعجز عن اخراجى من الملكوت وفيه أطايب الطعام والشراب) ..

ودعاه محمد حسن العشماوى حينما عاد وزيرا للمعارف الى العودة فقال له باباء :

(لن ندخلها مادامو فيها ...) .

وأعاده المرحوم على أيوب عندما جاء وزيرا للمعارف الى دار الكتب سنة ١٩٤٩ ثم أعاده طه حسين الى التفتيش فى وزارة المعارف ورجع الى التفتيش سنة ١٩٥٠ فى الدرجة الثالثة كما كان عينه المرحوم على زكى العرابى (باشا) عام ١٩٣٧ وكان اذ ذاك يقترب من الستين فغامت الدنيا فى عينيه وسحقه اليأس وقد هزته تلك الصدمات العنيفة هزا عنيفا وأحس بالمرارة من محنته فى حياته ...

وخرجت رءوس الأفاعى تثير حوله الأراجيف وتكيد الدسائس ورموه بتهم عديدة ونعتوه بالزنديق والملحد .. والفاجر ...

وتركت تلك الصدمات العنيفة آثارا سيئة فى نفسيته فكفر بالكثير من القيم التى طالما آمن بها واحس بالمزيد من المرارة وهو يرى أن كفاحه فى سبيل الأدب ضائع وكفاحه فى ميدان التعليم ضائع ‥ ورأى نفسه وقد أحاطته الدسائس والأراجيف من كل ناحية حينئذ أحس بالمرارة والآلم وندم على تركه صحبة الفأس يوم كان فلاحا فى سنتريس وقال ان الاتجار بالتراب أجدى من صحبة القلم يقول :

(‥ ليذكر أن الدكتور زكى مبارك لو أنفق نشاطه فى الاتجار بالتراب لأصبح من كبار الأغنياء ولكنه ـ بلا أسف ـ سيموت فقيرا لأنه أنفق نشاطه فى خدمة الأدب العربى ‥‥) .

وبعد حصول زكى مبارك على الدكتوراه الثالثة سنة ١٩٣٧ من الجامعة المصرية آمل أن يتحسن وضعه فقالوا له لا يمكن أن تحصل على الترقية الا بعد طبع الرسالة وقد كلفته الرسالة الضخمة أموالا كثيرة حين أعد منها خمس نسخ خطية فكيف يطبعها وهو فقير الجيب ولكن لم يتحقق شيء من ذلك يقول :

(حالى فى مصر حال عجيب فقد عشت دهرى مظلوما وكان الظن أن يخف الظلم أو يزول بعد أن انتزعت الدكتوراه من أنياب الأسود ؟ ‥‥ هل يصدق أحد أن وزارة المعارف المصرية لا تعطينى غير مرتب مؤقت الى أن يطبع ذلك الكتاب ؟ ‥ هل يصدق أحد أننى لا أستطيع التعبير عن قيمة ذلك المرتب لئلا يشمت أعدائى ولئلا يعرف الناس أن رجال الأدب فى مصر قد يعيشون عيش الفاقة والاملاق ؟ ‥‥ هل أستطيع ان أخبر بأن وزارة المعارف فى مصر قدرت لى مرتبا لا يكفى أن يكون مصروف جيب ولمن ؟ ‥‥ لرجل متهم بالغنى ولا يصبح ولا يمسى الا وهو مطوق بأغلال من التكاليف ؟ ‥‥

وكانت مأساة زكى مبارك أنه لم يكن صنيعة حزب من الأحزاب ولم يكن له سناد من الأسندة التى رفعت كثيرا من أدباء مصر فعرفوا راحة البال وعاشوا فى حماية الأحزاب ويرى ان أحدا لم يعز أدبه كما أعز سعد زغلول أدب المنفلوطى والعقاد وكما أعز ثروت أدب طه حسين ولم تقم قيمته الأدبية على أساس من الشهرة السياسية ولم يصل الى مركزه الأدبى بفضل الحزبية المعروفة اذ ذاك وعاش نظيف القلم نظيف القلب عف النفس لم يؤجر قلمه لحكومة مصرية أو غير مصرية ولم يسخر أدبه لحزب من الأحزاب فعاش فقيرا رغم مكانته الأدبية الرفيعة يقول : (ان راتبى فى وزارة المعارف ضئيل وأنا أكمله بالمكافأة التى آخذها من البلاغ أجرا على مقالات لا يكتب مثلها كاتب ولو غمس يديه فى الحبر

الأسود ثم أنى أنفق نصف مكافأة البلاغ على كتب فرنسية وعربية ، فما الذى يبقى لأنفقه على نفسى وعلى أبنائى ؟ ...) .

عقدة الخمر

أحس زكى مبارك بالمرارة والضياع وهاله أن يجد نفسه فى المؤخرة وقد كافح كفاحا مريرا ونال أعظم الدرجات العلمية من جامعات القاهرة وفرنسا فى عصامية فريدة ويرى أنداده ومن هم أقل منه يصلون بسرعة بفضل الرياء والحزبية وفى سنواته الأخيرة لقى حربا عنيفة قاسية فيحارب فى رزقه ويطرد من عمله وأحس بالدسائس تحيطه من كل جانب واذا به ينعى حظه وزمانه وهو يرى أحلامه تتهاوى وآماله تتحطم وهو الذى عاش طول حياته ممتحنا بعداوات الرجال وعانى من ذلك مصاعب لو صادفت رجلا غيره لدحرته فى أقصر وقت ...

وكانت صراحته هى سبب بلائه فقد جرت عليه الكثير من المتاعب يقول الزيات لو استطاع زكى مبارك أن يتملق الظروف ويصانع السلطان ويحذق شيئا من (**فن الحياة**) لاتقى كثيرا مما جرته عليه بداوة الطبع وجفاوة الصراحة ...) .

أدرك زكى مبارك أنه رغم مكانته الأدبية سيظل متأخرا وبرغم مجده وعبقريته لن ينصف وروعته الحقيقة المرة فانهارت أحلامه وتبعثرت آماله وتذكر أحلام المجد والعظمة حينما كان يناضل ويكافح فى نيل أعظم الدرجات العلمية وقد كان يحسب أن ذلك مما ستنصب له الموازين ...

ورأى زكى مبارك الأصدقاء ينفضون عنه الواحد تلو الآخر ورأى الأراجيف والأباطيل تثار من حوله وهو لا يستطيع أن يرد ويهاجم خصومه بعنف كما كان فى أوج قوته فشعر بالوحدة والضنى والضياع ..

فاتجه الى الشراب وأفرط فيه وأخذ يمعن فى القسوة على نفسه فأهمل نفسه وصحته فأخذت صحته تنهار . وكان يستطيل سنة ١٩٤٧ بقوته ومتانة تراكيبه يقول : (جاوزت الخامسة والخمسين ولم أشعر بمرض يلازمنى السرير ليلة واحدة) .

اتجه الدكتور زكى مبارك الى الخمر ينشد فيها السلوى والنسيان وابتعد عن المجتمع ليقضى ما بقى من حياته فى وحشة حزينة كئيبة مضنية وهو يشعر بالمرارة فى أعماقه لحظه المعاكس (انا فى حرب مع زمنى ولكنى سأنتصر لأن الله معى ولا موجب للخوف من الغد فقد يكون فيه جزاء لا يخطر على بالك اذا غامت السماء اليوم فستصفو غدا) ..

ويقول عن تخلفه في وظيفته : « ان بنى آدم خائنون تؤلف خمسة واربعين كتابا منها اثنان باللغة الفرنسية وتنشر ألف مقالة فى البلاغ وتصير دكاترة ومع هذا تبقى مفتشا بوزارة المعارف » .

ولم يستطع زكى مبارك ان يتخلص من آلامه وسحقه اليأس وجنح الى الخمر ليدفن فيها أحزانه وينسى شجونه وكان يعاقر الخمر وهو كاره لها شاعرا بالأثم والخطأ يقول (أنا اشعر انى سفيه مجرم حين أشرب الخمر ومن أجل ذلك تكثر وساوسى الخلقية فيما يتصل بهذا المعنى) ..

وبدأ مبارك يعاقر الخمر باسراف أبان مأساته الأخيرة واتخذها ملاذا يدفن فيها همومه وأحزانه واصبح له منها صبوح وغبوق ولكنه لم يعاقر الخمر عن مذهب أو عقيدة أبيقورية بل كان يشرب الخمر وهو يحس بالأسى والآلم يقول (ان للخمر فضلا واحدا هو أنها كدرت حياتى) ..

وعرف زكى مبارك السهر وأهمل نفسه وصحته ثم راح يذوب سريعا وكان يحس بالمرارة فى أعماقه وهو يرى نفسه مظلوم وقد شقى بوطنه وزمانه يقول (من زغب الظلم أخذت الخيوط لصياغة الورق ومن دم الظلم أخذت الحديد لسنان القلم .. ومن غضبات الظلم أخذت الكهرباء التى يطالعكم بها بيانى ... وعن جنون الظلم نقلت اليكم اقباس الجنون وهو على سنان قلمى أشد تماسكا من العقل ... وبفضل الظلم رأيتمونى دائما من أنصار العدل ...) .

★★★

بداية النهاية (أيامه الأخيرة) :

هام الدكتور زكى مبارك بالعزلة وكلف بالوحدة وطفق يشرب ويسرف فى الشراب لينسى وقد قاطع الكتابة ونسى القلم وانطوى على نفسه بعيدا عن المجتمع فى وحدة قاسية ممضة وبرز خصومه كالأفاعى يهاجمونه بعنف وينقدون كتبه ويتهمونه بأشنع التهم وينعتونه بالالحاد والزندقة والضلال ويثيرون حوله الأباطيل والأراجيف واذا به يريد أن يمتشق قلمه ليدافع عن نفسه ويهاجم ويصاول كما كان فى عنفوان قوته واذا به لا يستطيع ولا يقوى على الرد عليهم وقد كان فارس الميدان الذى لا يبارى ...

ويصور أنور الجندى تلك الحقبة من حياته يقول (١) :

(واذا به يعود الى (**البلاغ**) ليكتب فصولا ضعيفة الأسلوب ليس فيها بيان زكى مبارك الرائع ولا فكاهته الحلوة ولا سخريته ولا قوته وعرامته وصرامته وانما هى ذكريات تنثال على ذهنه من وراء الوعى فيكتبها فى اسلوب ساذج وعبارات مفككة ويعاود عبارته التى تقول (نكتب التاريخ قبل أن يضيع التاريخ) ..

وقد كان للمرأة اثرها ايضا فى مأساته الأخيرة فان هذا العاشق الذى عرف العديد من الحسان ابتلى بالهوى وصدم بغدر أو هجر من بعض ربات هواه فأحس بالأسى والمرارة ومما زاد أحساسه بالمرارة والآلم أن يرى نفسه وقد ودع أيام الشباب وقد زحف نحو الكهولة وقد أجبر على طى اللواء بعد أن كان فارس الغرام ...

أحس شاعر الحب والجمال بالأسى وهو يلقى سيفه ويودع شبابه وهو الشاعر المؤجج الوجدان المرهف الذوق ويا طالما ذاق أطايب الخلوات فى الزمالك وباريس ومصر الجديدة وسنتريس ... وشعر بالأسى وقد ظل يتشوف الى فنان الجمال وقد صير قلبه الحب شريعة من شرائع الوجود وهو يرى نفسه مهددا بالرحيل عن فردوس الصبابة والوجد ...

فبكى شبابه ووقف أمام محراب الذكريات بتبتل وخشوع ..

ولكن من أقوى عوامل مأساته جرأته وصراحته فقد جرت عليه الصراحة متاعب عديدة يقول (أنا ضيعت أصدقائى بفضل جرائر النقد الأدبى وكنت أحب أن أداوى ماجرح قلمى لأنجو من الدسائس التى تعترضنى فى جميع الميادين) ..

وهو يصرخ صرخة روحية شاكية لتخلفه رغم مكانته وثقافته قائلا بسخرية مرة : (فالدكتور مضروب فى ثلاثة ، يعمل فى وزارة المعارف مفتشا للمدارس الأجنبية أو مراجعا فى دار الكتب وزملاؤه يشغلون أرقى المناصب فى وزارة المعارف والجامعة لأنه لم يكن متصلا بحزب من الأحزاب وليس له فى الحكومة عم ولا خال ..) .

ومن كل تلك العوامل والظروف كانت مأساة زكى مبارك .. وفى سنواته الأخيرة كان يكتب الحديث ذو شجون لجريدة البلاغ ورغم أن كتاباته فقدت بيانها الرائع وعذوبتها وجاذبيتها ، الا أنها لم تخل من فكاهته الحلوة وخفة ظله ..

---

(١) أنور الجندى ، (زكى مبارك ، دراسة تحليلية) ، ١٩٦٢ .

وفى تلك الحقبة من حيـــاته أخذ يكتب كلمات مبعثرة وخواطر مشتتة أودعها آلامه ولوعته وشـقاءه بحظه وزمانه ويصرخ ويئن ولكن بلا جـــدوى ..

وكان يحـاول ان ينسى واقع حياته الأليم ، وما يعانيـه من مؤامرات ودسائس ، وقلة ذات اليد فيسافر بقطـار الصحافـة الى الاسكندرية فى نهاية كل أسـبوع ليقضى فيها أياما قليلة عله ينسى ما يعانيـه ، لأنه كان يجد فى الاســكندرية وفى بحرها بعض السلوى لآلامه وأحزانه الممضة ، رغم ما كان يعانيه أيضا من دخله المحدود رغم الأعباء العائلية الكبيرة ، وما ينفقه على الكتب والمراجع .

وهـذه بعض خواطره ومشـاعره المشتتة التى تجد فيهـا بعض المفارقات والمبالغات وصرخات الظـلم الجريحـة التى كتبهـا الدكتور زكى مبارك فى أيامه الأخيرة ..

● الأرق يلازمنى فى الاسـكندرية بدون ترفق فمن لحظـة الى لحظة أصحو وأوقد النور لأكتب للبلاغ أو أدون ملاحظاتى على المدرسين او لاقرأ كتبا فرنسية حتى أشبع ثم أصحو مع العصافير لأؤدى الواجب الذى آكل منه العيش .. ماذا أصنع .. ؟

● يقول المؤذن فى مسـجد سـيدى جابر « **الصلاة خير من النوم** » فأبتسم لأنى قضيت الليل سهران أعد النجوم وقد عددت النجوم فرأيتها مماثلة لشعر الجياد من الخيل وللناس عقول بعدد شعر رءوسهم وأنـا أيضا لى عقول بعدد شـــعر رأسى ؟ .. يظهر أننى أجنبى فان عيونى خضراء والعيون المصرية سوداء يجب أن ينشر البلاغ هذا الكلام السخيف لأنه سخيـف ، فالعقل أتعبنا فى هذه البلاد ..

● فى هذا اليوم سأدفع حسابى الى بنك مصر وفى الغد أسافر الى الاسكندرية مع سعدية لنغنى معا فى محطة الرمل ..

● اننى رجل مديون تثقله الديون وما داننى الا الجمال واهله ولكن ديونى تخف حين أتذكر أنها كانت مما أنفقت على العصـافير والزغاليل وان خلا جيبى ـ لا خلا جيبى ـ فسأعتصر تلك الخدود واستخرج منها حديدا أبيعه فى الأسواق فى هذا الزمن الذى غلا فيه الحديد .. فان لم يكن هذا فسأعتصر خدود الشمس عند الشروق وعند الغروب وللشمس فى

الشروق والغروب خدود وردية تشوق الأبصار والبصائر والقلوب وان لم يكن هذا أيضا فساعتصر روحى وفيه مناجم الحديد وفيه كهرباء النور والضـــياء ...

● أودع البحر الى أسابيع فساعود اليه بعد اسابيع ففى قلبى أمواج كهربائية وفى قلبه امواج كهربائية ..

● سأكتب الى البلاغ حديثا أجمل من الورد فى الفجر واشهى من علم الفقير بأن فى جيبه خمسة قروش أو خمسة ملاليم نكتب للبلاغ بمداد من دمع العيون ..

● سأعود الى العصافير التى بنت أعشاشها فى شبابيك البيت .. لقد تعودت أن تأكل من يدى فى الصباح وأنا أراقب ألاعيب الشمس فى الصباح .. أنا احضر لتلك العصافير فتافيت من بقايا طعامى واضعها على كتفى لتأكل تلك الفتافيت وهى تغنى بزقزقة هى الغـــاية فى حلاوة الغناء ثم يطيب لها أن تنقر وجهى بتلك المناقير اللطاف الظراف .

● أنا ماض الى تفتيش مدارس الاسكندرية وسأنتهز الفرصة فاغرق فى البحر آلامى ، والمنتظر ان يوحى الى البحر بقصيدة جديدة أنا أمضى الى القطار مبكرا لأجد مكانا مريحا بين ركاب أختار وجوههم وأعرف قيام القطار بالمناداة على البـلاغ وفى الاسـكندرية أواجه البحر عند غروب الشمس وهى تستحم عند الغروب وتظل سابحة الى الشروق وهى الجمرة التى تظل تحترق وهى تغرق ..

● من الأغانى القديمة « يا بنات الاسكندرية مشيكم ع البحر غيه » وسأشمت بزملائى فى البلاغ وانا منهم مغتاظ (فعل شمت لا يوجد فى اللغة الفرنسية) سأتركهم لنيران الظهيرة فى المطبعة بين تحرير وترجمة وتخبير والتخبير هو استقاء الخبر وهى كلمة لايعرفها أعضاء المجمع اللغوى .

● أنا مسافر الى الاسكندرية فهنئونى يا قرائى سأرسل الى البلاغ مقالة أصور بها آلامى فى حياتى فعل سافر معناه (قطع الرجل جزءا من حياته) لأنى مفتش المدارس الأجنبية بمصر وسأذرع فضاء الله من الشمال الى الجنوب وكان يقال من علمنى حرفا صرت له عبدا والدكتـــور طـه علمنى ثلاثة حروف .

● الدكتوراه الرابعة من جامعة الاسكندرية وقد اعددت البحث وسأنجح فان تجاهل الأساتذة منزلتي فسأهجوهم فى البلاغ وهى فرصة لمقالة آخذ بها دنانير ..

★★★

أيام زكى مبارك الأخيرة :

كان الدكتور زكى مبارك فى أيامه الأخيرة قد استسلم للعزلة وقد غشت الكآبة نفسه واحتوته سورة الأسى والعذاب الممض وسحقه اليأس اذ أبصر عقله يتوزع وخياله المتوهج يجف يوما بعد يوم واذا به يكتب كلمات مبعثرة وخواطر مشتتة أودعها آلامه وأحزانه وقد أسرف فى الخمر اسرافا شديدا ينشد فيها السلوى والنسيان وقد شقى بحظه وزمانه فاعتزل المجتمع وغابت عن وجهه ابتسامته الحلوة العذبة وراحت خفة ظله لقد تغير كل شىء فى زكى مبارك فى سنواته الأخيرة المريرة لقد صمت القلب العاشق المغرد وعاد غناؤه نواحا وترنيمه أنينا .. وكان زكى مبارك يقيم فى أيامه الأخيرة طوال يومه وحتى منتصف الليل فى قهوة أمام ميدان التوفيقية وقد أعفى نفسه من مهام العمل فى وزارة المعارف ولم يعد يكتب الا كلماته فى البلاغ « فكتب التاريخ قبل أن يذهب التاريخ تحت عنوان (**الحديث ذو شجون**) وفى مساء كل خميس كان يسافر بقطار الصحافة الى شقته بالاسكندرية ليقضى هناك أياما على البحر ينسيه آلامه ولم يكتب فى تلك الحقبة من حياته مقالة وجدانية واحدة كما كان يكتب فى عنفوان قوته .. رجع ذكرى أو طيف حبيب أو حلم جمال .. ولم يستطع أن يفرج عن نفسه الا فى كلمات مشتتة حزينة تجمعت فى أطواء فكره وقلبه ثم اندفعت من جوهر روحه تروى مأساة هذا العقل الفذ الجبار الذى تحطم .. وفى تلك الحقبة راح يذوب سريعا فأهمل نفسه وملابسه وكتبه وانتاجه وقد زاره أحد الصحفيين فى تلك الحقبة فى منزله بمصر الجديدة فكتب يصف برجه العاجى يقول :

« برج الدكتور العاجى مؤلف من خمس غرف وصالة كبيرة ويضم أكثر من عشرين ألف كتاب وضع بعضها فى نحو ثلاثين دولابا ووزع البعض الآخر فى أركان الغرف وبقرب النوافذ والمقاعد وعلى الأرض وقد حرم الدكتور على الناس بلا استثناء دخول برجه أو الدنو منه ولهذا فان التراب وبقايا السجاير مازالت فى مكانها تزيد وتتكاثر منذ عشرات السنين وكثيرا ما يهبط الوحى على الدكتور بفكرة رائعة أو بيت من الشعر ثم لا يجد فى هذا المخزن العظيم ورقة بيضاء فيسارع بتسجيل الفكرة

أو الشعر على خشب النوافذ أو جدران الحائط وكثيرا ما غرق (التليفون) بين المجلدات فلا يعثر عليه الدكتور الا بعد جهد جهيد ..

★★★

ثم راح زكى مبارك يذوب تدريجيا ..

بعد ان عانى فى حياته ما عانى من الزمن والناس ..

ثم راح يقترب من النهاية .. ليسدل الفصل الأخير من مأساة هذا الانسان المروعة .. وقبل وفاته بأسبوعين كتب الكاتب محمد حمدى فى مجلة النداء تحت عنوان (**ثمن العلم**) يروى حديثا غريبا جرى بينه وبين الدكتور زكى مبارك يصور مأساته ونهاية حياة مليئة بالخصب والعظمة والقوة وفى هذا الحديث تصوير للنهاية الأليمة لهذه العبقرية الفذة وانطفاء هذا العقل المتوهج وهذا هو نص الحديث الذى يعلن النهاية الحزينة لهذا الأديب الكبير (١) :

« قال لى وهو يدفع بالكأس فى فمه دفعا وكان الوقت ظهرا والأديب الكبير جالس على قارعة الطريق فى أحد بارات ميدان ابراهيم باشا والناس علينا متجمعون يشهدون المنظر العجيب :

ـ لماذا تقاوم رغبة صديق وزميل لك فى الصحافة والأدب ثق يا اخا الصحافة أنى لست مجنونا ولا ملتاث العقل ولم أفقد ذرة واحدة من ايمانى بالله وكل ما هنالك أننى ضحية لحقيقة علمية كان من سوء حظى أنها بقيت مجهولة حتى كشفتها أنا ..

وصب الكأس التى كانت فى يده فى فمه دفعة واحدة وشيع السائل الأبيض بجذاذات من الطماطم المملحة ثم رمقنى بابتسامة خلتها تدل على ان الرجل لم يصدق فى حرف واحد مما قاله لى ثم خلع نظارته البيضاء الساذجة واستطرد يقول :

ـ هل تعرف يا صديقى أن للمخ وزنا وثقلا وكثافة .. هل تعرف يا صديقى أن نوع التفكير الذى يباشره الفكر له علاقة بطول عمر المخ وبقائه فى حالة جيدة أو نقصان أهليته أو فساده ؟ .. وهل تعلم ياصديقى أن مايسمونه القدرة الابتدائية هى أشد أنواع التفكير استهلاكا للمخ اذا كنت لا تعلم هذه الحقيقة فعها واستوعبها ..

---

(١) النداء ، يناير ١٩٥٢ .

وبعد كأس أخرى الله وحده يعلم أين تقع فى صف الكئوس التى كان يتجرعها يوميا وبعد تشييعها بحبات من الفول النابت الذى يعشقه شاربو الزبيب جذبنى بيده جذبة قوية وهو يكاد يتهاوى فى مجلسه ثم قال :

ـ اننى الآن أدفع ثمن العلم الذى حصلته لقد استهلكت انشاءاتى الكمية الوزنية للعقل الذى ساعدنى على ان أجعل من نفسى مجموعة دكاترة فى مختلف الفنون الأدبية .. أجل استهلكت دراساتى ومؤلفاتى ما كان لدى من ذلك قبل الأوان وأنا الآن برم ضيق الصدر لأنى اريد مواصلة البحث والدرس .. ولكنى لا أجد عندى قدرة على ذلك .. وماذا يكون الكاتب والمفكر اذا كف عن الانتاج ؟ ..

هل يكون شيئا أكثر من (ذبالة انسان) و (عقب أديب) و (كعب مفكر) .. وهل أرضى تخيل هذه المكانة ؟ ..

اذن ليكن لى فى الخمر مخبأ وملاذا اقضى فيه ما بقى من ثمالة العمر دافعا ثمن العلم الذى حصلته ...)

وفى هذا الحديث الغريب نرى مأساة انسان ومفكر كبير مرهف الاحساس رقيق القلب حاد العاطفة كان ضحية لظروف وعوامل قاسية عملت على تحطيمه وهدمه .. فانتهى هذه النهاية الأليمة المفجعة ..

★★★

النهاية (ثم غاب القمر ...) :

فى مساء ٢٢ يناير سنة ١٩٥٢ أخذ الدكتور زكى مبارك طريقه كالعادة الى بار توفيق فى ميدان التوفيقية طلب كأس الويسكى وزجاجة كوكاكولا صنع من الاثنين مزيجا وأتى على آخر قطرة منهما ثم تطارح الشعر مع الدكتور ابراهيم ناجى وعرج فى الحديث على مهاجمة العقاد وطه حسين .. ثم بعد فترة وبينما كان يصعد سلم البار اصيب باغماء مفاجىء أدى الى سقوطه على الارض واصيب على اثر ذلك بجرح فى راسه فحمله مرافقوه الى منزله بمصر الجديدة فى عربة حنطور وظل غائبا عن الوعى حتى الساعة الخامسة والنصف من صباح اليوم التالى وكان كبار الأطباء قد اجمعوا على ضرورة اجراء عملية (تربنة) فى الحال فنقل الى مستشفى الدمرداش وتمت العملية بنجاح الا أنه أصيب من جراء سقوطه بارتجاج فى المخ أدى

الى مفارقة الحياة وكانت وفاة الدكتور زكى مبارك يوم الأربعاء ٢٣ يناير سنة ١٩٥٢ ..

ودفن فى مسقط رأسه سنتريس ..

وهكذا انتهى هذا المفكر العظيم . هذه النهاية الأليمة المؤثرة .. وقد كان لموته صدى حزين فى جميع الأوساط الأدبية .. وقد رثاه الأستاذ أحمد حسن الزيات فى الرسالة يقول :

انتقل الى رحمة الله ـ الدكتور زكى مبارك ...

« أدركته المنية على أثر كبوة شديدة شجت رأسه ورجت مخه ... فقد الأدب بفقده كاتبا من كتاب الطليعة له جهاده الطويل وأسلوبه الجميل وأثره الباقى .

« كان رحمه الله من الأدباء القلاقل الذين شقوا طريقهم فى الصخر بالعمل الدائب والدرس المتصل والتحصيل المستمر ثم قضى زهرة عمره فى التعليم والتأليف والكتابة على خير ما يكون العامل الصادق من المثابرة والجد فلو أنه انتهى كما ابتدأ لكان له فى تاريخ الأدب والفكر شان غير هذا الشان ...

ولكن عوائق من طبيعته اعترضت طريقه الوعر فلم يبلغ الغاية التى هيأه لها اجتهاده واستعداده ..

هذه العوامل نفسها هى التى جعلته آخر الأمر يعفى طبعه ويوفر جهده فلا يكتب الا عفو الساعة وفيض الذاكرة ...

على أن له من المؤلفات القيمة والمقالات الممتعة ما يثبت اسمه فى سجل الخالدين .. جزاه الله على ما قدم أحسن الجزاء وعزى عنه أهله وصحبه خير الجزاء ... » .

لقد عاش زكى مبارك غريبا ومات غريبا ...

لقد صمت القلب الذى صير الحب شريعة من شرائع الوجود ...

صمتت القيثارة الشجية التى أبدعت لنا احلى الحان الخلود ...

صمتت تلك القيثارة الشجية لنعيش أحلى واجمل لحظات العمر فى معبد الحب والشعر والجمال مع اغاريده العذبة الشجية ولنعيش مع أجمل وارق العواطف والمشاعر والأحاسيس ٠٠ مات أمير العشاق ليبقى ما كتبه دستورا للعشاق يتغنون به فى كل زمان ومكان ٠٠٠

محمد رضـــوان

● الفصــل الرابع عشر

كلمــات عاشت

للدكتور زكى مبارك

● لو شرب الصخر من رحيق الوجود بعض ماشربت لتحول الى اثار وقلوب فكيف أصمت والدنيا من حولى تتأرج بأنفاس الأزهار والرياحين ولى قلب يتشوف الى أفنان الجمال تشوف الشمس الى أنداء الصباح ··

● أنا أشرب المر من عصير الحياة لأحيله على سنان القلم الى شراب سائغ للشاربين ···

● ان الكاتب لايعد فارسا الا اذا استطاع بكل سطر أو بكل حرف أن يعرض قراءه الى الاشتباك فى حروب مع المعانى والآراء والأهواء ·

● ان الأديب الحق هو الذى ينقل قراءه من ضلال الى هدى أو من هدى الى ضلال ···

● لقد ابتدأت حياتى الأدبية بأناشيد الحب والجمال ولو خلانى الناس وشأنى لعشت بلبلا وديعا لا يسمعون منه غير أنغام الحنين ولكن لؤم اللئام حولنى الى اعصار عاصف ···

● مثقال ذرة من الورع السالم خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة ·

● الحب هو ائتلاف روحين وامتزاج قلبين وانسجام نفسين ··· الحب هو أن تذوب القسوة فى كوثر الحنان ···

● الحب نغمة حلوة عذبة تناغى السرائر وتناجى القلوب ···

● الصدق فى الدنيا غريب وأنا فى الدنيا غريب ·· والله هو المسئول عن رعاية الغرباء ...

● الجنة لاتستهوينى لأن الحياة فيها تخلو من المتاعب وانا اكره الحياة الخالية من المتاعب .

● الشيطان مخلوق شريف لأنه لا ينافق فهو يعلن فى كل وقت أنه من الضالين المضلين ولو كشف كل انسان عن سريرته كما كشف الشيطان عن سريرته لأصبحنا جميعا من الملائكة لا من الشياطين ...

● بينى وبين الله عهود ومواثيق والعهد بينى وبينه أن أقضى العمر ساجعا فوق أفنان الجمال فأنا واثق أن العافية لن تضيع من يدى وهل يرضى الله أن أسجع سجع الجريح ؟ ...

● ان المحب فى جميع أحواله أنفس من المحبوب لأن المحب يقدم عواطف صيغت من الرفق والحنان أما المحبوب فلا يقدم غير أزهار سريعة الذبول ...

● المرأة الرقيقة القلب لا تؤنسنى الا قليلا لأن عقلى اكبر من قلبى وانا أشتهى المرأة اللئيمة التى يكون غرامى بها فرصة لدراسة القلوب والنفوس والعقول ...

● الدمع فى عين العاشق كالسم فى ناب الثعبان ...

● العاشق يخدر محبوبته بالدمع كما يخدر الثعبان فريسته بالسم ...

● غسلونى بدموعى يوم أموت ...

● ان النساك يتقربون الى أربابهم بالمدامع فكيف لا يتقرب العشاق الى أحبابهم بالمدامع ...

● لو كانت العيون تقتل حقيقة لكان لى ضريح يزوره العشاق فى باريس ...

● يا خالق النخيل والأعناق كيف سكبت الصهباء فى روحى ؟ ...

محمد رضوان

- ولد محمد محمود رضوان بمدينة الجمالية محافظة الدقهلية بمصر فى ١٥ سبتمبر ١٩٤٨ ٠

- حاصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة عام ١٩٧١ م ٠

- صحفى بدار الهلال - عضو نقابة الصحفيين - عضو اتحاد كتاب مصر - عضو اتحاد الصحفيين العرب ٠

- من الأدباء والنقاد الذين تناولوا مؤلفاته بالدراسة والنقد والتحليل (صالح جودت - أنيس منصور - أحمد عبد المجيد - ابراهيم عيسى - عبد العليم القبانى - د٠ مقداد يالجن - سعد حامد - كمال النجمى) ٠

- له خبرة فى الصحافة الأدبية ، حيث عمل فى سلطنة عمان رئيسا لتحرير مجلة « السراج » ومديرا لتحرير مجلة « النهضة » ويعمل حاليا كاتبا صحفيا بمجلة « الهلال » القاهرية ٠

- تخصص فى أدب السير والتراجم واختط لنفسه المنهج النفسى فى كتابة تراجمه حتى قال عنه السفير الشاعر « أحمد عبد المجيد » : « ومحمد رضوان حين يتولى ترجمة حياة أديب ، نراه يدلف الى روح هذا الأديب ، ويتسرب الى حياته وما اضطرب فيها من حال الى حال ، ويتشح برداء عصره الذى عاشه ، ويتنسم ما كان يستنشقه ، فتجىء ترجمته كظل الغصن أو رجع الصدى » ٠

● **من مؤلفـاته التى صدرت :**

١ ـ صفحات مجهولة من حياة زكى مبارك

٢ ـ شعراء الرومانسية

٣ ـ مأساة شاعر البؤس ، عبد الحميد الديب

٤ ـ شاعر النيل والنخيل ، صالح جودت

٥ ـ السندباد الطائر ، أنيس منصور

٦ ـ رحلتى مع القلم

٧ ـ فيلسوف الصعاليك ، عبد الحميد الديب

٨ ـ شاعر الأطلال ، ناجى

٩ ـ شاعر الجندول ، على محمود طه

١٠ ـ اعترافات شاعر الكرنك ، أحمد فتحى

١١ ـ شـعراء الحب

١٢ ـ من وحى مصر المحروسة « تحت الطبع »

١٣ ـ ليالى أبى نواس

١٤ ـ عندما يحب الشعراء

١٥ ـ عشاق وظرفاء

١٦ ـ المتنبى شاعر بلا قلب

١٧ ـ حسين شفيق المصرى ، فارس الشعر الحلمنتيشى

١٨ ـ نزار قبانى ، دموع شهريار العصر

١٩ ـ نزار قبانى ، شاعر الحب والحرية والجمال

٢٠ ـ طرائف العرب ونوادرهم .

● المراجع

أولا : الكتب :

١ ـ ليلى المريضة فى العراق ··· القاهرة ١٩٣٩ (٣ أجزاء) / مطبعة الرسالة ·

٢ ـ عبقرية الشريف الرضى ··· القاهرة ، ط٢ ١٩٥٢ المكتبة التجارية ـ القاهرة ·

٣ ـ وحى بغداد ··· بغداد ١٩٣٨ المكتبة العصرية ·

٤ ـ البدائع ، ط٢ القاهرة المكتبة المحمودية ١٩٣٥ ·

٥ ـ ذكريات باريس ··· القاهرة المكتبة التجارية ١٩٣١ ·

٦ ـ الأخلاق عند الغزالى ··· المكتبة التجارية ١٩٢٤ القاهرة · الطبعـة الأولى ·

٧ ـ الأسمار والأحاديث ··· القاهرة ١٩٣٩ ·

٨ ـ مدامع العشاق ··· القاهرة ١٩٢٤ / المكتبة التجارية · الطبعـة الأولى ·

٩ ـ التصوف الاسـلامى ، ط ٢ ·· القاهرة المكتبة التجارية ، ١٩٥٤ ·

١٠ ـ العشاق الثلاثة ... القاهرة دار المعارف ١٩٤٤ .

١١ ـ النثر الفنى ، ط٢ ... القاهرة المكتبة التجارية ١٩٥٧ .

١٢ ـ ديوان ألحان الخلود ... القاهــرة دار الكتاب العربى ١٩٤٧ .

١٣ ـ الموازنة بين الشعراء ... القاهرة مطبعة مصطفى الحلبى / ١٩٣٦ .

١٤ ـ المدائح النبوية فى الأدب العربى القاهرة ، مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٣٥ .

١٥ ـ ملامح المجتمع العراقى . القاهرة ، ١٩٤٢ .

١٦ ـ حب ابن أبى ربيعة وشعره القاهرة ، ط٣ ١٩٢٩ .

١٧ ـ اللغة والدين والتقاليد القاهرة عيسى الحلبى ١٩٣٦ .

١٨ ـ ديوان زكى مبارك ـ القاهرة ١٩٣٣ .

٢ ـ انور الجنـدى :

زكى مبارك ... دراسة تحليلية لحياته وأدبه .. القاهرة الدار القوميـــة ١٩٦٢ . أضـــواء على حيـــاة الأدباء المعاصرين .. القاهرة دار الاعلام ١٩٥٥ .

٣ ـ الدكتور جمال الدين الرمادى :

عبد العزيز البشرى .. وزارة الثقافة .. القاهرة ١٩٦٣ .

٤ ـ محمد خفاجى وطه سرور أدباء الشرق .. القاهرة .

٥ ـ أحمد رامى :

رباعيات الخيام .. الدار القومية . القاهرة ١٩٦٢ .

٦ ـ أحمد زكى ابو شادى :
قضايا الشعر المعاصر ٠٠ القاهرة ١٩٥٩ ٠

ثانيا : الدوريات :

١ ـ مجلة الرسالة (١٩٢٤ ـ ١٩٥٢) زكى مبارك ٠

٢ ـ البلاغ (يناير ١٩٥٢) ٠

٣ ـ الهلال (مايــو ١٩٦٦) محمود تيمور (زكى مبارك فتى سنتريس) ٠

٤ ـ الهلال (١٩٦٣) حارث الراوى (زكى مبارك أديب لم ينصفه أحد) ٠

٥ ـ ابوللو (١٩٣٢ ـ ١٩٣٤) ٠

٦ ـ مجلة الرسالة (يناير ١٩٥٢) ٠

٧ ـ الصباح (١٩٣٤ ـ ١٩٤٧) ٠

٨ ـ البلاغ (الحديث ذو شجون) (١٩٢٧ ـ ١٩٥٢) ٠

٩ ـ الهلال (١٩٣٥ ـ ١٩٤٠) ٠

١٠ ـ مسامرات الجيب (١٩٤٩) ٠

١١ ـ البلاغ الأسبوعى (١٩٢٧ ـ ١٩٣٠) ٠

الفهـــرس

الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٢٠٠٤/٤٢٢٩

ISBN — 977 — 01 — 9031 — 4

منذ رحيل زكى مبارك لم يأخذ حقه كأديب كبير، وناقد متميز، وكواحد من أبرز الأدباء العرب فى القرن العشرين.

وجاء هذا الكتاب للأديب الناقد محمد رضوان كمحاولة لإنصاف هذا الأديب المظلوم حيث اعتبر الشاعر الكبير صالح جودت أن هذه الدراسة الموضوعية الواعية لحياة زكى مبارك، جاءت جامعة لكل نواحيه كفلاح أصيل نشأ فى أحضان الريف المصرى وشق طريقه بأظافره الصلدة حتى وصل إلى أعلى مستويات العلم، وجاهد من أجل العلم والدين والعروبة فى مرابع القاهرة ومراتع بغداد وملأ الدنيا بصيحة القومية العربية.

وإذا كان محمد رضوان قد اختار المنهج النفسى فى الترجمة لحياة الدكاترة زكى مبارك وتحليل أدبه، فإنه أيضاً قد اختار رجلاً من جيل سابق على جيله، وكان هذا الاختيار ـ على حد تعبير أنيس منصور ـ نوعاً من استئناف الحكم فى قضية زكى مبارك، وصورة من صور العدل أو طلب العدل ورفع الظلم عن فنان كبير عاش مظلوماً ومات مظلوماً، فهذا الموقف من المؤلف ليس فنياً فقط، وإنما هو موقف أخلاقى أيضاً، لأنه لم يختر فناناً كبيراً، وإنما اختار إنساناً شقياً بنفسه، وبالآخرين، ومن الغريب أن شقاوته هذه أمتعت وأسعدت كل من يقرأ حياة فتى سنتريس زكى مبارك!

٨٥٠ قرشاً

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب